مكتبة الحضارات
(٢)

مستقبل الحضارة

تأليف
ج . دي بويس



ترجمة : لمعي المطيعي
تقديم : ماهر نسيم



الناشر
دار الكرنك

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

مستقبل الحضارة

مطبعة مخيمر ٢٩ شارع الجيش

مكتبة الحضارات
(٢)

مستقبل الحضارة

تأليف
ج . دى بويس

ترجمة : لمعى المطيعى
تقديم : ماهر نسيم

الناشر
دار الكرنك
للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

١٦٩١

هذه ترجمة كتاب :

THE FUTURE OF THE WEST

تأليف

J. G. de BEUS

الناشر

Harper & Brothers Publishers, New York

*

الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس: ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

محتويات الكتاب

تقديم

بقلم

ماهر نسيم

يسعدنى أن أقدم هذا الكتاب إلى القراء العرب الأفاضل ، إيماناً منى بأن المادة التى يحويها إنما هى زاد طيب ينقع غلة الباحثين ويزود طلاب العلم بالمزيد من المعارف والآراء التى تلقى مزيداً من الضوء على نشوء الحضارات وانهيارها ، وتشرح طبيعة العلاقات البيئية والثقافية والسياسية والاقتصادية التى تؤثر فى الحضارات سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر ؛ وسيان فى ذلك أن يؤدى هذا التأثير إلى ازدهار الحضارة أو إلى انهيارها .

ومما يجعلنى أشعر بمزيد من السعادة والفخر وأنا أقدم هذا الكتاب إلى القراء العرب الكرام ، ما أعلمه من أن المؤلفات التى عالجت آراء « شبنجلر » — الفيلسوف والمؤرخ الألمانى المعروف — فى الحضارات ، قليلة جداً إن لم نقل لا وجود لها على الإطلاق . ومن ثم يحق لنا جميعاً أن نحسن وفادة هذا الكتاب الذى يعالج آراء « شبنجلر » على نحو موضوعى لا يفتقر إلى النظرة الأكاديمية أو المنهج العلمى . فمؤلف هذا الكتاب — وهو باحث هولندى — قد حرص فى كتابه هذا، على أن يعود إلى التاريخ

ويستقرئ الأحداث ويستعرض كل الآراء بصرف النظر عما تنطوى عليه من صواب أو خطأ ، كل ذلك توطئة للرد على هذه الآراء والبرهنة على صحتها أو إقامة الدليل على فسادها بمقتضى شواهد من التاريخ وقضايا منطقية تستند إلى الحقائق وترتكز على خلاصة تجارب المفكرين وذوى الدراية .

ولم يقنع مؤلف هذا الكتاب بمجرد عرض آراء « شبنجلر » والرد عليها ، فقد اقتضته النظرة العلمية أن يناقش آراء مؤرخين وفلاسفة قدامى ومحدثين ، من أمثال « دانيلفسكى » المفكر الروسى القديم الذى اهتدى منذ حوالى مئة سنة إلى بضع قواعد تتحكم فى مصير الحضارات ومستقبلها ؛ ومثل « أرنولد توينبى » المؤرخ والمفكر الإنجليزى الذى أسهم بقسط كبير فى وضع الأسس الجوهرية لنشوء الحضارات وانهيارها ؛ ومثل « سوروكين » الباحث الاجتماعى المعروف الذى بذل جهداً كبيراً لتفسير « خط سير » الحضارات من خلال الظواهر الاجتماعية .

زد على ذلك أن مؤلف هذا الكتاب قد حرص على أن يأخذ نفسه بمقتضيات العلم والبحث أخذاً شديداً ، فنأى بنفسه عن الانحياز لحضارة ما دون أخرى ، وآثر أن يكون محايداً منصفاً فشهد بالفضل لذويه ودافع عن أولئك الذين ظلمهم المؤرخون المتحيزون ، كما صحح بعض الوقائع التى شابتها شوائب الخلط والارتباك .

صحيح أن المؤلف قد حاول بكل ماوسعه من جهد أن يدافع عن الحضارة الغربية . . . وصحيح أنه حاول أن يقيم الدليل على أن هذه الحضارة لاتجتاز مرحلة انهيار أو ذبول بقدر ما تجتاز مرحلة تحفز جديد ينقلها إلى طور

حضارى آخر أكثر ازدهاراً وتنوعاً ... كل هذا صحيح ؛ غير أنه من الصحيح أيضاً أنه لم يحاول أن يحكم على الحضارات الشرقية بالموت ، ولم يحاول أن ينكر الدور التاريخى الخطير الذى لعبته هذه الحضارات . ومن ثم ، جاء رأيه فى نشوء الحضارات وانهيارها موضوعياً ومحايداً .

بل إن حياد المؤلف فى هذا الصدد هو الذى حدد له منهجه فى البحث والدراسة وجعله يقف موقفاً وسطاً لا هو فى أقصى اليمين ولا هو فى أقصى اليسار ... فالمؤلف ، من ناحية ، لم يأخذ بوجهة النظر « الغيبية » التى تحمل معتنقيها على أن يؤمنوا بأن العالم يتطور — إن خيراً وإن شراً — بمقتضى قوة لا يد للإنسان فيها ؛ وهو ، من ناحية أخرى ، لم يأخذ بوجهة النظر « الديالكتيكية » المادية التى تزعم بأن العوامل الاقتصادية وحدها هى التى تتحكم فى تطور الحياة وقوانين البشر . وهكذا رفض المؤلف أن يأخذ بوجهتى النظر المتطرفتين اللتين تنكران ما للإنسان من أثر فى الكون الذى يعيش فيه . وهداه هذا الموقف إلى أن الإنسان هو جوهر الحضارات ، فهو الذى يقيم أسسها الأولى ، وهو الذى يطورها ، وهو الذى يهدمها ويقضى عليها إذا شاء ذلك ، ومن ثم يجب أن يكون « الإنسان » هو الشغل الشاغل للباحثين فى الحضارة ، بدلا من أن يقصر البعض كل همهم على دراسة الظواهر الاجتماعية أو الاقتصادية أو البيئية بمعزل عن الإنسان ، وبدلا من أن يركز البعض اهتمامهم فى دراسة تاريخ الحضارات ذاته كما لو كان هذا التاريخ يتحرك ويتطور من تلقاء نفسه ، وكأن الإنسان الذى صنع هذا التاريخ وخلق تلك الحضارة ، لا أثر له فى هذا التاريخ !

والواقع أن هذه النظرة « الإنسانية » الواعية التى اتخذ منها مؤلف هذا الكتاب ركيزة يشيد فوقها هذا « البنيان » العلمى المتين ، لهى نظرة سليمة ؛ فليس ثمة شك فى أن « الإنسان » هو الذى ابتدع الحضارة ، وهو الذى أضاف إليها أو انتقص منها، وهو الذى يحدد مصير هذه الحضارة عن طريق سلوكه الإرادى وشتى العوامل البيئية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى لا تعدو ـ بدورها ـ أن تكون من صنع الإنسان ، أو فى القليل ، أثراً من الآثار الذى يؤدى إليها وجود الإنسان فى هذا الكون .

ونحن ، الذين أقام أجدادنا حضارات تليدة لعبت دوراً حاسماً فى التاريخ ، يسعدنا أن نرى مزيداً من الكتب التى تمجد «الإنسان» وترفع من شأن « الإنسانية » ؛ فحضارة أجدادنا كانت ، بدورها ، حضارة « إنسانية » رفيعة تعنى بروح الإنسان وجسده ؛ ومن ثم حفلت بتعاليم وإرشادات تحث « الإنسان » على أن يكون صادقاً وأميناً وعادلا ووفياً وصابراً وطاهر الذيل ونقى السريرة ؛ كما حفلت بتعاليم أخرى تحث الإنسان على أن يرعى شئون دنياه وآخرته على نحو يجعله سعيداً فى حياته « الفانية » على الأرض ومجداً فى حياته « الأبدية » فى السماء !

ولا يعنى ما ذكرت فيما سلف أننى أوافق مؤلف هذا الكتاب على كل ما جاء فى كتابه من آراء ؛ فلكل فرد منا رأيه الخاص ومعتقداته الخاصة . غير أنى أشارك مؤلف هذا الكتاب إيمانه بالانسان وتمجيده للإنسانية ورفضه الأخذ بالآراء المتطرفة ـ سواء أكانت فى أقصى اليمين أم فى أقصى اليسار ـ فيما يتعلق بنشوء الحضارات وانهيارها . كما أنى أشاركه رأيه القائل بأن مصير الحضارة الحالية إنما يتوقف علينا نحن . . . . فنحن

نستطيع أن ندفع بعجلة هذه الحضارة إلى الأمام ، كما نستطيع أن ندفع بها إلى الخلف . . . . ولكن منطق « الإنسانية » ـ وهو منطق سليم ـ لن يسمح لأحد بأن يدفع بعجلة الحضارة إلى الخلف ، لأن الحضارات ، كما قال مؤلف هذا الكتاب ، قد تزدهر وقد تنهار ، قد ترتفع إلى أعلا وقد تهبط إلى أسفل ، ولكنها لا تعود إلى الخلف على الإطلاق ! . . .

* * *

وفى الختام ، يسعدنى أن أقدم هذا الكتاب ـ الذى يعتبر الأول من نوعه فى العالم العربى إلى القراء الكرام ، داعياً الله ـ عز وجل ـ أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والسلام ؟

ماهر نسيم

مستقبل الحضارة

الجزء الأول

حياة الحضارات وموتها *

* آثرنا هنا الترجمة الحرفية لكلمتى Life, Death لأن المؤلف يدخل فى نقاش مع شبنجلر حول تطبيق هاتين الكلمتين بمعناهما الخالص ، على الحضارات (المترجم) .

— ١ —

نشوء الحضارات وانهيارها

درج المؤرخون الغربيون ، منذ القرن الثامن عشر ، على اعتبار تاريخ البشرية تطوراً واحداً مستمراً ، وخطاً متصلا ؛ وهم يعتبرونه ، عادةً ، تطوراً واحداً ثابتاً مع روح العصر . وفى دراسة التاريخ ، كان المجتمع الغربى يُتَّخذ كنقطة يعود المؤرخون منها إلى الخلف ؛ وكان يُعتبر أيضاً بمثابة النهاية التى بلغها التاريخ السابق كله ؛ وكانت الأحداث التاريخية التى جرت فى العالم ، خلال العصور ، واتخذت أسماء « التاريخ القديم » و « العصور الوسطى » تُعامَل على أنها مجرد تمهيد لتاريخ أوربا ، الذى كان بمثابة البحر الذى تصب فيه جميع أنهار الماضى ؛ وكما كان المفهوم عن العالم قبل كوبرنيكوس « cobernicus » ، وهو أن الأرض تعتبر ، أوتوماتيكيا ، مركزاً للكون ـ كذلك كان تصور التاريخ على أنه خط مستقيم يفسر الأحداث التاريخية لكل الأزمنة والشعوب ، سواء وقعت فى الصين أو فى المكسيك ، فى القرن الرابع قبل الميلاد أو فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد ؛ يفسرها على أنها جزء من عملية واحدة متماسكة تؤدى إلى التاريخ الحديث للعالم الغربى .

وخلال المائة عام الأخيرة أو نحوها ، أُغفِل هذا الرأى الذى يقول إن الحضارة الغربية هى مركز التاريخ ، وذلك تحت تأثير الاكتشافات التى أزاحت الغطاء عن قصة العصور التى طال عليها النسيان ، وأقامت الدليل

على أن مفهوم « الخط الواحد » لايتفق مع حقائق التاريخ .

فمن ناحية ، ليس صحيحاً أن تاريخ البشرية يشكل عمليةً تقدميةً واحدةً مستمرةً ، إذ أننا نلاحظ ، فى التاريخ أن مناطق معينة أنتجت ، فى مراحل معينة ، ما يُطلق عليه عادة « حضارة » أو « ثقافة » . وهذه الحضارات محدودة من ناحيتى الزمان والمكان ؛ أو ، على الأقل ، هناك فترات وأماكن تزدهر فيها الحضارات ، وأخرى تذوى فيها .

فقد نشأت حضارة فى وادى النيل ، وازدهرت هناك ، وانتشرت إلى ماوراء حدود ذلك الوادى ، ولكنها لم تصل مثلا إلى انجلترا أو الصين أو بيرو . وبعد حياة استمرت حوالى ثلاثة آلاف عام ، أخذت فى الذبول التدريجى كحضارة متميزة لها طابعها الخاص ، وفى النهاية أفسحت المجال لعصر ـ فى تلك المنطقة ـ لا يمكن أن يُطلَق عليه أنه عصر حضارة . وبالمثل تلك الحضارة التى نشأت فى روما ، وانتشرت فى القرن الأول الميلادى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وبالشرق الأوسط ، وأوروبا الغربية ، ثم تفككت بعد ذلك ، وحل محلها عصر مظلم استمر من القرن الخامس تقريباً حتى القرن التاسع . وثمت حضارات أخرى أعقبتها عصور مظلمة مماثلة أو سبقتها .

وقد دفع ذلك كثيراً من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن تطور الحضارة لم يكن عبارةً عن تقدم غير متقطع ، وأنها نشأت فى مناطق معينة وفى فترات معينة ثم انهارت إمّا مؤقتاً لتظهر مرة أخرى ، وإما اختفت تماماً .

وفى الوقت ذاته ، كانت اكتشافات العصور الحديثة أقوى دليل

على أن مجتمعات أخرى ، فى عصور سحيقة وبلاد بعيدة ، مرت بتجارب مشابهة لتجاربنا .

وهكذا أصبحنا ننظر إلى الحضارة الغربية على أنها واحدة من حضارات وجِدت أو لا تزال موجودة ، مثلما أصبحنا نعتبر الأرض كوكباً من كواكب كثيرة حول الشمس .

إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة أننا ننكر التقدم ، فإن كل حضارة تبرز فى ذاتها واحداً أو أكثر من خطوط التقدم الطويلة التصاعدية ، ولكن حتى عندما تختفى حضارة ما ، فإن الإبداعات القيّمة التى أنتجتها فى ميادين الأساليب العملية ، والعلم ، والفن ، ترثها حضارة تالية وتستخدمها . . . وهكذا استعارت الحضارة الحديثة الشىء الكثير من حضارتى اليونان والرومان القديمتين فى مجالات الأخلاق ، والفلسفة ، والهندسة المعمارية ، والأدب ، وأنظمة الحكم ، والقانون .

وأخيراً ، تستطيع كل حضارة تالية ، أن تصل ، بل إنها كانت تصل فعلا ، فى حالات كثيرة ، إلى درجة أعلى من درجات التحكم فى البيئتين الإنسانية والمادية ، وبالتالى حققت أعمالا روحية أوجمالية أعظم من سابقتها.

كذلك لا تحط وجهة النظر هذه — عن الحضارة — من قدر الناس أو الشعوب ، فتجعل منهم أدوات يعبث بها القدر ؛ وليس من شأنها أن تجعل الجهد البشرى معدوم القيمة ، فالتاريخ زاخر بأمثلة عن أمم وقادة غيّروا مجرى التاريخ بإرادتهم الصلبة ، وأوقفوا عملية تدهور الحضارة ، أو قادوها إلى مجد جديد .

ومنذ اكتُشِف تشابهٌ معين فى مجرى حياة الحضارات المختلفة ،

بدأ البحث عن دليـــل على مستقبل الحضارة الغربية وذلك بمقارنتها — أو بمقارنة بعض مظاهرها ، كخصائصها الجمالية أو السياسية — بالحضارات الأخرى ، لمحاولة إدراك ما يختفى فى جعبة التاريخ فيما يتعلق بها .

والحق أن هذا الكتاب لا يستهدف عرض هذه النظريات جميعاً ، أو إصدار أحكام عليها ، فقد تولى غيرنا هذا العمل ، وهم أكثر قدرة عليه منا (ومن أحدث الأمثلة التى نسوقها للقارىء كتاب « الفلسفات الإجتماعية فى عصر الأزمة — تأليف بيتريم سوروكين »(١)) لكثير من الفلسفات التى تدور حول أزمة عصرنا . وتختلف تلك الدراسة عن الكتاب الحالى من حيث أنها بحث علمى يهم الطلاب المتخصصين فى الفلسفة ولكنها لا تحاول أن تطبق نتائج البحث العلمى على حضاراتنا الراهنة .

ثم إن مثل هذه المحاولة خليقة بأن تجعل هذه الدراسة تتضخم إلى أن تتخذ حجم دائرة معارف تزين رف كتب القارىء ، وتثقل كالحجر فى معدته الأدبية . وفوق كل شىء ، فإن مثل هذه المحاولة خليقة بأن تجعل لهذا الكتاب غاية تختلف عن تلك التى نعتزم الوصول إليها ، فيصبح بحثاً علمياً شاملا مكتوباً لقلة من المثقفين ، وليس هذا هو ما يحتاجه عصرنا أكثر من عما يحتاج إلى غيره ، فهو يحتاج إلى الإيمان بالواجب التاريخى لحضارتنا وإمكانياتها ؛ وإن بحثنا الحالى ليأمل أن يسهم فى هذا الإيمان . وإذا أريد لهذا البحث أن يثمر ، فيجب أن يظل محدوداً ، وأن يكتب بلغة يفهمها القارىء العادى .

---

(١) Social philosophies of an age of crisis- Pitirim Sorokin

ولقد اقتصرت بعض دراسات التاريخ المقارنة على مجال الأشكال الجمالية محاولةً بذلك إثبات التشابه فى تطور مختلف الفنون فى إطار كل حضارة .

فالمؤلف البريطانى السير فلاندرز بترى-Sir Flanders Petrie-مثلا، يرى أن هناك تتابعاً نسقياً تبرز فيه أشكال الفن فى كل حضارة ، من مرحلة التعبير القديم إلى مرحلة التعبير الحر الدسم . ويرى أيضاً أن التتابع الذى تظهر أشكال الفن مزدهرةً فيه هو ، قبل كل شىء ، الهندسة المعمارية والنحت ويعقبهما على التوالى الرسم فالأدب فالموسيقى فالميكانيكا فالعلوم ، ويجىء فى آخر الأمر ما أسماه « الثورة » . . أما الكاتب الألمانى بول ليجيتى «Paul Ligeti» ، فيرى أن تطور الحضارات جميعاً يبدأ «بالمرحلة المعمارية» التى تنطوى على الترتيب والجهد والقانون والنظام والدين ، ثم تستمر خلال « مرحلة لداثن » ، وهذه المرحلة بمثابة توحيد لمراحل سابقة وأخرى لاحقة ، تتجه بعدها إلى « مرحلة الرسم » التى تعبر عن التقدم ، والحرية ، وقابلية الحركة ، والاضطراب ، والمادية ، والانتفاع ، وسيادة العقل على الإيمان .

وهناك مؤلفون آخرون قدموا نظريات تقدمية تؤكد أن جميع أشكال الفن تمر ، بداخل كل حضارة[١] ، بأطوار متماثلة من حيث المولد والنمو والذبول ، مثل : المرحلة القديمة ، ثم المرحلة الكلاسيكية ، وأخيراً مرحلة التدهور .

ولقد لخص مفكر ، واسع الاطلاع فى التاريخ ، النظريات الخاصة بالقيمة

(١) سنحافظ هنا على ترجمة كلمة Phase بالطور ، وكلمة Stage بالمرحلة ، لما فى كلمة طور من مدلول كيفى وكلمة مرحلة من مدلول زمنى (المترجم) .

المحدودة لكل هذه النظريات التى تحاول أن تقيم تشابهاً فى تطور الفن فى الثقافات المختلفة ، فى العبارة التالية :

[من الصعب القول بوجود أوجه شبه
كثيرة بين أنظمة الفن فى حضارات مختلفة
فى المسائل الصغيرة والكبيرة] .

ويختلف عن ذلك تماماً ، القول بأن المراحل الرئيسية لتاريخ جميع أنظمة الفن واحدة ، وبأنه يوجد تتابع موحد لهذه المراحل ، ومن ثم فإن الخط البيانى لكل أنظمة الفنون يتوافر فيه نفس التناسق من الناحية العملية بما فى ذلك ذروة نجدها فى الحقبة الكلاسيكية وانحدار الاتجاه فى الفترات الأولى (القديمة) ، والفترات الأخيرة (بعد الكلاسيكية) ، ويبدو لى أن هذا الزعم يستدعى نقاشاً ، إذ أن هناك ما يؤكد هذا الشك .

بيد أنه إذا لم يُبَالَغ فى هذه القواعد ، فإنها تكون ذات قيمة تأملية عالية هامة . وذلك لأنها تزيل ، إلى درجة لا بأس بها ، ذلك الغموض الكثيف الذى يكتنف الأحداث التاريخية غير المفهومة . . . وليس من شك فى أن كثيراً من التعميمات السابقة تكون صحيحة تماماً ما دامت لا تتخطى حدودها المشروعة .

وفيما عدا فلسفات التاريخ الجمالية هذه التى يقتصر مجالها على التعبير الفنى للحضارات ، حاولت فلسفات أخرى كثيرة تقييم الأزمة الحالية لحضارتنا إزاء الأساس الأعرض للتاريخ فى جميع مظاهره وتجارب الحضارات الأخرى ، واجتذبت هذه الفلسفات أعظم اهتمام فى عصرنا لأنها تمس

ما يشعر الناس غريزياً بأنه لُبُّ الموضوع : هل يحمل التاريخ فى ثناياه دليلا على مستقبل الحضارة الغربية ؟

وللأسباب التى بيناها آنفاً ، سنقتصر ، فى هذا الكتاب ، على التفسيرات التاريخية لأزمة حضارة القرن العشرين ، لما يبدو من أنها أكثر أهمية بسبب قيمة محتوياتها من ناحية ، ونتيجةً للتأثير الذى أحدثته على عقول جيلنا من ناحية أخرى ؛ ولن نشير إلى المؤلفات الأخرى إلا عندما يتلاءم ذلك مع خط المناقشة العام ، وبذلك يمكننا أن نفيد ـ فى المجالات العلمية التى طرقها الآخرون ـ بما قاموا به من عمل ، ونعتمد على نتائجهم كلما بدت سليمة ، بعد تأمل دقيق .

وإذ نرتكز على أساس علمى موثوق به ، فإننا سنحاول تقدير الحقيقة التى حولنا ، وسنحاول أن نتأمل آفاق المستقبل .

والواقع أن ذلك يعنى أننا سنحاول أولا أن نعثر على خصائص معينة لنشوء الحضارات وانهيارها (الجزء الأول) ، ثم نقيس عصرنا الحالى بهذه الخصائص (الجزء الثانى) ، ثم ، وأخيراً ، نستخلص النتائج فيما يتعلق بمستقبل الحضارة الغربية (الجزء الثالث) .

— ٢ —

وجهة نظر روسية : نيقولاى دانيلفسكى

ليس من شك فى أن الفكرة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه — بالنسبة لنشوء الحضارات وانهيارها — ليست بدْعةً من بدع زماننا ، فقد آمن الفلاسفة الرواقيون - أتباع زينون - ومكيافللى « Machiavelli » ومونتانى « Montaigne » وغيرهم بفكرة مماثلة ، إلا أن أحداً منهم لم يحاول أن يختبرها بدقة إزاء الحقائق التاريخية .

وكان أول من انتقد هذه الفكرة على نحو بسيط هو الفيلسوف الإيطالى جيوفانى باتيستا فيكو « Giovanni Battista Vico » الذى وضع نظرية « الدورات التاريخية » ، ففى رأيه أن كل أمة مرت بدائرة مماثلة ، حيث نشأت من « عصر بطولة » بربرية الأحاسيس . ثم انتقلت إلى طور الحضارة الحقيقية . . . وبعدئذ أصيبت بالانتكاس ، وعادت إلى « بربرية التأمل » المضمحلة بشكلٍ لا يتصوره العقل ، وأغلقت بعد ذلك دورة الحضارة — فقط لتتلوها دورةٌ جديدة مشابهة لسابقتها ، ولكن بقيم حضارية وثقافية جديدة ، ومن ثم فإنها تكونَ أكثر دسماً من سابقتها .

ومضى على ذلك من الوقت مائة وخمسون عاماً ، قبل أن تحدث مقارنة أخرى أكثر دقة بين حضارات مختلفة : وحتى هذه المقارنة تمت خبط عشواء أثناء إجراء دراسة تعالج موضوعاً مغايراً .

فى عام ١٨٦٩ ، أعد نيقولاى دانيلفسكى «Nikolai Danilevsky» ـ وكان موظفا نابها فى الحكومة الروسية ـ دراسات حول موضوعات متشعبة كثيرة : فمن التاريخ إلى اللغات ، ومن النظرية الداروينية إلى انخفاض قيمة الروبل الروسى ، ونشر فى مجلة زاريا « Zaria » سلسلةً من المقالات بعنوان « روسيا وأوربا : وجهة نظر فى العلاقات السياسية بين العالم السلافى والعالم الجرمانى ـ الرومانى » . وأثارت هذه المقالات اهتماماً بالغاً فى روسيا فور نشرها ، ولكن ترجمتها الفرنسية لم تنشر حتى عام ١٨٩٠ ، والألمانية حتى عام ١٩٢٠ ، أما الترجمة الإنجليزية فلم تظهر بعد ، ولذلك فإن آراءه ليست معروفة كثيراً حتى الآن فى العالم الأنجلوسكسونى . غير أن تلك الآراء واسعة المجال وذات طابع تغلغلى بحيث يمكن أن نعتبر نيقولاى الرائد الروحى لخليفتيه المشهورين فى هذا المضمار وهما : شبنجلر « Spengler » وتوينبى « Toynbee » ، وإن كان أحدٌ منهما لم يشر إليه ؛ ولعل ذلك راجع إلى أنه لم توجد ـ فى ذلك الحين ـ أية ترجمة لكتاباته باللغة التى كان يعرفها كل واحد منهما .

ولم تكن غاية مقالات دانيلفسكى ، كما هو واضح من العنوان ، ايجاد فلسفة مقارنة للحضارات ، وإنما كانت ، أساساً ، تأملا للعلاقات بين أوربا وروسيا ، و إيضاحاً لأسباب ما يشوب هذه العلاقات من عداوة ، ولماذا بقيت هكذا خلال الأجيال . وينسب الكتّاب هذه الحقيقة إلى الكراهية الفطرية التى تكنها أوربا لروسيا ، وإلى أن أوربا تعتبر روسيا بلداً غريباً عنها . ويرجع هذا الحقد ـ بدوره ـ إلى حالة الانهيار التى تعانيها الحضارة الأوربية فى الوقت الذى تنهض فيه الحضارة الروسية .

إن الصورة التي رسمها المؤلف الروسي للروح المعادية التي أبدتها أوربا نحو روسيا على مر القرون ، وعدم الثقة التي ترد بها على إخلاص روسيا ، لهو أمر أكثر أهمية اليوم ، على الأقل من ناحية المفهوم الذي تقدمه عن الطريقة التي تنظر بها العقلية السلافية إلى أوربا . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الجزء من دراسة دانيلفسكي لا يتناسب — على نحو مباشر — مع موضوع هذا الكتاب ، لذلك سنقتصر على أن نوصي جميع المهتمين بالعلاقات بين روسيا والغرب بأن يقرأوا ما كتبه هذا المؤلف .

وعلى هامش الصورة التي رسمها لهذه الخصومة بين أوربا وروسيا ، أقام دانيلفسكي نظريته الخاصة بتطور ما أسماه « الأنماط التاريخية — الثقافية » وهو ما سنطلق عليه نحن « الحضارة » .

يقول المؤلف الروسي :

[ليست الحضارة الأوربية هي الحضارة العالمية بأية حال من الأحوال — كان هذا الرأي جديداً في ذلك الحين[1] — وهي ليست أيضاً بالحضارة الديناميكية أو الحضارة التقدمية الوحيدة . إنها حضارة من حضارات كثيرة تحتوي فقط على منطقة الحضارة الجرمانية الرومانية ، وقد نشأت معظم الحضارات الأخرى ، بما فيها الحضارة الإغريقية « Hellenic » — إلى حد ما —

(١) العبارات الموضوعة بين علامتي اعتراض (—) ومن وضع المؤلف .

خارج أوربا . وهذا مافعله الروس ، لأن روسيا لاتتبع أوربا باعتبارها جزءاً أو حتى فرعاً من حضارتها . ولم تسهم بأى نصيب فى حياة أوربا وتجاربها ، ولكنها استمتعت بكيان خاص بها] .

ومن ثم ، فبعد أن هاجم دانيلفسكى « الانطواء والتركيز على الذات » الذت كان يميز — حتى ذلك الحين — رأى الغرب فى التاريخ والحضارة ، اتجه إلى بسط أبحاثه ؛ فقال إن مجموع تاريخ البشرية يتألف من عدد من الأنماط التاريخية — الثقافية المختلفة ، وإن لكل منها خصائص ذاتية ، ودوراً فى رصيد البشر الحضارى . ويميز دانيلفسكى إثنتى عشرة حضارة ، هى - حسب الترتيب الزمنى : الحضارة المصرية ، فالصينية ، فالأشورية - البابلية ، فالفينيقية - الكلدانية أو السامية القديمة ، فالهندية ، فالفارسية ، فالعبرانية ، فاليونانية ، فالرومانية ، فالعربية أو السامية الجديدة ، فالجرمانية — الرومانية أو الأوربية . أما فى نصف الكرة الغربى فهناك حضارة المكسيك وبيرو وقد واجهت كلتاهما انهياراً عنيفاً بغير أن تكملا مجرى حياتهما .

ويقسم دانيلفسكى القبائل والشعوب البشرية إلى ثلاث مجموعات حسب الدور الذى تلعبه بالنسبة للحضارة . أما المجموعة الأولى فتضم أولئك الذين يشكلون القوى الإيجابية ، أى القوى الخلاقة التى أنتجت الحضارات السابق ذكرها ، وتضم المجموعة الثانية الشعوب التى تلعب دوراً سلبياً أو هداماً ، مثل المغول والهون والترك فى الأزمنة الغابرة . وتضم المجموعة الثالثة

الشعوب التي لم تبلغ مستوى الحضارات ، ولا تلعب دوراً فى هدمها ، وهى تشكل الجماهير غير المتبلورة التى لا تصنع تاريخاً سواء فى الاتجاه الإيجابى أو السلبى ، وإنما تستخدمها القوى التاريخية الإيجابية أو السلبية كمادة سلبية لنشاطها وعملها . فهو يقول فى ذلك ما يلى :

[وإلى جانب أنماط الثقافة الإيجابية للحضارات ، توجد فى العالم البشرى عوامل مؤقتة ومتقطعة مثل « الهون » و « المغول » والترك القدامى ، الذين أدوا دورهم التخريبى وساعدوا الحضارات التى كانت فى سبيل التدهور ، على الانهيار ، وشتتوا بقاياها ، وهكذا عادت إلى حالة العدم التى كانت عليها أول الأمر ، ثم لم تلبث أن اختفت ، ويمكننا أن نطلق عليها «العوامل السلبية» فى التاريخ ، بيد أنه يحدث أحياناً أن تلعب المجموعة البشرية الواحدة دوراً إنشائياً وتخريبياً ، مثلما فعل الجرمان . وأخيراً هناك قبائل أو شعوب تتوقف وثبتها الخلاقة لسبب ما ، فى مرحلة مبكرة ، ومن ثم فإنها لا تكون عوامل تاريخية إيجابية أو سلبية ، وإنما هى تمثل فقط « عناصر فى نشوء السلالات » ونوعاً من عوامل غير عضوية تدخل

فى التكوينات التاريخية أى الأنماط التاريخية — الثقافية . . . وليس من شك فى أن هذه القبائل تزيد من تنوع الأنماط التاريخية وثرائها ، ولكنها لا تشكل فى حد ذاتها أى تفرد تاريخى .

« وفى بعض الأحايين ، تتحلل الحضارات المتدهورة إلى مستوى المادة السلالية هذه ، إلى أن يظهر مبدأ إنشائى خلاّق جديد يربط عناصرها بخليط من العناصر الأخرى ، ويكوِّن منها بنياناً تاريخياً جديداً ، وبذلك يصل بها هذا المبدأ الجديد إلى حياة تاريخية مستقلة فى شكل طراز تاريخى — ثقافى جديد . ومن الأمثلة على ذلك ، الشعوب التى أقامت الإمبراطورية الرومانية الغربية ، فقد أصبحت « مادة سلالية » بعد تحلل الإمبراطورية ثم ظهرت مرة أخرى فى شكل جديد يُعرف بالشعوب الرومانية بعد أن تعرضت لتأثير المبدأ الجرمانى .

« صفوة القول : إن للدور التاريخى الذى يلعبه الشعب أو القبيلة ثلاثة وجوه :

فهو إما أن يكون دوراً إيجابياً خلاقاً من
الطراز التاريخي — الثقافي (حضارة)
أو دوراً هداماً — وهو مايعرف بالعقوبات
الإلهية التي تدفع بالحضارة من ذروة النشاط
إلى هوة الشيخوخة والعذاب ، أو الدور
الذي يخدم أغراض الآخرين كمادة سلالية] .

ويمضي دانيلفسكي بعد ذلك فيشكل خمسة قوانين ومتشابهات عامة ، تنطبق على جميع الشعوب في أطوار التقدم القابلة للمقارنة — من بينها قانون معين (القانون الرابع) يؤكد أهمية تنوع واستقلال المادة السلالية للحضارة ، وهو هام جداً في عصرنا الراهن ، ومن الجائز أن تزداد هذه الأهمية في المستقبل ، ولهذا سنعود إلى التحدث عنه في الجزء الأخير من هذا الكتاب — وما يهمنا هنا من أمر هذا القانون هو أن دانيلفسكي ، الذي كتب رأيه قبل « توينبي » بثلاثة أرباع القرن ، وضع المبدأ القائل بأن « الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية » .. ولهذا يستحيل أن نجد — في اليونان القديمة — تاريخاً خاصاً لأثينا أو إسبرطة منفصلا عن نطاق الحضارة اليونانية ، وكذلك في أوربا ، تتعذر دراسة تاريخ فرنسا وألمانيا وإيطاليا خارج المجرى العام للحضارة الأوربية .

ومن ناحية أخرى ، تكون للدول التي لا تدخل في نطاق حضارة واحدة ، صفة مشتركة ضعيفة ، وفي معظم الأحايين ، تكون تواريخها مستقلة بعضها عن البعض الآخر .

وفيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب ، فإن قانون دانيلفسكى الخامس هو أهم قوانينه جميعاً . إن هذا القانون ينص على ما يلى :

[إن مجرى تطور الأنماط التاريخية — الثقافية شبيهٌ بمجرى حياة الأنماط الدائمة التى تستمر مرحلة نموها بلا نهاية . ولكن فترة ازدهارها وإثمارها تكون قصيرة نسبياً فيصيبها الإنهاك والعقم بصفة نهائية]

وفى صياغة هذا القانون ، يدّعى المؤلف أن النمط الثقافى — التاريخى يمر — عادةً — بثلاثة أطوار من النمو هى :

١ — الطور الأول ، أو القديم : وهو مرحلة المادة السلالية التى قد تستمر آلاف السنين وتنتهى بالانتقال من شكل الحياة الشعوبية (السلالية) البحتة إلى مجتمع منظم .

٢ — الطور الثانى ، أو المرحلة المتوسطة . ويتضمن عملية بناء الاستقلال الثقافى والسياسى ، وهو طور تجميع وتنظيم القوى الخلاقة تمهيداً للطور الثالث .

٣ — الطور الأخير ويطلق عليه المؤلف اسم « مرحلة الحضارة » : وفى هذه المرحلة يبلغ النمط الثقافى — التاريخى أوج ازدهار طاقته الإنتاجية الخلاقة ، وتحقيق مثله العليا فيما يتعلق بالفرد والرفاهية الاجتماعية .

وهذا الطور قصير نسبياً — من أربعة إلى ستة قرون تقريباً — لأن نشاطه الخلاق أشبه ببالوعة تستنزف قواه ، وليست هناك حضارة وهبت امتياز التقدم اللانهائى ، نظرا لأن كل شعب يُنهك ويُستنزف قواه الخلاقة فى النهاية . وبالتالى ، فإن هذا الازدهار يتبعه ، لا محالة ، انحدار الحضارة وتفككها ، وهى حالة كان ينبغى أن يعتبرها دانيلفسكى مرحلة رابعة ، ولكنه لم يفعل ذلك . . . وتبدأ عملية التحلل تلك ، ككثير من عمليات الطبيعة ، قبل أن تصبح ظواهرها الخارجية ملحوظة بوقت طويل ، فكما يبلغ الصيف ذروة حرارته عندما يبدأ النهار فى القصر مرة أخرى ؛ وكما تحدث أعلى درجات حرارة النهار بعد أن تتجاوز الشمس أوجها ؛ وكما تكون أعلى نقطة فى حياة الإنسان فى منتصف العمر بعد انتهاء مرحلة أقصى طاقته الإنتاجية ؛ كذلك يبدأ انهيار الحضارة ، وهى لا تزال بعد مزدهرة وتبدو للعيان فى أوج قتها .

ويدعى المؤلف أيضاً ، وهو يشير إلى أوربا بصفة خاصة ، أنه كلما ازداد ضعف القوى الخلاقة ، ازدادت الرغبة فى التوسع ونمت الرغبة فى السيطرة على العالم .

ويتبدى الانحطاط إمّا على شكل حالة من التبلد والجمود والاكتفاء الذاتى ، وهى حالة تنطوى على تقليد أشكال الماضى بلا نهاية باعتبارها مثلا أعلى متحجراً ، أو يظهر فى فترة تسودها متناقضات سياسية واجتماعية تمزق الجسد والروح معاً ، وهى فترة منازعات ويأس ، وعادةً ما ترتد هذه الفترة فى النهاية إلى حالة « التبلد والجمود » .

* * *

تلك هى الخصائص الرئيسية لفلسفة دانيلفسكى العامة من حيث اتصالها بدراستنا هذه . وكما سيتضح من الفصول القليلة التالية فإن كل واحدة منها تشكل — على وجه التقريب — نواةً لفكرة تناولها فيما بعد « شبنجلر » ، وإلى حد ما « توينبى » ، بالتوسع . ووجوه التشابه بينهم بارزة نظراً لأن الأخيرين لم يكونا يعلمان بأفكار دانيفلسكى . ونظراً لأن دانيفلسكى لم يعتبر نفسه أوربياً ، فإنه كان يكتب من وجهة نظر حضارة مختلفة .

وعلى أساس الأفكار التى أوجزناها فيما سلف ، وصل دانيلفسكى إلى التفسير الذى قدمه للعداء الفطرى بين الحضارة الأوربية والحضارة السلافية الروسية ؛ وتكبر الأولى الثانية بحوالى خمسمائة عام . وكانت الثانية تنتقل آنذاك من طورها الثانى إلى طور الحضارة أو الازدهار ، بينما كانت الأولى قد بلغت نهاية هذه المرحلة .

وفى رأى دانيلفسكى ، أن تدهور الحضارة الأوربية بدأ مع بداية القرن السابع عشر ولكن التدهور ظهر جلياً فى القرن التاسع عشر كما يتبين من ضعف الإبداع وتدهور الدين وما صحب هذا التدهور من محاولة متزايدة من جانب أوربا للسيطرة على العالم فى الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية . ولما كانت أوروبا تسعى إلى فرض ثقافتها على العالم كله ، لم يكن من المستطاع أن تنمو الصداقة بينها وبين الحضارة الروسية الفتية التى تضطلع برسالة تاريخية هى كبح جماح شهوة أوربا فى السيطرة . ويقول دانيلفسكى إنه يوم تستقر أوضاع أوربا الداخلية فلن يمكن تجنب الحرب بينها وبين السلافيين المتحدين ، ولسوف تخرج الكتلة السلافية من هذه الحرب منتصرةً على أوربا الهرمة منهوكة القوى لتلعب دورها فى زعامة العالم .

والواقع أن هذه النظرية مألوفة الآن أكثر مما كانت عليه الحال فى الوقت الذى كتبت فيه ، وليس من شك فى أنها تبرر التقدير الذى أسبغه عليها فيلسوف معاصر روسى المولد هو « سوروكين » الذى قال :

[بدأ دانيلفسكى سرد آرائه على هيئة نشرة من طراز ممتاز ، ولذلك أظهرت محتوياتها السياسية ببراعة جعلتها تصبح بحثاً ممتازاً عن فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الحضارى ، وانتهت بأن اتخذت شكل فقرة لماحة وصحيحة — بشكل غير اعتيادى — عن الاستدلال والتنبؤ السياسى ، وليس من العسير على المرء ، عندقراءة أجزائها السياسية ، أن يفطن إلى التشابه الواضح بين آراء دانيلفسكى بشأن العلاقات الروسية الأوربية من ناحية وآراء الحكومة السوفيتية فى الموضوع نفسه من ناحية أخرى ، فإذا استبعدنا المصطلحات الماركسية ، وتفصيلات أخرى مكملة ، تبين لنا أن إيديولوجية القادة السوفييت فيما يتعلق بالعلاقات الروسية الأوربية متشابهة مع آراء دانيلفسكى]

— ٣ —

رأى شبنجلر فى الحضارات

كان أوزوالد شبنجلر شخصية فذة ، فى رأسه غريب التكوين الشبيه بالبيضة أوكرة البلياردو ، تكونت نظرية عن حياة الحضارات وموتها ، كان لها تأثير كبير جداً على الفكر الحديث .

ولقد أحدث كتاب شبنجلر المسمى « انهيار الغرب » الذى نبتت فكرته فى رأسه من قبل وكتبه ونشره بعد الحرب العالمية الأولى ، تأثيراً عميقاً فى أوائل السنوات العشرينية على أوربا التى كانت تنتفض من الإنهاك ، وترتعش بعنف نظراً لما أصابها فى صميم سيادتها بوصفها القائد الطبيعى للعالم ، وبوصفها مصدر كل إنتاج ذهنى وصناعى ومصدر رؤوس الأموال . وللأسباب ذاتها تجدد الاهتمام ، بعد الحرب العالمية الثانية ، بمؤلفات شبنجلر ، وتبدى ذلك فى عدد من الدراسات الجديدة وفى إعادة طبع كتبه الأصلية فى ألمانيا ، والولايات المتحدة (وحتى فى أوربا نفسها ، حيث كان لاسمه وقع مخيف وحيث يتعرض الكثيرون لخطر الوقوع فرائس لفكرة « انهيار الغرب » التى تصيب بالشلل القراء القلائل لكتابه) .

ومهما يكن من أمر ، فإن عدداً كبيراً من القراء قد راحوا يبحثون فى ذلك الكتاب — الذى يتكون من مجلدين — عن إجابة شافية لقلقهم . ولئن

كان المفروض أن قراءة أى بحث يدور حول مثل هذا الموضوع تُعْتَبر قراءة عسرة ، فى هذه الحالة ، تضاعفت صعوبة القراءة نتيجة لظرفين إضافيين ...

ذلك لأننا إذا صرفنا النظر عن موضوع الكتاب نفسه ، فإن أسلوب الكتاب ـ وهو علمى خالص ـ أسلوب جاف ومُعقد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن مادة الكتاب معقدة نظراً لاختلاطها بعناصر تنبع من نظرة المؤلف الشخصية للحياة ، ولكنها غريبة تماماً على الموضوع لأن شبنجلر كان روسياً وعسكرياً بمعنى الكلمة ، والأفكار التى سبق أن كوّنها فى ذهنه — وهى تنطق بعنف لا هوادة فيه فى كل صفحة من صفحات كتابه — تشهد على موقف شبنجلر من الحياة ، وهذا سبب إضافى يوضح لماذا يبدو هذا الكتاب غير مقنع ، بل ومنفر إلى حد ما ، فى نظر القارىء العادى فى أى بلد ديمقراطى . وقد أدى ذلك — لسوء الحظ — إلى طمس ثروة الحقائق والأفكار الموجودة فى هذا الكتاب عن أعين جمهرة الناس فى كثير من الدول وبالأخص تلك التى تتكلم اللغة الإنجليزية . بيد أنه إذا حاول المرء غربلة كتابات شبنجلر بدلا من تفسيرها ، فلن يلبث أن يرى صورتين مختلفتين لشبنجلر تبرزان من ثنايا هذه المؤلفات الضخمة : إحداهما لشبنجلر الأوتوقراطى العسكرى رائد الإشتراكية القومية ، والأخرى لشبنجلر العالم ، المفكر ، الفيلسوف ، الملهم ... والأولى هى شخصية الأب الروحى لهتلر ، والثانية هى شخصية الإبن الروحى لجوته . ولا ريب فى أن هذه الشخصية المزدوجة المتنازعة أحدثت تأثيرها الدائم فى روح شبنجلر مثلما فعلت طبعاً فى روح الشعب الألمانى كله ، ويمكن أن يُستَكشف ذلك فيما يبديه من عنف وسورة فى نبذ المفاهيم الهادئة ، مثل عدم الانحياز ،

والأخلاقية ، والمثالية ، والفلسفة ، فإن الرجل الذى يخشى التأثر بمثل هذه المفاهيم هو وحده الذى يستطيع أن يرفضها بمثل هذا العنف الذى لا ضابط له .

إن المتأمل المنصف الذى يحاول أن يفرق بوضوح ، على قدر المستطاع ، بين هذين الجانبين فى إنتاج شبنجلر ، لن يلبث أن يجد أنه من الممكن فصلهما إلى حد كبير . فإن التشابه العام فى تطور مختلف الحضارات الذى يحاول أن يثبته يمكن قبوله ، ولكن دون قبول تقدير الاستحسان أو الاستهجان الذى يضعه شبنجلر فى مختلف أطوارها ، وبغير قبول جميع الأمثلة التى يستخدمها ، أو المواقف المتطرفة التى يحاول أن يدفع نظامه إليها . .

ولكى نحاول فصل هذين الطورين سنبين فى الفصل التالى عدداً من المفاهيم الأساسية التى يقوم عليها تقدير شبنجلر الشخصى للأزمنة والحقائق والأشخاص ، وهى مفاهيم يمكن إعتبارها تحاملا — غير مقبول — على حضارة لها جذورها فى الإيمان الدينى ، وحرية الإنسان .

فإذا إستبعدنا حواشى هذا التحامل ، فإن الإطار القوى التأثير الذى يقارن شبنجلر الحضارات بداخله ، يظل متماسكا .

فما هو هذا الإطار ؟

جوهر فلسفة شبنجلر عن الحضارات

إذا اختزلنا فلسفة شبنجلر إلى أبســـط صورها فإنها تصبح على النحو التالى :

إن الحضارات ، شأنها فى ذلك شأن جميع القوى الطبيعية ، تتبع نمطاً مشتركاً ، من المولد ، والنمو ، والانحدار ، والموت ، ومن ثم فن الممكن أن نجد تشابهاً بين مجريات حياة الحضارات المختلفة ، وأن نعقد مقارنة بين المراحل المتتالية لـكل حضارة كما تتمثل فى سياستها وإقتصادها ودينها ، وفنها ، وعلمها والنواحى الأخرى فى المجتمع المنظم ، وقد أجرى شبنجلر هذه المقارنات بمئات الأمثلة ، أما تأثيراتها فمذهلة أحياناً ، وباعثة على السخرية أحياناً أخرى ، وعلى هذا النحو أنشأ رأيه فى « مورفولوجيا الحضارة » وهو علم حياة الحضارات وموتها .

فإذا كان بحث شبنجلر الأساسى صحيحاً ، فإن هذا العلم لا يمكّننا من إجراء مقارنات بين مراحل ماضية للحضارات فحسب ، وإنما يمكننا أيضاً من التنبوء بمستقبل حضارتنا ، وهذا هو ما فعله شبنجلر فأحدث بذلك مثل هذا التأثير العميق فى عالمنا الغربى . ولـكى يمكن الحكم على نتائجه ، يجب أن نتأمل أولا الطابع العام للحضارات كما رسمته يد شبنجلر البارعة . لقد نحا شبنجلر نحو جوته فى مقاله « Geistesepocken » فميز بين أربعة أطوار متعاقبة للثقافة : طورها الإبتدائى ، ثم المبكر ، فالمتأخر ، فالمحتضر . إلا أن شبنجلر يستعمل كلمة « ثقافة » وحدها للتعبير عن المرحلتين « المبكرة »

و « المتأخرة » ، أى مرحلتى الازدهار والإثمار ، ويحتفظ بكلمة «الحضارة» للمرحلة الأخيرة ، أى مرحلة العقم والتحجر . . . فالثقافة فى تعبيره اللغوى هو ما يطلق عليه معظم الكتاب « الحضارة الحية » . والحضارة فى تعبيره اللغوى هى ما قد يطلق عليه معظم الكتاب الآخرون « الحضارة المتحضرة » .

وتسبق مولد « الثقافة » فترة تُعْرَف باسم «فترة ما قبل الثقافة » ، وهى فترة تتوسط ثقافتين من الناحية الزمنية أو المكانية ، وفى هذه الفترة يولد الناس ، ويعيشون ، ويحيون ، ويعملون ، ويموتون كالعادة ، إلا أن نظام المجتمع لا يأخذ أثناءها شكل المنظمّ ، ولا ينتج أية ديانة ، أو فن ، أو علم على قدر من الأهمية بحيث يشكل « ثقافة » . إنه مجتمع « لا تاريخ له » حسبما عبر شبنجلر عنه ، ومعنى ذلك أنه لا يحتوى على أحداث ذات أهمية لتطور الحضارة ، ولو أنه يشتمل ، بلا ريب ، على أحداث هامة بالنسبة لمعاصرى تلك الفترة .

فبالنسبة لحضارتنا الغربية ، فإن فترة «ما قبل الحضارة» تتمثل فى العصر الواقع ما بين عامى ٥٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد . وفيما يتعلق بالحضارة الكلاسيكية فإنها تتمثل فى العصر الواقع ما بين ٦٠٠ و ١١٠٠ بعد الميلاد .

ويتضح مولد إحدى « الثقافات » بظهور أسلوب قوى وبسيط فى مجال الفنون أو العلم أو الدين ، ويقترن مولد الثقافة عادةً بمولد الأسطورة ذات الأسلوب الرفيع ، مثل « الفيدا » فى الهند ، وملاحم هوميروس فى اليونان ، وأساطير القرون الوسطى الجرمانية فى أوربا . وإستناداً إلى هذه الأعراض ، يمكن أن يُحدَّد مولد الثقافة الكلاسيكية القديمة بأنه تم حوالى عام ١١٠٠

قبل الميلاد ، بينما تم مولد الثقافة الأوربية حوالى عام ٩٠٠ بعد الميلاد .

وتتميز الفترة الأولى أو المبكرة فى المجال السياسى بالإقطاع ، إذ أن الأرض هى المصدر الرئيسى للإنتاج ، ومن ثم فإن الريف ، ومالكه ، وحاكمه ، والنبيل الإقطاعى تصبح لهم السيطرة السياسية ، أما المجال الروحى فإنه يتميز بمولد مثالية الفروسية الدينية . ومن الناحية الإقتصادية ، فإنها تكون زراعية أساساً ، ذلك لأن « المدينة » لا تزيد فى هذه الفترة عن كونها سوقاً أو حصناً . ويؤدى الصراع الذى ينشب بين الأرقاء وبينهم وبين مالك الأرض إلى تفكك النظام الإقطاعى تدريجياً ، ويؤدى بالتالى إلى قيام دول ارستقراطية وإلى نشأة المدن ، وبذلك تنتهى الفترة الأولى ، ويتمثل هذا التطور فى حكم «أسرة شو» المبكر فى الصين (١٣٠٠ — ٨٠٠ ق . م) ، وفى أوربا فى الإمبراطورية الجرمانية — الرومانية ، والصليبيين والصراع بين الإمبراطورية والباباوية (الفترة القوطية : من ٩٠٠ — ١٥٠٠ ميلادية) .

وبنشأة المدن ، تبدأ مرحلة جديدة هى « مرحلة الثقافة المتأخرة » وتتمثل هذه المرحلة عند اليونان فى الفترة الأيونية (ما بين ٦٥٠ ، ٣٠٠ ق . م) ، وتتميز بازدهار دولة المدن ، وتبلغ ذروتها فى عصر بركليس الذهبي ، أما فى روما فتتمثل فى استبدال حكم الملوك بحكم النبلاء ، وما أعقبه من الصراع بين النبلاء والعامة . أما فى الحضارة الغربية فتتمثل فى فترة « الباروك » (١٥٠٠ — ١٨٠٠) ، غير أن أصلها يجب أن يُرْجع إلى مدن عصر النهضة فى إيطاليا وفرنسا ، ومدن « هانسا » فى شمال غرب أوربا . وقد انتهت هذه الفترة بالنصر النهائى الذى أحرزته الجمهورية الثالثة بعد الثورة الفرنسية . بينما تتمثل فى الصين فى الفترة الأخيرة لحكم «أسرة شو»

(٨٠٠ — ٥٠٠ ق . م) التى تعتبر نهايتها متمثلة فى سقوط حكم «أسرة شو» فى عام ٤٤١ ق . م . وهو حدث يشبه الثورة الفرنسية .

إن العلامة المميزة لهذه الفترة « المتأخرة » هى ازدهار المدن وتفوقها. ولم يبرز أحدٌ هذه الظاهرة مثلما أبرزها شبنجلر حينما قال « إن تاريخ العالم هو تاريخ المدينة » وفيما يلى ما قاله فى هذا الصدد :

[ومن النتائج القاطعة أن كل الحضارات الكبرى هى حضارات المدن ، فإن الإنسان الأعلى فى العصر الثانى هو حيوان مرتبط بالمدينة . وهنا يكمن المعيار الحقيقى لتاريخ العالم الذى يميزه بشكل قاطع عن تاريخ الإنسان — إذ أن تاريخ العالم هو تاريخ الإنسان المتمدين — وتستند الشعوب والدول والسياسات والدين وجميع الفنون والعلوم إلى ظاهرة واحدة أساسية من الظواهر البشرية ، هى المدينة . .

« ولكن المعجزة الحقيقية هى مولد روح المدينة . . فإن ما يميز المدينة عن القرية ليس هو حجمها ، بل وجود روح فيها »] المجلد الثانى ، الفصل الرابع .

ولقد أوجدت المدن الطبقة البورجوازية التى تستولى تدريجياً على السلطة

السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وتتولى زمام القيادة من الطبقتين الأصليتين فى كل ثقافة ، وهما طبقتا النبلاء الإقطاعيين ورجال الدين . وفى ميدان الفن والعلم تتمخض هذه الفترة عن عدد من الفنون المدنية الواعية تتولاها أيدى أفراد موهوبين . إنها « فترة الأساتذة العظماء » وقد تمثلت فى عظماء النحاتين والمعماريين والفلاسفة فى القرن الخامس فى اليونان ، وفى عظماء الرسامين فى المدارس الإيطالية والهولاندية ، والموسيقيين الألمانيين ، ودعاة الإصلاح والإنسانية ، وجاء من بعدهم أنصار مذهب التعقل الإنجليز فى القرن السابع عشر ، ورجال دوائر المعارف الفرنسيون فى القرن الثامن عشر ... ففى المدينة :

[كلما ازداد الإنسان ضعفاً زادت حدة إحساسه وقوة عقله ، وتحوّل الإنسان إلى كائن ذكى حر كالقوم الرُحل الذين أصبح يحاكيهم ، ولكنه أكثر تقيداً فى حركته عنهم ، وأشد برودةً منهم ، وتصطبغ سائر الفنون والأديان والعلوم بالصبغة الذهنية ببطء ، وتصبح غريبة عن الأرض ، غير مفهومة عند الفلاح »]

وفى النظام الاقتصادى والمفاهيم الاقتصادية فى المدن ، يصبح المال قوة مستقلة ، وتنقطع صلته بالأرض . وهكذا فإن العملية كلها تتمثل ، باختصار ، فى انتصار المدينة على الريف ، وانتصار المال على الأراضى

العقارية ، وانتصار المثقفين على التقاليد ، والجماهير على الأجناس صاحبة الامتيازات .

وفى النهاية ، تدخل فى الطور الذى يطلق شبنجلر عليه اسم « الحضارة » ، وهى فترة فناء كل ثقافة ، إنها فترتها النهائية ، ولكنها الأقل خلقاً ، وهذه الفترة هى أهم الفترات من وجهة نظرنا لأن الحضارة ، كما يقول شبنجلر ، قد دخلتها مع مجىء نابليون .

ويمكن تقسيم هذا الطور ، من الناحية السياسية ، إلى فترتين منفصلتين واضحتين . وأحسن صفة يمكن أن تطلق على الفترة الأولى ، هى الاسم الذى أطلقه التاريخ الصينى عليها : فترة الدول المتنازعة ؛ وعنها يقول شبنجلر ،

[يسمى المؤرخون الصينيون الفترة ما بين ٤٨٠ — ٢٣٠ ق . م « فترة الدول المتنازعة » ، وقد بلغت ذروتها فى قرن لم تنقطع فيه الحروب بين كتل الجيوش مقترنة بانتفاضات اجتماعية رهيبة ، ومنها تولدت دولة شين « Chin » (الرومانية) ، وعليها قامت أسس الإمبراطورية الصينية ، وعرفت مصر هذا الطور فيما بين ١٧٨٠ و ١٥٨٠ ق.م ، الذى شغل الهكسوس آخر قرن فيه ، وعرفته الثقافة الكلاسيكية فى عهد شارونيا « Chaeroneo » (٣٣٨) ، وفى أشد فترات الذعر ، من عهد جراشى Gracchi (١٣٣) إلى أكتيوم (٣١ ق.م) .

أما عالما أوربا الغربية وأمريكا فإن مصيرهما جاء فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

« فخلال هذه الفترة ، يتغير مركز الجاذبية ، كما تغير فى الفترة التى توسطت أتيكا ولاتيوم ، وكما تغير من « هوانج — هو » فى « هو — نان فو » إلى « يانج — تسى » (إقليم هو باى العصرى)] المجلد الثانى ، الفصل الثانى ، القسم الخامس .

ولم يكن فى استطاعة الكاتب ، حينما كتب ماسلف ، أن يضيف إلى ذلك — ولو أنه من المحقق أنه تنبأ به — أن مركز ثقل العالم الغربى لن يلبث — بعد ثلاثين عاماً — أن ينتقل بدوره (عبر المحيط الأطلنطى) .

إن فترة « الدولة المتنازعة » التى تستمر عادةً ما يقرب من قرنين ، تنتهى بإحراز إحدى القوات المتنازعة النصر النهائى ومن ثم يمتد سلطانها تبعاً لهذا النصر ـ بشكل أو بآخر ـ إلى سائر المنطقة التى انتشرت فيها حضارتها ، وولدت « الدولة الكبرى » وولد معها الطور الأخير للحضارة . وخلال هذه الفترة ، كان العالم المتحضر كله يحكم بطريق مباشر أو غير مباشر على نحو رسمى أو غير رسمى ، بطريقة شرعية أو حسب الأمر الواقع ، من نقطة مركزية واحدة ؛ يحكمه شخص غالباً ما كان قائداً فائق القدرة سواء أكان يحمل لقب قيصر أو امبراطور أو مغولى أو أى لقب آخر . . ولم تعد تحدث حروب « دولية » بداخل الإمبراطورية ، وهى الحروب التى تقع

بين ما تعودنا أن نطلق عليه «دولا» ، ومن ثم يمكننا أن نقول إنه كان عصر « سلام رومانى » . . وفيه اتخذت الحروب شكل مناوشات صغيرة على طول الحدود ليلقوا « بالبرابرة » فى البحر خارج الإمبراطورية ... هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، أخذت الحروب شكل صراع داخلى من أجل العروش ، وشكل « الحروب الخاصة » و « ثورات القصر » ، «وانقلابات» أو منافسات شخصيه أو «منازعات» بين العصابات والجماعات .

إن هذا الطور ، الذى يعد بمثابة « شتاء الحضارة » والذى يطلق شبنجلر عليه « الحضارة » — ابتغاء استبعاد الأطوار السابقة — يتكون — من ثم — من فترة من الحروب العظمى تعقبها فترة من الحضارة السلمية الواسعة ، وبالإضافة إلى الإتجاهات السابق ذكرها ، يصف شبنجلر بدقة الظواهر التالية كعامل مميز لطور السلام العالمى .

خصائص طور الحضارة الأخير عند شبنجلر

(١) السلام العالمى والقيصرية :

لما كانت منطقة الحضارة كلها خاضعة لسيطرة سلطة واحدة ، وفى نهاية الأمر خاضعة لسيطرة رجل واحد ، فليس ثم مبرر « لحروب قومية » . ومهما يكن من أمر ، فإن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال نهاية إراقة الدماء ، فقد استبدلت « الحروب القومية » بالحروب « الخاصة » التى تستهدف الاستئثار بالسلطة الشخصية فى الدولة كلها أو فى جزء منها : تلك هى فترة القياصرة ، والأفراد الأقوياء ، والديكتاتوريين ، والحكام العسكريين : فترة الفيكنج .

وقد بدأ ظهور هؤلاء الحكام فى فترة الدول المتنازعة ، ولكنهم وجدوا فرصتهم الكاملة عندما استقر طور السلام العالمى ، أى عندما تخلت الأمم عن رغبتها فى السلطة ، وتولى الأفراد زمام هذه السلطة .

[ومع السلام العالمى — سلام السياسة العليا — تراجع السيف فى التاريخ وعاد حكم « التحايل » مرة أخرى ، ومن تلك الفترة وما بعدها ، كانت هناك تواريخ خاصة ومطامع خاصة من القمة إلى القاعدة — من متاعب الفلاحين التافهة ،

إلى منازعات القياصرة المرعبة فى سبيل السيطرة الخاصة على العالم]

[وكانت الحروب فى فترة السلام العالمى حروباً خاصة ، وهى أشد رعباً من حروب أية دولة ، لأنها عديمة الشكل ، بالنظر إلى أن السلام العالمى — الذى كان يوجد غالباً — يتضمن نبذ الحرب من جانب الأغلبية الساحقة ، وبالإضافة إلى ذلك يتضمن أيضا استعداداً تاماً للخضوع للآخرين الذين لا يرفضون فكرة الحرب]

[وعلى هذه المقدمة الروحية ، نشأت قرصنة (فيكنج) أخرى ، وانتقلت حالة البقاء ، من الناحية الشكلية ، من الأمم إلى عصابات وبطانات المغامرين ، وأشباه القياصرة والجنرالات المنشقين ، وملوك البرابرة وغيرهم] — المجلد ١ ، الفصل ١١ ، القسم العاشر .

وكان السلام العالمى يمثل — غالباً — قراراً من جانب واحد ، ولهذا كان لحالة السلام الرومانى Pax Romana :

[بالنسبة للأباطرة العسكريين الأواخر
وزمرة الملوك الجرمان ، كان للسلام العالمى
معنى عملى واحد هو أن هذه المرحلة
أوجدت شعباً من مائة مليون من السكان
أصبح هدفاً لجماعات المحاربين الصغيرة
الراغبين فى الحكم ، وقد اقتضى هذا السلم
تضحيات سلبية ، تبدو خسائر معركة كاناى
تافهة بجانبها . . وهكذا تنتقل عوالم بابل
والصين والهند ومصر من يد فاتح إلى يد فاتح
آخر ، وتدفع دماءها فى سبيل هذا النزاع ،
وذلك هو السلام عندهم .

« وهكذا فإن أى زعيم قوى الإرادة
يجمع مائة ألف مغامر حوله ، كان يستطيع
أن يفعل ما يريد] ـ المجلد٢، الفصل السادس

(ب) المدينة العالمية :

لم يتنبأ أحد بنشأة المدينة العالمية الضخمة ، أو يصف سحرها وقبضتها
الوحشية الخداعة المتحجرة مثلما فعل شبنجلر ، فقد وصفها بعبارات بليغة ،
وقال إن تلك المدينة تأخذ معها إلى — نهاية كل حضارة — الجمال المتحضر
والجاذبية المزدهرة التى لاتقاوم . . . قال :

[فى النهاية ، ينشىء الرمز الهائل ، ووعاء الذهن المتحرر تماماً ، المدينة العالمية ، وهى بمثابة المركز الذى ينتهى فيه تاريخ العـــالم وتطوى صفحته . . إن حفنة من الأماكن الهائلة فى كل حضارة تحرم الأرض الأم من ثقافتها ولا تقيم لها وزناً ، تحت الاسم المثير للغضب « الأقاليم » ؛ فالأقاليم الآن هى كل شىء — الأرض والمدينة ، الصغـيرة منها والكبيرة — فيما عدا منطقتين أو ثلاث . ولم تعد هناك طبقات نبلاء ، وبورجوازية ؛ وأحرار، وأرقاء ، وهيلنيين وبرابرة، ومؤمنين وغير مؤمنين ، وإنما أصبح هناك مدنيون وريفيون] — (المجلد ٢ ، الفصل الرابع) .

وهكذا أوجدت المدينة العالمية طرازاً بشرياً يعتبر خاصية أخرى للفترة الأخيرة من كل ثقافة .

(د) عدم الاستقرار الذهنى :

يقول شبنجلر :

« طالما ظل البيت متمتعاً بتلك القدسية التى اكتسبها باعتباره المركز الفعلى الأصيل للأسرة ، فإن علاقته القديمة بالأرض لا تنقطع تماماً ، إلا أنه حينما تنقطع هذه العلاقة أيضاً ، وتزاول جماهير المستأجرين وشاغلى

المنازل حياة متعطلة ، وينتقلون من مأوى إلى آخر كالصيادين ورعاة الزمن الغابر ، فهنا يستكمل التحول الذهنى نموه » .

وثمة ملاحظة أخرى يضيفها شبنجلر ، وهى ملاحظة هامة فى عصرنا الحاضر . إنه يروى كيف أن ديودرس Diodorus يخبرنا عن ملك مصرى مخلوع تدهور إلى درجة أنه أقام فى أحد الطوابق العليا بمنزل حقير فى روما.

يقول شبنجلر :

[منذ زمن بعيد جداً ، ولد الريف المدينة وغذاها بأحسن دمائه ، أما الآن فإن المدينة الضخمة تمتص الريف الهزيل وتبتلع جموع الناس بشراهة وبلا توقف حتى تنهك وتموت فى خضم الريف المهجور . وكلما اصطاد ذلك الجمال الآثم لهذه الأعجوبة الأخيرة للتاريخ ، ضحيةً فإنه لايدعها تفلت من يده . إن القوم البدائيين يستطيعون الإفلات من الأرض والترحال ، غير أن الرجل المولود فى المدينة لايستطيع ذلك أبداً ، لأن الحنين إلى المدينة الكبيرة أقوى من أى حزن يكابده الإنسان بالنسبة للقرية. وإن الإنسان ليعتبر المنزل إحدى تلك المدن الهائلة، ولكن أقرب القرى إليه تعتبر غريبة عنه ، ومن ثم فإنه يفضل أن يموت على الإفريز، على أن يعود إلى الريف] ـ (نفس المجلد)

(د) إنخفاض نسبة المواليد :

وهناك ظاهرة أخرى تصاحب عصر المدن العالمية ، وتلك هى تدهور نسبة تزايد عدد السكان ، وفى النهاية تبدأ عملية تناقص عدد السكان التى قد تمتد قروناً ، ويضع عقم الإنسان المتحضر نهايةً لمسرحية الحضارة .

ويرى شبنجلر أن هذه الظاهرة «تحوّلٌ ميتافيزيقى نحو الموت » . وذلك لأن الإنسان ، كجنس ، لم يعد يرغب فى الحياة ، وهكذا أصبحت الحياة نفسها أمراً مشكوكاً فيه ...

[وعندما يبدأ التفكير العادى لأناس ذوى ثقافة عالية فى اعتبار موضوع « إنجاب الأطفال » موضوعاً قابلا للتأييد أو الاستنكار ، تحدث أكبر نقطة تحول .

«وعندما يستدعى الأمر تقديم التعلات كلها فيما يتعلق بموضوع الحياة ، تصبح الحياة كلها موضع بحث . وعند هذه النقطة يبدأ تحديد النسل بحرص ، ففى العصر الكلاسيكى أبدى الكاتب بوليبوس Polybius أسفه على هذه التجربة مثلما أسف لدمار اليونان ؛ وحتى فى عصره ، كان هذا الأمر قد توطد منذ أمد طويل فى المدن الكبرى ، وأصبح شائعاً بشكل رهيب فى العصر الرومانى الذى

جاء بعد ذلك . وفى بادىء الأمر ، كان البؤس
الاقتصادى الذى ساد تلك الأزمنة هو
التفسير لهذه الظاهرة ، ولكنه سرعان
ما اختفى تماماً] — المرجع ذاته .

ونتيجة لهذا التطور ، نجد أن المدن العالمية تصبح ، عند نهاية كل
حضارة ، كالمدن الريفية فى مرحلة مبكرة ، قليلة السكان ، ولا تسكنها فى
آخر الأمر غير جماعات صغيرة تستخدم كتل الصخر كمأوى مثلما فعل
الإنسان البدائى فى العصر الحجرى .

[كانت « باتا ليبوترا — Pataliputra
عاصمة أزوكا Asoka — مجموعة كبيرة من المنازل
الخربة غير المأهولة عندما زارها الرحالة الصينى
« هوين — تشانج » ، « Hiouentsang »
حوالى عام ٦٣٥ م .

« ونقرأ لرعيل كبير من الكتّاب
الكلاسيكيين ، إبتداء من بوليبوس فصاعداً
عن مدن قديمة مشهورة تحولت شوارعها
إلى صفوف من خرائب شاغرة متداعية ،
تختال فيها قطعان الماشية ؛ وتتحول
المدرجات والملاعب إلى حقول ، تتناثر فيها
الأعشاب والتماثيل هنا وهناك . . . لقد
كانت روما فى القرن الخامس من عصرنا

أشبه بقرية ولكن قصورها الملكية كانت
لا تزال قابلة للسكنى] — المرجع ذاته

(هـ) التفوق الذى أعقبة اضمحلال المال :

وبظهور المدن ، مصحوبةً بتفوق المدينة العالمية ، واختفاء كل الروابط بالأرض ، وسيادة الاتجاهات الذهنيه ، بلغت النقود — المال — ذروة سلطانها ... لقد وجدت النقود أصلا لتقدير القيمة ، وذلك بالنسبة للأشياء ذات القيمة الحقيقية فى ذلك الوقت ، كالأرض والماشية والمنازل والرقيق ، ولكن الرابطة بين هذه القيم الأصلية بدأت تضعف بنمو المدن وتعقد النظام الاقتصادى حتى أصبحت النقود فى آخر الأمر تعتبر قيمةً فى حد ذاتها ، مرغوباً فيها أكثر من تلك الأشياء التى وجدت النقود أصلا لتقدير قيمتها .

[لم يعد الذهب يقدر بالبقرة ، وإنما
أصبحت البقرة تقـــدر بالذهب] —
(المرجع ذاته) .

غير أن قوة النقود لم تلبث أن اندحرت — فى عصر الملكية والأباطرة — أمام قوى الدم والسيف .

[لقـــد قضى مجىء القيصرية على
ديكتاتورية النقود وسلاحها السياسى —
الديمقراطية . . . وبعد الانتصار الطويل
الذى أحرزه اقتصاد المدينة العالمية ومصالحها

على القوة السياسية الخلاقة ، ظهر الجانب السياسى للحياة بعد هـــذا كله كأقوى الجانبين ، وهكذا انتصر السيف على النقود ، وأخضعت إرادة السيد إرادة المغتصب مرة أخرى] — المجلد ٢ ، الفصل ١٤ .

(و) إختفاء الابتكار :

إختفت الروح الخلاقة فى طور الحضارة الأخيرة ، فقد بلغت الحضارة شكلها النهائى ، ولم يظهر إبتكار جديد كبير ، لا فى الفن ولا فى الدين ولا فى السياسة ، وسادت الحياةَ النزعةُ الذهنية والتجارية . وعلى الرغم من أن العلم قد يزدهر ، وقد يكثر الحديث وإنفاق الوقت والنقود على الفن أو الدين أو السياسة ، إلا أنها سرعان ما تفقد دافعها الإبتكارى ، بعد أن تتخذ الأشياء شكلها النهائى . ومع أن تغيرات واختلافات كثيرة كانت لا تزال تظهر بينها ، إلا أن الأشكال الجديدة تماماً لم تعد تظهر ، فقد حُلّت جميع المشكلات الكبرى ، ولم يعد الصراع يدور حول الأفكار كما حدث فى طور « الثقافة » ، وإنما تحول تماماً ليدور حول السلطة .

[فى التاريخ ، ونقصد التاريخ الأصيل: تاريخ طبقات الرجال الممتازين ، كان الصراع الذى يدور القتال من أجله ، وأساس النضال الحيوانى من أجل السيادة ، هو تحقيق شىء روحى ، وترجمة فكرة ما إلى شكل تاريخى

حى . وينطبق هذا بالمثل على اصطراع الأساليب الكبرى فى الفن (القوطى وعصر النهضة) وفى الفلسفة (الرواقيون والأبيقوريون) ، وفى المثل العليا السياسية (حكم الأقلية والطغيان) ، وفى الأشكال الاقتصادية (الرأسمالية والاشتراكية) ، بيد أن التاريخ اللاحق جاء خلواً من هذا كله. وكل ما تبقّى هو الصراع الخالص من أجل السلطة ، ومن أجل نفع حيوانى . . وبينما كانت السلطة من قبل تخدم دائماً الفكرة بطريقة أو أخرى ، ففيما يتعلق بالحضارة المتأخرة ، كان أكثر أوهام الفكرة إقناعاً مجرد قناع يخفى وراءه كفاحاً حيوانياً خالصاً] (المجلد الثانى ، الفصل ٢) .

[وعندما جاء عصر الملكيات ، لم تعد هناك مشكلات سياسية. فقد قبل الناس الموقف على علاته وساسوا أمورهم حسب القوى الموجودة . وفى فترة الدول المتنازعة ، خضبت أنهار الدماء طرقات جميع المدن العالمية لكى تتحول حقائق الديمقراطية الكبرى إلى وقائع ، كذا لكسب الحقوق

التى تبدو الحياة بدونها غير جديرة بالاستمساك بها، وما كادت هذه الحقوق تُكتسب ، حتى أصبح من العسير دفع الأحفاد ، حتى باستخدام العقاب ، إلى الانتفاع بهذه الحقوق . وبعد مائة سنة أخرى ، لن يستطيع حتى المؤرخون فهم المجادلات القديمة ، لأن أصحاب السمعة الطيبة فى عصر القياصرة كادوا يكفون عن الاشتراك فى الانتخابات] - (المجلد الثانى ، الفصل ١٢)

ويرى شبنجلر أن هذا النقص فى الابتكار والخلق قد أصبح خاصية من خصائص عصرنا الذى يشكل جزءاً ما يُعتبر - فى قاموسه اللغوى - فترة « الحضارة » ويمكن مقارنة عصرنا بعصر روما القيصرية لا بعصر أثينا فى عصر بركليس.

[إن ما يمارسه الناس اليوم على أنه فن ، ليس إلا عجزاً وزيفاً ، فأينما تلفّت ، فهل تستطيع أن تجد الشخصيات العظيمة التى تبرر الزعم بأنه ما زال هناك فن يُعتبر ضرورة محتومة ؟ وأينما تلفّت ، فهل تستطيع أن تجد المهمة الضرورية الواضحة فى حد ذاتها التى تنتظر مثل هذا الفنان ؟ ...

« إننا نجوس خلال المعارض والفرق الموسيقية والمسارح ، فلا نجد سوى إسكافيين

مجتهدين وأغبياء مزعجين يسرهم أن ينتجوا شيئاً ما للسوق ، شيئاً « يستهوى » الجمهور الذى لم تعد الموسيقى والمسرحية فى نظره ضرورات روحية] — (المجلد الأول ، الفصل ٨)

وينطبق هذا القول على الإسكندرية وروما أيضاً .

[كان لدى الإسكندرية أيضا ممثلون يعبرون عن المشاكل ؛ وفنانون تفضلهم البلاد على « سوفوكليس » ؛ ورسامون خلقوا اتجاهات جديدة واستطاعوا أن يبهروا جمهورهم بنجاح .

« إن جميع تماثيل روما ، سواء أكانت للذكور أو للإناث ، استمدت من نماذج هيلينية قليلة ، واستُخدمت هذه التماثيل التى نُسخَت فى كثير أو قليل طبقاً للسلوك الأصلى ، فى نحت تماثيل بلا رأس أو أطراف ، وصُنِعَت الرؤوس بلا شكل محدد بواسطة صنّاع بسطاء تتوافر فيهم المهارة . . . ولمدة ١٥٠٠ عام (من عهد أمازيس الأول إلى عهد كليوباترا) تكاثرت النماذج المصرية على النمط ذاته . . ولهـــذا انطوت تحت الفصل

الأخير من جميع الثقافات] — (المرجع ذاته) .

(ز) حالة التدين الثانية :

من الظواهر النهائية لكل حضارة ما أطلق شبنجلر عليه « حالة التدين الثانية » ، وهى العودة إلى أشكال متغيرة إلى حد ما من الإحساسات الدينية التى كانت سائدةً فى الأيام المزدهرة . ولكى نفهم هذه الحركة ، من الضرورى أن نذكر التطور الذى تقدمت خلاله الحياة الروحية فى ذلك الوقت :

يزدهر الشعور الدينى ، فى الأيام المزدهرة ، بكل ما كان عليه من قوة وبساطة أولية ، وعندما تنحو الكنيسة إلى الجمود ، وتضل عن معنى الإيمان الأصلى ، يحاول الإصلاح أن يعيدها إلى سيرتها الأولى ، وتعقب هذه الفترة فترة أخرى من التزمت والتعصب الأعمى للتقوى ، تحاول فى الغالب فرض دينها على الآخرين عن طريق السياسة .

وتوجد بين ثنايا التزمت بذور التعقل التى تظهر فى كل فترة متأخرة : أمثال عصور كونفشيوس وبوذا وسقراط وروسو ؛ وفى أعقاب هذه الفترة تأتى النزعة المادية .

ويلخص شبنجلر هذا التطور فى العبارات التالية :

[ترادف الثقافة دائماً الإبداعية الدينية ، فكل ثقافة عظيمة تبدأ بنزعة قوية تنشأ من ريف ما قبل التحضر ، وتُنْقَل إلى مدن الفن والثقافة ، وتنتهى بالاتجاه المادى فى المدن العالمية] .

وكرد فعل لهذا التعقل المتطرف ، وهذه الحالة الذهنية ، بدأت تظهر أشكال من الأساطير ، وحالات من حالات الاستمتاع بسحر المسائل غير المعقولة ، وغير الطبيعية ، والمنفرة ؛ بل إذا استدعى الأمر ، المسائل التى تدل على السخف ، مثل عبادة سيرابيس Serapis فى الإسكندرية ، وعبادة إيزيس Isis فى جمهورية روما ، والتنجيم الكلدانى ، وكلها طُرز وأشكال من الاسترخاء ، و «الإدعاء» ، وهى بمثابة «النظريات والمبادىء» فى عصرنا . وهى تبين لنا الحاجة إلى « حالة التدين الثانية » التى تظهر فى كل الحضارات ذات الشكل المكتمل ، باعتبارها « الدور الضرورى المقابل للقيصرية التى تُعتبر التشكيل السياسى للحضارة الأخيرة » :

[ينشأ كل « عصر إستنارة » من تفاؤل لا حد له بالعقل — ذلك التفاؤل الذى يقترن دائماً بنوع من المدن الكبرى — ثم يتحول إلى تشاؤم لا صفة له أيضاً .. وبذلك تُستنزف إمكانيات الفيزياء كوسيلة نافعة لفهم العالم ، ويلوح الجزع للميتافيزيقا فى الأفق من جديد] — (المجلد الثانى ، الفصل التاسع)

إن حالة التدين الثانية لا تولد فى الطبقات العليا ، بل تولد فى الجماهير ، والأمثلة على ذلك : — أسطورة بان — كو Pan-ku فى الصين بعد عام ٢٠٠ ق.م ، ومذهبا فيشنو Vishnu وشيوا Shiwa فى الهند حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وعلاوةً على ذلك فإن القيصرية ذاتها أوجدت فى الإمبراطورية الصينية — مثلما فعلت فى الإمبراطورية الرومانية — نوعاً من عبادة الإمبراطور ...

وأخيراً ، فإن حالة التدين الثانية تنتهي بنشوء عقائد الفلاحين ، وتبدو مرة أخرى بلا تاريخ ، ويختفي التناقض بين التقوى الوطنية والتدين العالمي . وتمر القرون بلا أهمية . . . ثم تظهر أشكال جديدة من التدين القديم ، ثم تتغير ، وتزداد نمواً مثلما حدث عند نشوء البوذية ، والكونفوشيوسية والطاوية التي تشكل دين الصين .

وفي رأى شبنجلر أن الحضارة الغربية ما زالت متأخرةً عدة أجيال عن فترة « حالة التدين الثانية » التي سوف تأخذ — طبقاً لنظريته — شكل العودة إلى المسيحية القوطية .

نهاية الحضارة — العودة إلى المجتمع الذي لا تاريخ له

وباختفاء القدرة على الابتكار ، تتحلل الحضارة الفيزيائية والروحية وتنهار في النهاية . وفي إحدى فقراته المثيرة ، يصف شبنجلر المجتمع الذي يسود بعد ذلك ، فيقول :

[وبقيام الدولة المنظمة ، يستلقي التاريخي على ظهره بعد أن ينهكه الأعياء ويستسلم للنوم . ويعود الإنسان فيصبح نباتاً مرة أخرى ، ويلتصق بالتربة ، ويصيبه العقم ، ولكنه يكون قادراً على الاحتمال . وتعود القرية التي لا تحسب حساباً للزمن ، والفلاح « الخالد » للظهور . فينجب الفلاح أطفالا ،

ويبذر البذور فى الأرض — الأم ؛ ويصبح الناس أشبه بحشدٍ كافٍ منهمكٍ فى العمل، تهبّ عليه عاصفة الأباطرة العسكريين. وفى منتصف الأرض توجد المدن العالمية القديمة، كالأوعية الخالية من الروح، التى انطفأت، حيث يقبع بداخلها، ببطء، الجنس البشرى الذى لا تاريخ له، ويعيش الناس لمجرد الحصول على قوت يومهم، لا يصيبون من النجاح والثروة إلا قدراً تافهاً، ولكنهم صابرون .. وتداس الجماهير تحت الأقدام فى منازعات الغزاة الذين يتقاتلون من أجل السلطة وغنائم هذا العالم. ولكن الباقين على قيد الحياة يملأون الفجوات بخصوبة بدائية (هى التناسل) وهم صابرون على العناء. وبينما يوجد، فى الطبقات العليا، تعاقب أبدى من النصر إلى الهزيمة، فإن الموجودين فى القاع لا يكفون عن الصلاة بكل ما فى حالة التدين الثانية من تقوى، تلك الصلاة التى تتغلب على جميع الشكوك فى كل عصر. فهناك، فى الأرواح، يصبح السلام العالمى، والسلام الإلهى، ونعمة الرهبان وذوى الشعر الأشيب والناسكين، حقيقةً واحدةً — هناك فقط.. لقد

أيقظ هذا كله العمق فى إحتمال العذاب الذى لم يعرفه مطلقاً الإنسان التاريخى فى الألف عام من تطوره.ويعود الكائن، الذى لا يزال مقدساً، إلى الظهور فى نهاية التاريخ العظيم فقط . إنها مسرحية نبيلة من حيث انعدام هدفها، إنها نبيلة ومعدومة الهدف كتحركات النجوم، ودوران الأرض، وتعاقب اليابسة والبحر،والجليد والغابة البكر على سطحها .. إننا قد ندهش لها وقد نرثى لحالها أيضاً .. ولكنها موجوده على كل حال] — (المجلد الثانى ، الفصل الحادى عشر) .

الحالة الراهنة للحضارة الغربية

يرى شبنجلر أن الحضارة الغربية تجاوزت « الفترة الأخيرة للثقافة » ، وعصر سيادة المدينة البورجوازية . ويرى أيضاً أن البورجوازية ـ وهى الدورة الثالثة ـ كسبت نصرها النهائى بمجىء الثورة الفرنسية ، وهكذا شهد القرن التاسع عشر أوج الديمقراطية والبرلمانية ، والنزعة العقلية ، والمال ، والنقد الذى أخذ يتضاءل منذ ذلك الحين سواء عن وعى أو بلا وعى ، وسواء وبإدراك أو بلا إدراك .

[إن البرلمانية تعانى انهياراً تاماً فى الفترة الحالية . . . فمع بداية القرن العشرين تتجه البرلمانية (حتى الإنجليزية) بسرعة نحو الدور الذى كان مخصصاً للملكية فى أحد الأوقات : إنها بسبيل أن تصبح متفرجاً مشدوهاً يتفرج على جمهرة المؤمنين بها ، فى الوقت الذى ينتقل فيه مركز جاذبية السياسة الكبرى ، من الناحية القانونية ، من التاج إلى ممثلى الشعب ، فإنه من الناحية الفعلية ينتقل من ممثلى الشعب إلى جماعات غير رسمية وإلى إرادة شخصيات غير رسمية » — (المجلد الثانى ، الفصل ١١) .

« ويدخل فى ذلك عصر الصدام الهائل الذى نجد أنفسنا فيه اليوم . إنه عصر الانتقال من النابوليونية إلى القيصرية ، وهو طور عام من أطوار التطور ، يمثل على الأقل قرنين من الزمان ، ويمكن أن يوجد فى كل حضارة » — (المرجع ذاته) .

« وأما بالنسبة لنا ، فإن عصر الدول المتنازعة ، بدأ مع نابليون وحكومته الاستبدادية المتعسفة . وكان رأس نابليون أول من أنتج — فى عالمنا هذا — فكرة السيطرة على العالم

عسكرياً، وهى فكرة تلقى رواجاً . . . ولئن كان القرن التاسع عشر فقيراً نسبياً فى الحروب الكبرى — والثورات — واستطاع أن يتغلب على أسوأ أزمانه بالطرق الدبلوماسية والمؤتمرات ، فإن ذلك يرجع ، على وجه التحديد ، إلى الاستعداد المستمر المفزع للحرب، مما جعل المتنازعين يخشون النتائج فى اللحظة الأخيرة، ويرجئون إتخاذ القرار النهائى المرة تلو المرة ، فعمدوا إلى استبدال الحرب بتحركات شبيهة بتحركات قطع الشطرنج ... غير أن القرن التالى (أى القرن العشرين) سيكون فعلا قرن الدول المتنازعة ، فهذه الجيوش ليست بديلا عن الحرب بل هى وسائل الحروب ذاتها لأنها تريد الحرب . وفى مدى جيلين ، سيكون هؤلاء الجنود هم المستحوذون على جميع وسائل الحياة مجتمعة" . ففى الحروب التى سيشنونها لوراثة العالم كله سوف تكون القارات كلها مشتبكة فى الحروب... ستدخلها الهند والصين وجنوب إفريقيا وروسيا والبلاد الإسلامية، وجميع الشعوب . وسوف تمارس فنون جديده ويطبق تكتيك مضاد أيضاً .

ولسوف تتصرف مراكز القوة العالمية فى الدول الأصغر حسبما يحلو لها — فى أراضيها، واقتصادها، ورجالها — وكل هذا الذى يبدو الآن مجرد أقاليم، وغايات سلبية، ووسيلة إلى غاية ... كلها مصائرها معدومة الأهمية بالنسبة لهذا الزحف الكبير . وبين هذه الكوارث الدامية، والفزع، ترتفع الصيحة تلو الأخرى مطالبة بالعودة إلى الصلح بين الشعوب وإقرار السلام على الأرض ،]
(المجلد الثانى — الفصل ١١) .

إن بعض هذه النبوءات ليبدو دقيقاً — بشكل غير مستحب — وبالأخص حين يرد فى كتاب سبق التفكير فيه من قبل ، وكتب إبان الحرب العالمية الأولى ، وينطبق هذا القول على الوصف الذى قدمه شبنجلر لخصائص الحروب فى فترة الدول المتنازعة:

[فى كل ثقافة، سار فن الحرب — فى تردد — وراء تقدم الصناعة ، فما أن تأتى بداية الحضارة حتى تتولى الحرب القيادة ، وتسخر جميع الإمكانيات الميكانيكية لخدمة أغراضها ، وتحت ضغط الحاجة العسكرية تفتح مجالات جديده لم تكن قد استغلت بعد] — (المجلد الثانى ، الفصل ١١) .

ويقول شبنجلر إن حروب هذه الفترة لم تعد حروباً قاصرة على الجيوش الصغيرة نسبياً ، وإلى أن يعلن أحد الأطراف المشتبكة فيها أن قواه قد استنزفت ، فإنها تظل حروب جيوش كبرى ، وبالمعنى العصرى ، حروباً شاملة .

ومن وجهة نظر شبنجلر ، فإن مكاننا والدور الذى يجب أن نلعبه فى الحضارة الغربية رهن تماماً بمشيئة القدر ، وفيما يلى الرسالة الكئيبة التى أوردها فى ختام كتابه :

[أما بالنسبة لنا ، نحن الذين وَضَعَنَا القدر فى هذه الثقافة ، وفى هذه اللحظة من تطورها — اللحظة التى يحتفل المال فيها بانتصاراته الأخيرة ، وحيث تزحف (القيصرية) المقدر لها النجاح بهدوء وبخطى ثابته ، فإن إتجاهنا — الإرادى وغير الإرادى فى وقت واحد — محدد لنا فى حدود ضيقه ، وبعبارة أخرى إن الحياة لا تستحق البقاء فيها ، فنحن لا نتمتع بحرية الوصول إلى هذا الغرض أو ذاك ، وكل حرية نتمتع بها مقصورة على آداء ما هو ضرورى ، أو عدم الإقدام على أى شىء مطلقاً ، ولسوف تتم المهمة التى حددتها الضرورة التاريخية لصالح الفرد أو ضده] ـ (المجلد الثانى ـ الفصل الرابع عشر) .

— ٤ —

شبنجلر العسكرى ـ والمفكر

حاولنا أن نقدم فى الفصل السابق الخطوط العريضة ، لفلسفة شبنجلر فيما يتعلق بحياة الحضارات وموتها . ومن سوء الحظ أن الخطوط العامة لهذا البناء العظيم فى كتاب شبنجلر ، غالباً ما تحجبها عن أنظار القارىء مجموعة من التحيزات الصارخة التى تغلف واجهة آرائه ، تماماً كما يحجب ستار لافتات النيون التصميم الهندسى لبناء فاخر فى قلب المدينة العصرية .

ومن المهم أن نسلط الضوء على هذه التحيزات الصارخة وأن نكشف عن حقيقتها لأنها لاتهدد بإخفاء رأى شبنجلر فى الحضارات فحسب، بل لأنها تؤثر أيضاً ، وبقوة ، على تقديره لعصرنا الراهن وعلى نتائجه فيما يتصل بمصير حضارتنا . ومن ثم فإن علينا أن نتعقب هنا القسمات الرئيسية لتقدير شبنجلر للقيم معبرين عن ذلك ، بقدر الإمكان ، بكلمات شبنجلر نفسه .

تحيزات شبنجلر

فكرة غير ديمقراطية عن المجتمع :

إن فكرة شبنجلر عن المجتمع ـ أقصد: المجتمع فى أية مرحلة من مراحل الحضارة ـ فكرة بعيدة تماماً عن الديمقراطية ، ذلك لأن المبدأ الأساسى

للديمقراطية ، وهو أن الناس جميعاً ولدوا متساوين ولهم حقوق متساوية ، هذا المبدأ غريب على شبنجلر ، فني رأيه أن كل دولة ، وكل أمة — سواء أكان يحكمها رسمياً ملك أو دكتاتور أو طاغية أو برلمان — تحكمها فى واقع الأمر أقلية صغيرة تدفعها رغبة قوية فى السلطة : « أرستقراطية » بالمعنى الأصيل لهذه الكلمة ، أى الحكم بواسطة الطبقة الأفضل، ومن ثم ، فني رأيه أن المواطنين ينقسمون بالضرورة ، دائماً ،وفى كل مجتمع إلى جماعتين مميزتين هما : الأقلية الحاكمة ، والأغلبية المحكومة :

« إن وحدة الحياة ـ هى حتى فى حالة الحيوانات — تنقسم إلى آمرين ومأمورين »
(المجلد ٢ الفصل ١٢) .

إن شبنجلر لا يجهل تماماً قيمة النظام الديمقراطى ، والعصر الديمقراطى . ولكنه عاجز عن أن يعتبرهما أكثر من مجرد طور عابر فى كل ثقافة . وهو غير مقتنع — على أى وجه من الوجوه — بالقيمة الأساسية للديمقراطية أو بحقيقتها . ومما يتفق مع مايدعيه بالنسبة للحقائق التاريخية ، عدم إبدائه أى رأى حول « عدالة » أو « سلامة » أى شكل معين من أشكال الحكومات ، بيد أن القارىء لا يستطيع أن يتغافل عن أن شبنجلر شخصياً يفضل النظام الطائفى وينبذ الديمقراطية ، ولهذا فإنه غير قادر على أن يرى فى الديمقراطية أكثر من مجرد نظام تتخذ منه طبقة جديدة — هى طبقة البورجوزاية وما تتمتع به من قوى موروثه هى المال والتعليم — رداءً تلبسه

لتخفى وراءه رغبتها فى الاستئثار بالسلطة وحكمها للأغلبية المسلوبة الإرادة التى تملك الحرية إسماً فقط فى ظل النظام الانتخابى .

وهكذا يرتكب شبنجلر الخطأ الذى أودى بجميع الحكام المستبدين فى التاريخ. فمع أنه صحيح أن كل أمة فى العالم تحكمها فعلا أقلية صغيرة ، فإن شبنجلر يتغاضى عن حقيقة واضحة هى أن هذه الأقلية سواء أكانت من البلاط أو الكهنة أو من نبلاء الإقطاع أو رؤساء مدنيين أو قادة برلمانيين أو زعماء عمال ، فإنها لا يمكن أن تسمح لنفسها بالوقوع فى خطأ جسيم هو تجاوز حدود معينة لما تشعر الجماهير بأنه حق وعدل . فى جميع الأزمنة ، وفى جميع الأمم ، ثارت الجماهير فى نهاية الأمر ضد ما اعتبرته ظلماً أو قسوةً أو خطيئةً ورجساً أو سوء إدارة ، ويدل ذلك على أنه يجب على الأقلية الحاكمة لا أن تستمد سلطتها ـ طبقا للمثل العليا الديمقراطية ، وبالمعنى الدستورى والأخلاقى ـ من جمهرة المواطنين فحسب بل يجب عليها أن تفعل ذلك حتماً . . . إنها لا تستطيع أن تهمل — على طول المدى — الحاجة الفطرية للعدالة والمصلحة الذاتية التى تتحكم فى مشاعر الجماهير ، والتى تؤدى أحياناً إلى حدوث تغييرات غير متوقعة أو حتى مناقضة لإرادة الطبقة الحاكمة .

عدم الإيمان بحرية الصحافة :

وتمشياً مع هذا الإتجاه الفكرى ذاته ، يعتنق المؤلف الرأى القائل بأن حرية الصحافة المزعومة فى الديمقراطية ليست سوى طريقة عصرية للتأثير على الجماهير وقيادتها ، وأن الأحزاب السياسية خليقة بأن تتحلل إلى مجرد أدوات للسلطة فقط لمصلحة السياسيين :

[إستطاعت السياسة الأنجلو ـ أمريكية
المعاصرة أن تخلق ، عن طريق الصحافة ،
مجالا واسعاً من التوتر الذهنى والمالى ، يحتل
فيه كل شخص المكان المخصص له بدون
وعى . ويجب على كل فرد أن يفكر ، ويرغب
ويعمل مثلما يفكر الحاكم ويرغب ويعمل ،
طبقاً لما يراه مناسباً] ـ (المجلد الثانى ـ الفصل ١٢)

وفيما يتعلق بمالك إحدى الصحف البريطانية الكبرى ، يقول شبنجلر :

[. . . . يحتفظ ديكتاتور الصحافة
بعبودية قرائه وخضوعهم لمقالاته الرئيسية ،
وبرقياته ، وصوره . فما تريده الصحافه هو
الصحيح ! . . إن قادة الصحافة هم الذين
يضخمون ، ويغيرون الحقائق ، ويبدلونها ،
وإن ثلاثة أسابيع من العمل الصحفى
لتكفى لحمل الجميع على الأخـــذ بالحقيقة
المحرفة] — (نفس المجلد) .

ومع أن هناك قسطاً من الحق فى قول شبنجلر من حيث تأثير بعض الصحف الكبرى الذى يتجاوز الحدود أحياناً ، فإن هذا القول خاطىء قطعاً من حيث تعميمه إطلاقاً ، كما ثبت فى عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٨ حينما جاءت نتائج انتخابات رئاسة الولايات المتحدة مغايرة تماماً لجميع تقديرات الأغلبية الساحقة من رجال الصحافة الأمريكية .

تفوق الشخص العامل على الشخص المفكر :

يرسم شبنجلر خط تفرقة قوياً بين الشخص القدرى أو « إنسان الواقع — وهو عنده الرجل السياسى — من ناحية ، والشخص العقائدى أو المفكر من ناحية أخرى . وهو لا يخفى — عندما يناقش هذا الموضوع — احترامه العميق للأول ، واحتقاره للأخير (المجلد الثانى — الفصل الأول ، القسم الخامس) .

[ثم رجال يولدون قدريون سببيون . .
وهناك عالم بأسر يفصل بين الإنسان الحى ـ الفلاح والمحارب والسياسى والقائد ، والرجل الدنيوى ورجل الأعمال وكل شخص يرغب فى الرخاء ، وفى أن يحكم ، ويقاتل ، ويغامر ، والمنظم ، والمقاول ، والمغامر أو المقامر أو المستخف — وبين الرجل الذى شاءت له قوة عقلية عظيمة ، أو شاء له ما فى دمه من نقص أن يكون « مثقفا » — القديس ، والكاهن ، والعالم ، والمثالى ، والمفكر — ومن النادر أن يوجد إنسان ذو أهمية لم يغلب عليه هذا الجانب أو ذاك .

« وأخيراً فإن الرجل الإيجابى فقط هو الرجل القدرى الذى يعيش فى عالم

الواقع: عالم السياسة ، عالم القرارات العسكرية والاقتصادية حيث لا قيمة للأفكار والنظم، فهنا يكون للضربة الذكية تأثير أقوى من تأثير النظريات والاستنتاجات الذكية ، وهنا يكمن معنى الازدراء الذى يبديه الساسة والجنود فى جميع الأزمنه نحو « مسطرى الحبر » و « المغرمين بالمطالعة » الذين يتوهمون أن تاريخ العالم وجد من أجل الفكر والعلم أو حتى من أجل الفن] — (المجلد الثانى ، الفصل ١ ، والفصل ٤) .

وفى رأى شبنجلر أنه ليس لأفلاطون أو روسو أى تأثير على مجرى التاريخ ، وإنما الذين كان لهم هذا التأثير هم الرجال العاملون أمثال الإسكندر وقيصر ونابليون .

ويمكننا أن نقصر حديثنا فى هذا المقام على ملاحظتين هما أولا : هل كان فى استطاعة نابليون أن ينجح لو أنه لم يعتمد على القوى التى أطلقها فولتير وروسو من عقالها ؟ وهل كان فى استطاعة لينين وستالين أن يصلا إلى النتائج التى بلغاها لو أنهما لم ينجحا فى جنى ثمار الزرع الذى وضع كارل ماركس بذوره ؟

وفى المقام الثانى ، يغفل شبنجلر احتمال أن العنصرين قد يمتزجان أحياناً فى أحد الرجال . والواقع أنه إذا كانت عظمة السياسى لا تقاس بعدد المعارك التى يخوضها ، وإنما تقاس بالحكمة التى يبديها والنتائج المباركة التى تتولد عنها ، فسيبدو عندئذ أن الشخص الأعظم هو ذلك الذى يجمع بين العمل والفكر مثل

«بركليس»و«وليم الصامت»و«بنيامين فرانكلين»و«ابراهام لنكولن»و«دزرائيلى» و«توماس مازاريك»و«ودرو ويلسون»و«ونستون تشرشل»و«سان يات سن» و«غاندى»..وحتى أصنام البروسية أمثال فردريك الأكبر، وبسمارك، وهتلر؛ فقد لعبوا دورهم بإتقان على المسرح العالمى لأنهم جمعوا بين العمل والفكر.

ولقد دفع إصرار شبنجلر على التمسك باتجاه تفكيره إلى تجاهل تأثير القوى الروحية، وخاصةً قوى الدين، على مجرى التاريخ :

[إن الدين لم يغير أسلوب الوجود يوماً ما] .

وبذلك لا يكون هناك أى اعتبار — فى نظره — للأخلاق والعدالة، وإنما يكون الاعتبار كله للقوة والسطوة فى السياسة .

ويزعم شبنجلر أن هناك مناعة للسلوك السياسى إزاء الأخلاق ، وهى نغمة محبوبة لدى المفكرين والساسة الألمان إبتداءً من لوثر حتى هتلر :

[إن السياسى الموهوب يكون فوق الحق والباطل . . إنه لا يخلط منطق الحوادث بمنطق النظم . . ومن المحقق أن له معتقداته التى يعتز بها ، ولكنه يحتفظ بها لشخصه ، ذلك لأن السياسى الحقيق لا يتقيد بمعتقداته الخاصة فى عمله] — (المجلد الثانى ، الفصل ١٢) .

وليس من شك فى أن جنكيزخان ، وهتلر ، كانا يعتبران نفسيهما فوق الحق والباطل ، إلا أنه من المحقق أن وليم الصامت وجورج وشنجتون لم يعتقدا ذلك فى نفسيهما . . ويذهب شبنجلر خطوةً أبعد من إدعائه بعدم

ضرورة تمسك السياسة بالأخلاق . . . إنه يزعم أيضاً أن هؤلاء الذين يدافعون عن العدل والحق معرضون دائماً للهزيمة من جانب الذين يؤمنون بالقوة . إن شبنجلر، حين يحاول — بصعوبة — أن يخفي احتقاره لقوى العدل والحق ، يجعل نموذج تقديره للقيم يتعارض مع إيمانه بـ «العنصر» و«القوة الكونية» باعتبارهما القوتين الخلاقتين الحقيقيتين ، في نظرة :

[إن تاريخ العالم هو ما قررته محكمة العالم، فقد وقفت هذه المحكمة ، دائماً . في جانب الأقوى الأكثر ثقة بنفسه . ولقد ضحى التاريخ ، دائماً ، بالحق والعدل في سبيل القوة والعنصر . وأعد نعش الموت الكئيب لبعض الشعوب والرجال الذين آمنوا بالحق أكثر من إيمانهم بالأفعال، وآمنوا بالعدل أكثر من إيمانهم بالقوة] — (المجلد الثاني ، الفصل ١٤) .

وبرغم أنه ليس من المستطاع إنكار أن القوة تلعب دوراً هائلا في التاريخ والسياسة ، فإن شبنجلر يرتكب الخطأ الذي طالما ارتكبه هتلر ، وهو التقليل من شأن تأثير القوى الروحية على طول المدى ، الأمر الذي أدى إلى تحطيم هتلر نفسه في آخر الأمر .

تلك هي بعض التحيزات التي يتصف بها تقدير شبنجلر للقيم .

إن لكل شخص الحق في أن تكون له نظرته الخاصة إلى الحياة ، ومجموعة قيم خاصة أيضاً . إلا أنه عندما يسمح أحد الكتّاب لهذه النظرة

وتلك القيم بالتأثير على إنتاجه العلمى إلى درجة تجعله يحاول فرضها كمقياس عام لجميع الأزمان ، وجميع الشعوب ، فإن الضرورة تقتضى كل فرد يقبل قيم الأخلاق الفاضلة والشكل الديمقراطى للمجتمع وأن يرفض هـــذا المقياس بنفس العنف الذى فُرِض به ، بل إن المرء يكون حينذاك مضطراً أن يفعل ذلك حينما تكون للنتائج التى يقدمها المؤلف مثل هذا التأثير البغيض على الثقة بحضارةٍ بأسرها ، مثلما فعل شبنجلر .

نقاط النقد الرئيسية

خرافة النمط فى التاريخ :

إن الإدعاء بأنه من المستحيل ، ومن ثم من غير المفيد ، للعقل البشرى أن يحاول تعقب نمط أو طابع ذى غرض فى التاريخ ، كان دائماً أكثر الحجج تأثيراً ، وأكثرها صعوبة من ناحية النقض حيال أية محاولة لتنظيم الحقائق التاريخية فى طابع محدد . وكان لا بد من إثارة الاعتراض نفسه مرة أخرى ضد محاولة أخرى كبيرة لاحقة ، بذلها هذه المرة مؤرخ محترف أفرد مناقشةً خاصةً للرد على تلك الحجة . ولهذا سنرجىء مناقشة هذا الاعتراض إلى الفصلين السادس والسابع .

المبالغة فى استخدام «التماثل» بين الحضارات :

تعرّض الرأى القائل بأن التاريخ عبارة عن حضارات تولد وتنمو وتضمحل وتنهار طبقاً لنمط دائرى دائم ؛ تعرض هذا الرأى لهجوم أساسى ... وهنا ، كما هى

الحال فى نواح كثيرة ، خذل شبنجلر هدفه الرئيسى حين رفع فكرة التماثل بين الحضارات المختلفة إلى مثل هذا التطرف ، وحين طبقها على مثل هذه التفصيلات بطريقة لاتبعث على الإقناع وإنما تبعث على السخرية . . .
إن المقارنات مفيدة مادامت تطبق على المسائل الأساسية فقط ، إذ لا يمكن لتفصيلات حدثين تاريخيين أن تتشابه مائة فى المائة . وهذا هو ماغاب عن شبنجلر . . فحينما حاول أن يدفع بفكرة التماثل إلى إثبات ترادف وقائع وشخصيات معينة فى حضارات مختلفة ، ساعد على طمس معالم القضية الحقيقية ، أى وجود تشابه فى الاتجاهات العامة ومراحل التطور ، وبمعنى آخر وجود تشابه فى « الجوهر الأساسى » بين مختلف الحضارات . وسنتعرض لهذا الموضوع مرةً أخرى بشكل أقل خلطاً عند التحدث عن نظريات «توينبى» نظراً لأن الأخير قصر التشابه على هذه الأمور الجوهرية . ومن ثم يبدو أنه من الأفضل إرجاء الرد على هذه النقاط إلى أن نتولى بحث آراء «توينبى» فى الموضوع .

رأى شبنجلر الأسطورى فى التاريخ :

من بديهيات شبنجلر أن عالم التاريخ ، بعكس عالم الطبيعة ، مساق بقوى تفوق كل قواعد السببية ، بل وفوق أبحاث التعليل العلمى أيضاً . فالتاريخ — فى نظره — تحدده قوة قــدرية غامضة . . . إنها قوة القدر بالينط العريض . ويجب أن يوضع هذا العنصر فى الاعتبار عند تقدير قيمة ما وصل إليه شبنجلر من نتائج ما دامت هذه النتائج مسترلة إلى حد

كبير عن تنبؤاته بنهاية كئيبة محتومة لحضارتنا .

إن الرأى القائل بأن القدر يحدد كل تاريخ ، ينطوى على موقف حتمى تعسفى . ومعنى ذلك أن لكل حضارة مصيراً محتوماً ، حتى قبل أن توجد ، وعليها أن تتبع ، بصرامة ، طريقاً حدده القدر من قبل ؛ وكل محاولة للتملص من هذا الطريق ليست غير مجدية فحسب بل وسخيفة أيضا ، كما تتصف بالجبن حسب تعبير شبنجلر . أما الرجل القوى فهو الذى يتقبل مصيره ويتحمله .

والمشكلة ، هى أن البيان الوحيد الذى لدينا إزاء هـــذا المصير هو مؤلفات شبنجلر الذى لا يعترف بأى تفسير آخر . وعلينا أن نأخذ ما يقوله على أنه إرادة القدر ، ما دام التاريخ — فى رأيه — لا يخضع لقوانين علمية دقيقة ولا يخضع للسببية ، فلا طائل من وراء محاولة استنباط المستقبل من الماضى ، غير أن شبنجلر يحاول دائما ، وبلا أى أساس ، أن يفعل ذلك على وجه الدقة ، برغم أنه لا يستخلص نتائجه من سببية حوادث يمكن إدراكها ، بل يستخلصها من نمط معين يكشف عنه التاريخ ، ومن ثم يفترض أن القدر هو الذى أراد هذا النمط . ثم إن هذا الاعتقاد فى الطور الميتافيزيقى إنما هو نظرة ذاتية إلى درجة كبيرة ، ومسألة اعتقاد شخصى أكثر منها نظرة علمية . ومهما يكن من أمر ، فإن إنكار كل إمكانية للإدراك المعقول ، ومطالبة الجنس البشرى بالخضوع للقدر خضوعاً أعمى — كما يفسره شبنجلر من ناحية أخرى — إنما هو تصرف لا يرضى به غير القليلين جداً .

وسواء أقبل المرء خطة بشرية سامية فى قصة الجنس البشرى أم لم يتقبلها

فالمهم أنها زاخرة بجهود محددة للأفراد والجماعات والأمم . وبقدر مانستطيع الحكم فإننا نقول إنها غيرت مجرى الأحداث .

المبالغة فى استخدام اصطلاح «الحياة العضوية» :

إن الصفة الحتمية لرأى شبنجلر عن التاريخ ، القوية فعلا بسبب إيمانه بقوة القدر ، تزداد قوةً بسبب فكرته العضوية الصارمة عن الحضارات : فهو لا يقارن الحضارات بكائنات عضوية فحسب ، بل ينسب إليها صفات من المفروض أن تكون للنبات أو الكائن البشرى ، لأن إستعاراته عن المولد والشباب والنضوج والموت ، والربيع والصيف والخريف والشتاء وإطلاقها على الحضارات تتخذ معنى أبعد كثيراً من مجرد المقارنة .. إنها تتخذ صفة الخاصية الملزمة ، فبدلا من أن يستخدمها كشىء ملائم يجعل أفكاره أكثر وضوحاً ، فإنه يلتزم باستعاراته هذه ، ويصبح عبداً لها بدلا من أن يكون سيدها ، فإن لحضاراته حياتها الخاصة ، وهى تتخذ لنفسها مواقف خاصة تجاه الثقافات الأخرى ، وتستخدم الساسة والأمم للوفاء بما هو مقدور عليها .

وإذ يعتبر شبنجلر الحضارات كائنات حية ، فإنه يختزل الإنسان إلى أداة معدومة الإرادة فى أيدى الحضارات ، أى فى يدى القدر ، ومن الجهالة حقاً — حسب هذه الفكرة — أن يرفض الإنسان الامتثال لقرار الموت الذى أصدره القاضى شبنجلر على الحضارة الغربية باسم عدالة القدر الخالدة !!

* * *

وبعد هذا كله تبقى حقيقة لا تدحض ، وهى أن مؤلفات شبنجلر جذابه ، لا تقتصر أهميتها على روعتها ، بل تشمل أهميتها الخطوط العريضة التى وضعها للحضارة ، إذ ندر أن تتجمع العبقرية والبدع الرومانتيكية وتمتزج ببعضها فى مؤلف واحد مثلما تجمعت فى مؤلفات شبنجلر . . ويقول « هويزنجا Huizinga إن القارئ الناقد يشعر دواما كما لو كان يؤخذ إلى قمة جبل عظيم ويتولى إرشاده شخص تومض عيناه ببريق الجنون .

فلو أن شبنجلر استخدم نظاما أكثر صله بالعلم فى مؤلفه الخاص ، لبدا موضوعه العام عن النمط الموحد لجميع الحضارات أكثر وضوحا وإقناعا . لقد أجهد نفسه فى محاولة إبراز متناقضات سوداء وبيضاء ، حيث توجد فقط ظلال لضوء وظلام ، وأجهد نفسه فى التفرقة الشديدة ، بين المسائل المتباينة ، والإستمرار فى الموازنة بين التفاصيل الصغيرة ؛ وقدم آراءه على أنها وحى من القدر ، وشخّص الحضارات ككائنات عضوية ، غير أن هذا كله لا يفسد القيمة المقنعة لقضاياه إذا ماجردت من هذا الوهن ، وتحولت إلى قضاياه معقولة : فالواقع أن هناك تشابها عاما فى تطور الحضارات ، كما سنرى فى الفصول التالية ، وتلقى هذه القضايا تأييداً قويا من الحقائق ومن أعمال الآخرين .

وعلاوةً على ذلك ، فإن تفنيد آراء شبنجلر التى أوردناها فى هذا الفصل لا يفسر الحقيقة المهمة ، وهى أن هذا الرجل بدأ تسجيل أفكاره قبل أن تندلع نار الحرب العالمية الأولى ، ورأى مقدما بثاقب نظره مجىء الحروب العالمية القادمة ، وديمقراطية الجماهير والديكتاتوريين العظام ، ونمو المدن العالمية ، وموجة الجدب والعقم ، ونهوض روسيا وآسيا . . . .

وقد أيدت جميع هذه التطورات ، التى لم تكن دلائلها الأولية ملحوظة تماماً قبل الحرب العالمية الأولى ، نبوءات شبنجلر أثناء الحقب التالية . وفيما يتعلق بهذه التطورات ، فإنها أدلة لا تُدحَض على سداد التخطيط العريض الذى رسمه شبنجلر لتطور الحضارات .

أما ما لم تثبته هذه التطورات ، فهو صحة القيم التى لم يربطها شبنجلر بأزمنة وظواهر معينة ، وذلك على أساس نظرته الخاصة المعادية للديمقراطية ؛ وهى لا تثبت أيضاً أن الطور الأخير من الحضارة هو أكثر أطوارها فقراً ، وفوق هذا فإنها لا تثبت أيضاً أن قيمة ذلك الطور واستمراره محدودان من قبل ، وليس فى مقدور الإنسان أن يضيف إليهما ولا أن يحذف منهما .

— ٥ —

رأى « أرنولد توينبى » فى الحضارات

وبعد قرابة عشرين عاماً ، على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى ، أخذ مؤرخ آخر مساوٍ لشبنجلر، إن لم يفقه عظمة وإتساع أفق ... نقول أخذ على عاتقه أن يسبر غور القوانين التى تتحكم فى نشوء الحضارات وانهيارها .

وإذا كان شبنجلر لم يتخل عن نزعته الألمانية عندما تناول المشكلة ، فإن «توينبى» لم يتخل بدوره عن نزعته البريطانية .. وقد حاول شبنجلر، سواء عن وعى أو بلا وعى ، أن يصوغ طابعاً صارماً يجب على جميع الحضارات أن تتواءم معه، فتتطور — كما يزعم أنه حدث فعلا — فى رأيه ، طبقا القوانين لا مفر منها كالكائن العضوى . أما «توينبى» فقد إتبع ،على العكس من ذلك ، منوال الطريق البريطانى المجرب ، وذلك بدون ، أو على الأقل بغير ، أن تكون لديه أية أفكار سابقة .

وبالإضافة إلى ذلك الاختلاف الذى ينبع من الشخصية القومية ، يوجد إختلاف آخر شديد الصلة به ، هو اختلاف وجهتى النظر — ذلك لأن شبنجلر رجل عسكرى قبل كل شىء أما توينبى فرجل مدنى قبل كل اعتبار . وسوف نعود إلى هذا الاختلاف فى الفصل السابع .

غير أنه برغم هذه الاختلافات متأصلة الجذور ، فإن توينبى يدرك أيضا وجود تشابه معين فى تطور مختلف الحضارات ، مما يدفعه إلى أن يرسم فى خطوط عريضة نموذجا عاما — يجب أن يكون قابلا للتغيير — لهذا التطور

مغايراً لذلك الذى وضعه شبنجلر ، فدعنا نحاول ، من تتبع الخطوط الرئيسية لأفكاره — على أساس معلوماتنا ، وعلى أساس الوقائع المتجمعة لدينا فى مجلداته الضخمة (دراسة التاريخ) — أن نتتبع الخطوط الرئيسية لأفكاره .

يُدخل توينبى جميع الحضارات المعروفة ، فى مجال دراسته ، وقد ميز منها ثلاثين حضارة . ومن هذه الحضارات الثلاثين ، إحدى وعشرون حضارة أتمت نموها ، وخمس حضارات يطلق عليها اسم « حضارات موقوفة » وصل نموها إلى نقطة ما وتوقف قبل أن تبلغ مرحلة النضوج ، أما الأربع حضارات الباقية فولدت ميتة ، ويسميها (حضارات مجهضة) .

وتوجد بين الإحدى والعشرين حضارة المكتملة النمو ، سبع حضارات ما زالت قائمة كمجتمعات حية ، وتلك هى : الهندية ، والإسلامية ، والشرق الأقصى ، والبيزنطية أو المسيحية الأرثوذكسية فى جنوب شرق أوربا ، والفرع الروسى من هذه الحضارة ، والحضارة الغربية . أما الحضارات التى قضت نحبها بعد أن سبقت الحضارات سالفة الذكر فمن بينها : الفرعونية والسومرية ، والمكسيكية ، والبابلية ، والإيرانية ، والهيلينية ....

الحركة الإيقاعية فى الحضارات

وبينما يقيم توينبى حجته المكتملة فى بطء وعظمة ، تتكرر نغمة أساسية فى أشكال مختلفة كثيرة ، ولهذا فإنها تستحق الذكر قبل أن نتعرض لأفكاره الخاصة بحياة الحضارات .. إنها نغمة الحركة الإيقاعية المستمرة :

حركة الارتفاع والانخفاض ، وأرجحة البندول التي تتبدى طوال مراحل تطور الحضارة ، كما هي الحال في الأمة أو الفرد ، وهي الحركة التي يُشعَر بتأثيرها في المراحل الحرجة على وجه الخصوص . وتظهر هذه الحركة الإيقاعية بأشكال مختلفة في نظريات توينبي .

إن الشكل الرئيسي هو « التحدي والرد عليه » ، ففي مجرى تطور المجتمع نراه يواجه ، باستمرار ، صعاباً تهدد كيانه ووجوده ، ويحدد رده عليها مستقبل المجتمع . وإذا كان الرد مناسباً لمواجهة التحدي ، فإن حياة ذلك المجتمع سوف تستمر مزدهرة بفضل القوة الداخلية والخارجية المستمدة من نجاحه . أما إذا لم يستطع المجتمع مواجهة التحدي بنجاح ، فإنه يفقد قيمته الأصلية ، أو هيبته الخارجية ، أو رفاهيته المادية ؛ وربما بلغت خسارته حداً يشكل النهاية الفعلية لذلك المجتمع .

إن هذه العقبات والردود المتكررة عليها تشكل ارتفاعات وانخفاضات —أو ، بدقة أكثر— إنخفاضات وإرتفاعات في حياة المجتمع ، لاتحدث فقط خلال طور النمو ، وإنما تتعداه إلى طور التحلل ... ويميزها توينبي ، في الطور الأخير ، على أساس أنها عملية « التحفز » ، و« ضم الصفوف » . وليس ثم اختلاف جوهري كبير بينها وبين التحدي والرد . أما الاختلاف الرئيسي فيوجد خلال مراحل المولد والنمو ، حيث يكون الرد أعظم من التحدي ، مما يدفع بالحضارة إلى مستوى أعلى في كل مرة ، بينما لا تستطيع مرحلة «ضم الصفوف» تعويض الانتكاس خلال «أطوار الاضمحلال» ، وبعبارة أخرى : إن توينبي يرى أنه لا النمو ولا التحلل يمثلان عملية إرتفاع أو تدهور

غير متقطعة ، وإنما الأرجح أن كلا منهما يتشكل بموجب تعاقب الحركات « الثانوية » الصاعدة والهابطة ، وهى التى تبين ، فى تكاملها ، حركة « بدائية » للصعود أو الهبوط خلال فترات النمو أو الانحلال على التعاقب .

ويميز المؤلف أحياناً حركة إيقاعية ثالثة فى حياة المجتمع ، وتلك هى حركة « الانسحاب والعودة » وهى حركة إيقاع عام فى الطبيعة ، وتعتبر خاصية من خصائص الابتكار . فقد تنسحب (تختفى) البذرة فى التربة ولكنها سرعان ما تعود إلى الظهور فى شكل النبات المتطور ، وبالمثل فإن الفرد أو المجتمع ، أو الأمة ، أو الحضارة قد تختفى فى بعض الأوقات ، وتمر بعملية تنقية داخلية أو تطور ، ثم لا تلبث أن تعود أكثر غناء وقوة فى رفقة مثيلاتها ، ويقدم توينبى أمثلة كثيرة على هذه الظاهرة ؛ وسنشير إلى بعضها فيما بعد . . .

هذا فيما يتعلق بالحركة الإيقاعية التى يشير توينبى إلى تتابعها بداخل حياة كل حضارة على النحو الذى توجد عليه فى جميع أشكال الحياة على الأرض . غير أنها حركة إيقاعية ثانوية على كل حال تتخذ مكانها داخل إيقاع أكبر ، هو حركة دائرية للحضارات من ظهور وتطور ، واختفاء . وتشكل هذه الحركة النغمة الأساسية لدراسة توينبى الرائعة . فقد قسم هذا الموضوع إلى أربعة أجزاء تعالج ، على التعاقب ، مولد الحضارات ، ونموها ، وانهيارها ، ثم تحللها .

مولد الحضارات

يرى توينبي — على النقض من كثير من المؤرخين السابقين له — أن مولد الحضارة لا يعزى إلى تفوق جنس بشرى معين ، أو إلى ظروف ملائمة بشكل غير عادى ، بل يعزى إلى ظروف قاسية بشكل غير عادى . وتشكل هذه الظروف تحدياً لمجتمع ما ، فيحاول هذا المجتمع أن يواجه هذا التحدى ويرد عليه من أجل البقاء أو المحافظة على مستوى وجوده ، فإذا ما واجه التحدى بنجاح ، وتغلب عليه ، فقد يؤدى هذا المنشط أو الحافز إلى زيادة تحسين قوته الداخلية وقدرته الخلاقة إلى درجة كبيرة بحيث يؤدى ذلك إلى مولد ما نطلق عليه — عادةً — إسم « الحضارة » .

إلا أنه ينبغى أن نؤكد أنه برغم ضرورة وجود نوع من الموهبة والقدرة على الأبتكار بالنسبة للدور الذى يلعبه المجتمع الذى يواجه تحدياً ما حتى يستطيع أن يواجهه بنجاح ، فإن توينبي لا يقبل ، بأى وجه من الوجوه : التفسير العنصرى الذى ينسب مولد إحدى الحضارات إلى التفوق الفطرى أو عبقرية جنس أو شعب معين ، وإنما ينسبه ، إلى حد ما ، إلى مجموعة من الظروف التى تعتبر بمثابة التحدى . . . هذا من ناحية ، كما ينسبه ، من الناحية الأخرى ، إلى صفات مجتمع ما وتأثيرها على مجتمع آخر مما يحدث مايشبه المعجزة فى التاريخ كمولد الحياة الفيزيقية فى عالم الطبيعة . . .

وكأمثلة على عملية الولادة تلك ، يشير توينبي ، بصفة خاصة ، إلى الحضارتين المصرية والسومرية ، إذ يعزو نشأة كل منهما إلى تغير المناخ الذى حوّل الأراضى العشبية وسهول إفريقيا وآسيا الخصبة الندية إلى صحراء

جافة مجدبة يتعذر فيها على سكانها الاستمرار فى حياة الصيد . . . ولم يكن وادى النيل ولا الفرات ولا دجلة مكانا يؤدى إلى الرخاء ، والدليل على ذلك موجود فى الحالة البدائية الفقيرة التى ظل عليها سكان أعالى وادى النيل والفرات حتى يومنا هذا ، فهم يعيشون فى ظروف تشبه تلك التى عاش فيها مؤسسو الحضارات المصرية والسومرية الأولين .

وثم مثال آخر على بحث توينبى ، موجود فى الحضارة الصينية التى لم تنشأ أصلا فى وادى اليانجتسى الخصيب ، بل نشأت فى وادى النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته .

ويمكن تفسير أصل الحضارات التى نتحدث عنها بأن قبيلة ما أو أمة ما أجبرتها الظروف — حين جعلت مواطن إقامتها التقليدية غير ملائمة للحياة — على بذل جهد صادق لتحويل وديان المستنقعات المشار إليها إلى أراض خصبة ، وعند ما تبين نجاح جهودها أصبحت الظروف المواتية التى خلقتها بمثابة الرحم الذى ولدّت فيه القوى المنتجة الطليقة لهذه الأمم ، ما نسميه « الحضارة » . . .

نمو الحضارات

يرى توينبى أن نمو الحضارة ليس مجرد عملية بيولوجية أوتوماتيكية بسيطة تجيء فى أعقاب مولد الحضارة . ويثبت ذلك أن عدة حضارات توقفت عند حد معين فى مجرى حياتها ، وقد يحدث ذلك مثلا ، عندما يكون

التحدى المواجه شديداً إلى درجة تجعل المجتمع يستنزف طاقته كلها فى محاولة الرد عليه ، ومن ثم فحتى إذا نجح الرد ، فإن القوى المنتجة المتخلفة بعد ذلك قد لا تكون كافية للمضى فى النمو . . .

فإذا كان نمـــو الحضارة لا يتبع بالضرورة مولد هذه الحضارة أوتوماتيكياً ، فما هى إذن الخصائص التى يمكن أن تميز بها مثل هذا النمو ؟

حينما يتصدى توينبى للإجابة على هذا السؤال ، فإنه يستبعد أولا بعض الاحتمالات الظاهرة . فهو مثلا لا يرى فى التوسع فى السيطرة على الأراضى أو الشعوب — سواء أكان توسعاً سياسياً أو عسكرياً — ولا فى السيطرة على البيئة المادية (التحسن الفنى) ظاهرة أو دليلا على النمو وإنما الأرجح لديه الحالة العكسية : إن التاريخ يبين لنا أن أعظم توسع إقليمى لحضارة ما ، يحدث ،عادة ،فى المرحلة المبكرة من مراحل التحلل ، حيث يكون من المحتمل أن يؤدى التحسن الفنى إلى وأد الحضارة ، كما يحدث فى حالة الحضارات « المتوقفة » ،و ذلك لأن التحسن الفنى يمتص جميع طاقات النشاط ، وبذلك يصبح المجتمع عبداً لهذا التحسن بدلا من أن يكون سيده .

وتعتبر الخاصية الإيجابيه للحضارة النامية ، فى رأى توينبى بمثابة عملية «أثيرية روحية» Etherialization ، فى كل مجال من مجالات التطور : فى اللغة والملابس والفنون العملية والعلوم ، يرى توينبى ميلا مستمراً إلى التبسيط ، ولذلك فإن أقل طائفة تكفى لحل مشكلات الحياة المادية الخالصة ، ويصبح فى متناول اليد تدبير مزيد من النشاط للأعمال « الروحية » ، وطبقا لذلك ، يطرأ تغيير على المجال الذى يجرى فيه التحدى والرد عليه . وفى هذه الحالة يستمد

التحدى من الظروف المادية قدراً أقل من النشاط ، بينما يستمد قدراً أكبر، من المنازعات الإجتماعية والروحية التي تجرى بداخل المجتمع ، ومن ثم تصبح عملية النمو إحدى عمليات « التشكيل الذاتي » أو « تقرير المصير » .

وتلعب حركة الإنسحاب (الإختفاء) والعودة ، دوراً هاماً فى هذه العملية ، وقد ذكر توينبي أمثلة كثيرة لما اعتبره اختفاءات مؤقتة سواء من جانب المجتمعات أو « أقلياتها الخلاقه » . فأثينا مثلا ، لم تلعب دوراً فى الإستعمار اليونانى العام الذى استمر فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، غير أنها عادت بعد ذلك فقامت بدور الزعامة فى مجموعة الدول اليونانية ، وبرزت إيطاليا من المجتمع الإقطاعى فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، حيث أتمت الإنتقال من المجتمع الزراعى إلى المجتمع المدنى التجارى والصناعى ، وكانت إنجلترا إبان فترة عزلتها النسبية عن أوربا ، أى فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ،قد أرست قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعى الحديث . ويرى توينبي أنه يجب علينا ألا نغفل عن احتمال أن تكون عزلة روسيا الحالية عن العالم عملية مماثلة للاختفاء المؤقت .

عند هذا الحد من رواية توينبي ، يظهر مفهوم لا يتعدى خطاً جانبياً فى اتجاه تفكيره العام ، إلا أنه يعتبر رأياً من تلك الآراء المتبلورة الخلابة التى يزخر بها بحثه ، ونعنى بذلك دراسته عن العلاقة بين المجتمعات وقادتها ، سواء أكان القادة أفرادا أم جماعات ، وبرغم أن توينبي يرفض وجهة النظر القائلة بأن المجتمع كائن حى ، والفرد عضو فيه ، ويرفض أيضا الفكرة القائلة بأن المجتمع ليس أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد ؛ برغم هذا فإنه

يشير إلى أنه لا يمكن لأحد أن ينكر أن مصدر كل عمل فى كل مجتمع هو الأفراد ، أو أقليات صغيرة تشكل « أقلية خلاقة » . وأن المشكلة التى تواجهها هذه الأقلية إزاء الأكثرية السلبية غير الخلاقة هى كيفية نشر آرائها ووضعها موضع التنفيذ ، ولما كان الجمهور عاجزاً عن المضى فى نفس التجربة من الناحيتين الذهنية والروحية على النحو الذى تفعله الأقلية الخلاقة ، فإن أحسن ما يمكن عمله هو أن يقبل الجمهور موقف القادة ونظرتهم وأن يعمل على تقليدها . ويطلق توينبى على هذه العملية « المحاكاة Minesis» .

وهنا يوجد تفسير أكثر دهاءً وإقناعاً ، وأكثر واقعيةً فى نهاية الأمر للعلاقة بين القادة والجمهور ، من تقسيم شبنجلر العسكرى الفج لجميع المجتمعات إلى حاكمين ومحكومين ، سيد ورقيق ، متبوع وتابع بالنسبة للسلطة . وقد يميل المرء لأول وهلة إلى اعتبار الخلاف خلافا فى الدرجة والتفسير لا فى الجوهر الرئيسى ، لأن الحقيقة التى يقبلها كلٌ من شبنجلر وتوينبى هى أنه توجد فى كل مجتمع أقلية تحكم فعلا ، وأغلبية تذعن وتطيع .. ومهما يكن من أمر ، فإن أمانة الأغلبية تقوم على قواعد مختلفة اختلافا أساسيا فى الرأيين . وتظهر نتائج هذه الاختلافات بوضوح فيما يختص بتدهور الحضارات وتحللها ، فهى — عند توينبى — ظاهرة أساسية للتحلل لأنه حينما تصبح الأغلبية القيادية غير جديرة بتولى القيادة الخلاقة فإنها تفقد تأثيرها على الرعية ، ومن ثم تحاول الاستمرار فى قيادتها بإجبار الرعية على طاعتها طاعةً عمياء .. أما شبنجلر فيرى عكس ذلك تماماً ، إنه يرى أن الطاعة للقادة طاعةً عمياء ، ضرورية للمجتمع الصحيح ، وأن فقدان هذه الطاعة العمياء مسألة خطيرة ، وهكذا فإن الطاعة العمياء القائمة على القوة فى الوقت

الذى تعتبر فيه ضرورية لحضارة ما ، تعتبر سببا للاضمحلال بالنسبة لحضارة أخرى .

ويقودنا هذا القول إلى المرحلة التالية فى حياة الحضارة : وهى التدهور الذى يسبب التحلل .

تدهور الحضارات

ومرة أخرى يبدأ توينبي برفض تفسيرات عديدة قدمها مؤرخون أوائل عن هذه الظواهر .

ومن ثم فليست أية قوة خارجية هى التى تسبب تدهور المجتمع . وعلى ذلك فإن حقيقة أن قوات عسكرية أو سياسية خارجية هى التى تهزم المجتمع أحياناً ، ليست سوى دليل على فساد هذا المجتمع من الداخل : فإذا ما ظهرت أخطار مماثلة خلال تطور النمو فإنها لا تدرأ بانتصار فحسب ، بل إنها غالباً ما تشكل منها يثبت أنه سلم للصعود إلى مستوى أعلى .

كذلك لا يقبل توينبي التفسيرات الحتمية للتاريخ ، ولا النظرية القائلة بأن الحضارة تتدهور بالضرورة ، بعد فترة معينة من الاضمحلال العنصرى أو الروحى .

وفضلا عن ذلك ، فإن ما يستمد من آرائه سالفة الذكر هو أنه مثلما لا يدل تحسن الفن أو اتساع نطاق السيطرة على البيئة ، على نمـــو إحدى الحضارات ، فإن اضمحلال الفن أو تركيز السيطرة الجغرافية على البيئة البشرية لا تشكل فى حد ذاتها — أو تثبت — تدهوراً .

إن ما يشكل التدهور هو : الفشل المطرّد فى الرد على التحدى الخارجى ، وقد تكون الأسباب التى ينشأ منها هذا الفشل كثيرة : كأن يتحول التقليد الذى تقوم به الجماهير إلى تقليد أوتوماتيكى أو إلى آداء إجبارى ، وقد تفشل الأشكال القديمة فى صلاحيتها لأغراض جديدة . وقد يسبب الرضى الذاتى أو عبادة الأشخاص أو النظم أو الفنون العملية ، فقدان القدرة على الابتكار .

وفى جميع هذه الحالات المختلفة يكون لب التدهور شيئاً واحداً : لم تعد الأقلية الخلاقة قادرةً على إيجاد قوة خلاقة كافية لمواجهة التحدى فى ذلك الوقت المعين . ونتيجةً لذلك فإنها تفقد جاذبيتها وسحرها على الجماهير ، ومن ثم فإنها تضطر إما إلى الاستمرار فى ممارسة قيادتها بالقوة أو بالاستمرار فى التقليد الذاتى الأوتوماتيكى وهو تقليد أجوف . وهكذا تصبح الأقلية الخلاقة أو القيادية ، أقليةً مسيطرةً أو قاهرةً ، لأن الجماهير ، أو على الأقل جزءاً منها ، تكف عن الخضوع لها ، وكما تكف عن تقليدها للأقلية ، فتشعر بأنها باتت خارج محيط المجتمع وحضارته ، فتأخذ موقفاً معادياً له ، وتصبح — كما يطلق عليها توينبى — بمثابة « بروليتاريا داخلية » . وهكذا تحدث ثغرة فى الوضع السياسى ، وتصدع فى الوحدة الاجتماعية ، وهذا هو بدء التحلل .

وبهذا تدخل الحضارة فى مرحلتها الأخيرة : مرحلة التحلل .

انحلال الحضارات

هل يؤدى تدهور الحضارة بالضرورة إلى تفككها ؟ . إن الإجابة على ذلك هى كلا . . وهناك بديل لذلك : وهو أنه إذا سُدّت الثغرة والتأم

الشمل بدرجة كافية فإن عملية الاضمحلال قد تتوقف ، وتدخل الحضارة فى مرحلة الجمود التى قد تستمر قروناً ، وهذا هو ما حدث بالنسبة لحضارتى مصر القديمة والشرق الأقصى . وعلى كل حال ، إذا لم يكن التحلل قد تغلغل فى برعم الحضارة ، فإنه يمضى فى طريقه الذى يتميز بعدة ظواهر عامة بالنسبة للطور الأخير لسائر الحضارات .

خصائص الطور الأخير للحضارة فى رأى « توينبى »

إنشقاق الوضع الاجتماعى . . البروليتاريا الداخلية والخارجية

يظهر الانقسام المشـــار إليه قبل كل شىء فى الوضع الاجتماعى بين « الأقلية المسيطرة » و« البروليتاريا الداخلية » . ويكمل هذا التحدى النابع من الداخل لزعامة المجتمع المتحلل ، تحدٍ من الخارج يأتى من جانب «البروليتاريا الخارجية » ، وتواجه كل حضارة تحدياً وخطراً خارجياً دائماً من جانب حضارات وجماعات أخرى... وكلما استمر نمو الحضارة واستمرت قوتها ، فإنها لن تستطيع أن تواجه التحدى وتتغلب عليه فحسب، بل إنها تزاول أيضاً تأثيراً على الجماعات المحيطة بها ، بواسطة « إشعاعاتها » ، ونتيجةً لذلك ، تتبع تلك الجماعات قيادة هذه الحضارة سواء بوعى أو بغير وعى ، إلا أنه حالما يحدث التدهور ، ينتهى تأثير ظاهرة « الإشعاع والانجذاب » على الجماهير الخارجية بدرجة أكبر مما يحدث للجماهير الداخلية ، وتتاح الفرصة أمام عملية « التحدى والرد عليه » فتواجه الجماعات الخارجية المجتمع بعقبات جديدة ، وعندما تفشل الأقلية المسيطرة فى مواجهتها ، فإنها تفقد تأثيرها على الجماهير

الخارجية ، ومن ثم تتحول تلك الجماهير إلى « بروليتاريا خارجية » حسب تعبير توينبي ، أى أنها تصبح مجموعةً واسعة النطاق تشعر بأنها « خارج » المجتمع وذلك لكونها أقل امتيازاً من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، ومن ثم تصبح خصماً للمجتمع .

ويتميز بنيان الحضارة الإجتماعى والسياسى فى فترة التحلل بانقسام الوضع السياسى إلى ثلاث فئات : أقلية مسيطرة ، تعارضها بروليتاريا داخلية ، وبروليتاريا خارجية . . وقد يكون الانقسام أفقياً فقط ، وعندئذ يشكل إنقساماً إجتماعياً ومذهبياً عبر الحدود ، وقد يكون عمودياً ، أى يتخذ شكل نضال بين المناطق المقسمة جغرافياً أو حسب المعاهدات . وقد يختلط الشكلان معاً كما هى الحال فى عصرنا هذا .

الانشقاق فى الحياة الروحية :

ويقترن الانشقاق فى الحياة الإجتماعية ، بانشقاق فى الحياة الروحية ، وهو أيضاً أحد خصائص تحلل المجتمع ، ويحس به الفرد كما يحس به المجتمع ككل ، وتستبدل القدرة على الإبتكار إمّا بالتخلى عنها أو بالتحكم فى النفس ؛ ويستبدل التقليد بالاستشهاد ، ويحل الإحساس بالانقياد والإثم محل «الوثبة» الخلاقة السابقة ، ويأخذ الإحساس بالبلبلة والوحدة محل الإحساس السابق بالأسلوب ، ويخلى التغاير الذى كان علامة على النمو مكانه للنمط الواحد ، وهو علامة الاضمحلال .

وكعلاج لذلك ، فإن المجتمع الآخذ فى التحلل يبحث عن مفر فى أشكال هروبية مختلفة مثل « الهروب إلى القديم » كمحاولة للعودة إلى الماضى

و مثل « المستقبلية » كمحاولة للوثوب إلى مجتمع المستقبل الفاضل ، ومثل « الانفصال » كمحاولة للاختفاء من العالم على النمط الذى حددت فيه تعاليم بوذا ، ومثل « التجلى » كمحاولة للعثور على المجتمع الفاضل وراء هذا العالم ، كما هى مجسدة فى تعاليم المسيح .

وإزاء تفكك المجتمع ، قد تجد هذه المواقف الروحية كلها تجسيماً لها فى الأنبياء الذين يكونون بمثابة المنقذين ، ومن ثم فقد ميز « توينبى » النماذج التالية من المنقذين :

« العبقرى الخلاق » و « المنقذ بحد السيف » — وهما موجودان بين مؤسسى ومدعمى الدولة العالمية — و« المنقذ بالعلاج الزمنى» وهو الشخص الذى يعد بالتحسينات وذلك بالعودة إلى الماضى أو التطلع إلى المستقبل . . و « الفيلسوف المقنّع فى قناع الحاكم » وهو علاج أفلاطونى ، وأخيراً الإله المجسد فى الإنسان ، وهو المنقذ الوحيد الذى يهزم الموت .

عصر المتاعب :

يولّد التحلل والانشقاق الملازم له ، فترةً من المصادمات السياسية والاجتماعية ، تُعرف فى إصطلاحات توينبى بـ « عصر المتاعب » فتقع أعمال حربية واسعة النطاق بين الدول القوية ، والمجموعات المتحالفة ، والمذهبيات ؛ وهو ما نطلق عليه — فى اللغة العصرية — الحرب الشاملة ، أى التى تشمل حياة الأمة بأسرها ، وتؤثر عليها تأثيراً قوياً يستمر حتى النهاية المريرة ، ولا يكتفى بمجرد إلحاق الهزيمة بالخصم ، وإنما يهدف إلى إفنائه وإفناءً قادته فناء تاماً .

ويستنزف عصر المتاعب قوى الأمم والجماعات المحاربة ، ويولد بين الجماهير تطلعا متزايدا إلى السلام والاستقرار قبل كل شيء . وهكذا يمهد هذا العصر الطريق إلى الظاهرة التالية فى عملية التحلل ، وهى قيام الدولة العالمية بواسطة الدولة — أو القسم الأقوى — التى تتمكن فى نهاية الأمر من توطيد زعامتها على المنطقة بأسرها التى تسود فيها الحضارة بعد ذلك . .

الدولة العالمية والكنيسة الجامعة :

لما كانت الدولة العالمية تعنى فرض حكم الأقلية المسيطرة على البروليتاريا الداخلية المتذمرة ، فإنها تحمل فى ثناياها بذور تدميرها . . إن الدولة العالمية هى الرد الذى تقدمه الأقلية المسيطرة على التحدى الذى توجهه البروليتاريا الداخلية والخارجية لحكمها . . ومهما يكن من الأمر ، فإن البروليتاريا لا تشعر بأى ارتياح من ناحية الدولة العالمية ما دام لم يعد فى مقدور الأقلية المسيطرة أن تحقق حكماً مرضياً جذاباً بدرجة كافية ، ومن ثم تبحث البروليتاريا عن مذهبيات وعقائد خاصة بها وتسعى إلى تطويرها ، وتتطور إحدى هذه العقائد إلى « الكنيسة الجامعة » التى تعتبر رد البروليتاريا الإيجابى على التحدى الذى واجهتها به الأقلية المسيطرة فى الدولة العالمية .

وقد تظل الدولة العالمية قائمة زمناً طويلا ، وتحافظ — خلال هذه الفترة — على إبقاء الحضارة فى حالة جمود . . . أما الكنيسة الجامعة فتبقى مدة أطول ، وقد تُعمّر بعد الحضارة ذاتها ، بيد أنه لا الدولة العالمية ، ولا الكنيسة الجامعة بقادرة على تغيير عملية التحول هذه ، بل بالعكس ،

تكون الكنيسة الجامعة ـ بحكم معارضتها لعقائد وأسس الأقلية المسيطرة ـ ميالة إلى تقويض أسس الحضارة حتى لو تساهلت الأقلية المسيطرة مع الكنيسة ذاتها ، أو تمسكت بها كما حدث مع الدين المسيحى فى الطور الأخير من الامبراطورية الرومانية .

عصابات البرابرة الحربية :

تقوم البروليتاريا الخارجية ، بدورها ، بالرد على قيام الدولية العالمية ، وذلك بتشكيل عصابات محاربة من البربر تحت قيادة الأبطال الذين يؤمنون بأن أيديولوجيتهم متمثلة فى عبادة البطولة وشعر الملاحم ، فتداهم هذه العصابات حدود الدولة العالمية بلا انقطاع ، وهذا العمل ظاهرة أخرى للمرحلة الأخيرة من الحضارة .

وأخيراً ، تستسلم الدولة العالمية بما تجسّده من حضارة لمزيج من عوامل التعويض من جانب الكنيسة الجامعة وغزوات عصابات البربر ، ويكون ذلك نتيجة لضعفها . . . . وفى النهاية ، تخسر الأقلية المسيطرة معركتها ضد البروليتاريا الداخلية والخارجية إذا كان ردها على هذه العقبات غير مناسب ، وبذلك تنطوى صفحة الحضارة .

عصر البطولة :

بهذا الحدث ينتكس المجتمع ويعود إلى مرحلته البدائية حتى ينبثق فجر حضارة جديدة ، ومن ثم يعتبر توينبى هذه المرحلة مرحلة فراغ وانتقال ، بين حضارتين ، وتتميز بتحركات واسعة من جانب قبائل البربر وشعوب الامبراطورية العالمية السابقة التى انتزعت من أماكن إقامتها . .

إنها فترة تَحَوّل « العامة » وتمكن تسميتها أيضاً « عصر البطولة » لأن الغلبة فيها لأبطال الحرب الذين يوجدون فى المرحلة الأولى لكل مجتمع .

وفى هذه المرحلة يختفى جزء كبير من الحضارة السابقة ، وإن كانت لا تختفى كلها . . وهنا تبدأ الكنيسة الجامعة التى أوجدتها البروليتاريا الداخلية ، فى القيام بدور تاريخى لا يمكن تقديره لأن الكنيسة الجامعة لم تكن فى الواقع من الحضارات القديمة ، ولهذا فإنها لا تموت معها . . إنها تختفى فقط أثناء هذه الفترة ، ثم تعود للظهور كقوة مولّدة لحضارة جديدة . . . إنها بمثابة «الشرنقة» يُحفظ فيها جوهر الحضارة حتى تتولد منها حضارة جديدة ذات جمال أعظم وتطور أسمى ، وبهذا تتم الدورة الخالدة للحياة والموت ، فتموت الحضارة ، غير أنها — حين تموت — تولد جنيناً تنبثق منه حياة جديدة أكثر غناء ، وما أن تبسط هذه المعجزة نفسها أمام العين البشرية ، حتى تجعلنا نشعر بالعجز أمام لغز حاول الإنسان أن يجد له حلا منذ أن بدأت شعلة العقل تتوهج فى ذهنه : فلماذا ؟ وما معنى ذلك إذا كان هناك معنى أو غرض على الإطلاق ؟ وإذا كان هناك غرض ، فهل تستطيع العين البشرية أن تتبينه ؟ .

إن ذلك يقودنا رأساً إلى أعمق جذور النقد الذى يمكن أن يوجه إلى مؤلفات توينبى ، والذى يستحق اهتمامنا قبل أن تستخلص منه أية نتائج .

— ٦ —

مناقشة آراء توينبى

ينبغى ألا يدهشنا أنه ، فى الوقت الذى أصبحت الحضارة الغربية تتشكك فيه فى ذاتها وفى مستقبلها ، أثارت تعاليم توينبى احتمالا كبيراً واجتذبت أتباعاً ندر أن كان لها مثيل فى المجال التاريخى . .

كانت الهزة التى أحدثها كتاب شبنجلر « اضمحلال الغرب » فى السنوات العشرينية ظاهرةً نموذجيةً لما حدث بعد الحرب العالمية الأولى . وقد خلق التأثير الأكبر الذى أحدثته الحرب العالمية الثانية إحساساً أعظم بالأزمة فى العالم الغربى ، فقد استتبع التوسع الجغرافى وتغير مجال العمل العسكرى ، توسعٌ وتغيرٌ مماثلان فى مجال المصالح ، ووجد شبنجلر مجاله مبدئياً فى القارة الأوربية ، بينما وجده توينبى فى العالم الأنجلوسكسونى .

لقد كانت المناقشة التى أثارها توينبى دقيقة ، والنقد متعدداً ، ومع ذلك فإن معظم ناقديه أحنوا رءوسهم تقديراً لإلمامه الشامل فى مجال التاريخ ، وعمق نظرته ، ونبوغه فى التخطيط ، فإن أحداً لم يستطع — أو حتى يحاول — التغلب عليه أو منافسته فيما أنشأ على قدم المساواة .

ولكى نحكم على القوة الحقيقية لهذا البرج النظرى الشامخ ، يبدو أنه من الضرورى ، أن نتأمل مجال النقد الذى أحاط بنظريته .

نقاط النقد الأساسية

ليس فى التاريخ نمط ، وليس له غرض :

إن النقد الأساسى للنمط الذى رُسِمَ فى كتاب « دراسة فى التاريخ » هو أن مجرى التاريخ بثرائه الهائل ، وتنوعه الأبدى ، لا يمكن أن يُختزل إلى مجرد نمط قياسى لا أكثر ولا أقل ، وقد أثير هذا الاعتراض تقريباً من جانب جميع الذين نقدوا كتابات توينبى وإن اختلفت درجاته . والرأى الشائع بين معظم مؤرخى القرن الماضى ، وبين كثيرين من مؤرخى القرن الحالى ، أن التاريخ يتغير دواماً ، ومن ثم يستحيل التنبؤ به ، ولهذا يذهب الذين يقولون إنه ليس فى قدرة البشر أن يتبينوا أن للتاريخ معنى ، إلى أنه لا يمكن إذن إدراك هذا المعنى ، وبينما يوافق آخرون على أنه من الممكن ، بل من الواجب على المؤرخ ، أن يحاول تمييز معنى فى التاريخ ، فإنهم يزعمون أن ذلك المعنى يمكن أن يثبت نمطاً جامداً ، أو غير مرن يكرر نفسه بلا هوادة .

ويرد توينبى على ذلك بأنه ، هو أيضاً ، لا يؤمن بالنمط الجامد غير المرن ، وأنه لم يحاول إطلاقاً إيجاد مثل هذا الطابع ، وعلى العكس ، يصر توينبى على أن طريقة تناوله للموضوع تجريبية خالصة ، وأنه إذا كان هذا التناول قد أدى إلى اكتشاف تناسق معين فى تطور الحضارات ، فينبغى ألا يفسر هذا التناسق إطلاقاً على أنه يشكل طريقاً غير قابل للتغيير ، وأنه قدِّر على جميع الحضارات أن تسلكه . ويصر من ناحية أخرى ، وبنفس القوة ، على أنه لا شأن له بما يطلق عليه « الرأى الذى لا معنى له

فى التاريخ ، وهو الرأى الشائع بين المؤرخين الغربيين منذ أجيال قليلة » .
وأنه ليس هناك سبب يمنع الإنسان من أن يحاول إيجاد معنى لحقائق التاريخ ،
فى مناقشته التى أذيعت بالراديو مع الأستاذ « جيل Geyl » الذى يرى
أن ذلك عمل مستحيل ، قال توينبي : « إننا لا يمكن أن نقبل مثل هذه الدعوة
للهزيمة ، لأنها ليست جديرة بعظمة عقل الإنسان ، وقد دحضتها أعمال
العقل الإنسانى فى الماضى . . . وإن مهمة إيجاد معنى للتاريخ هى إحدى
الضرورات الملحة فى أيامنا هذه » .

ويعتبر هذا الاختلاف فى النظرة العامة حول ما إذا كان يمكن ،
أو كان من الواجب ، أن نفسر التاريخ بحيث يكون له معنى أم لا ، هاماً
جداً ، لأنه يحدد ـ أساساً ـ موقف المرء تجاه نظريات توينبي ، فأولئك الذين
يقولون إن التاريخ لا يعبأ بتفسيرات لها معنى فى العقل البشرى ، يجدون أنه
من العسير أن يقبلوا تخطيط توينبي للخطوط العريضة التى تتطور
الحضارات على أساسها ، وأصعب من ذلك قبول حتمية شبنجلر البيولوجية ،
أو مادية ماركس التاريخية .

وبالنسبة لموقف الفرد إزاء مسألة « وجود معنى للتاريخ أو عدم وجود
معنى له » فمن الواضح أن عقيدة الإنسان ومفاهيمه الروحية تحددها
إلى درجة كبيرة ، ولهذا فإنها تتحدى المناقشة العلمية .

الانحياز المسيحى عند توينبي :

إن هذا القول ينتهى بنا إلى السبب الثانى الذى استثنى بعض المؤرخين
تعاليم توينبي من أجله ، على اعتبار أنها ليست نتيجة بحث علمى خالص ،

ولكنها — فى التحليل النهائى — فرض تمليه المعتقدات الدينية . ويعبر الباحث الاجتماعى الأمريكى ، هـ . ا . بارنس — H. A. Barnes عن هذا اللون بدقة أكثر ، إذ يقول :

[إن « دراسة التاريخ » بعث عظيم هائل لما أسماه « جورج سانتايانا George Santayana « السيرة المسيحية » كما هى مشروحة عند أوجستين وأتباعه .

ولكى نزيح النقاب عن مأساة لعنة الماضى والخلاص الأخير للبشرية ، فإن الهدف الأول لتوينبى لم يكن الغرض التاريخى المباشر الواعى]

* * *

[إن العملية والمراحل التى هلكت خلالها المجتمعات بلا إيمان صحيح تشكل كلا من النظرية والتطبيق فى كتاب توينبى المسمى « دراسة التاريخ] .

ولا ريب أنه تبين لكل من قرأ كتب توينبى أن هذا ليس تقديماً عادلا لتفكيره ، فبينما هو يوضح أن عقائده المسيحية هى التى تتولى إرشاده وتوجيهه ، وأن إحياء الحضارة الغربية يتوقف ، فى رأيه ، على إحياء الإيمان

المسيحى ، فإنه من الواضح أن توينبى لا يعزو بأى حال من الأحوال ، سقوط الحضارات الأخرى لفشلها فى اتباع « الإيمان الصحيح » كما أن النتائج التى استخلصها عن الأطوار العادية للحضارات ليست مستمدة ، بأى وجه من الوجوه من آرائه الدينية . بيد أننا إذا اختزلنا الادعاء بـ « انحياز المسيحية » إلى صفته الحقيقية التى تعتبر « انحيازا » أكثر من مجرد « الانحياز » لتبين أن ذلك صحيح أساساً ، ويجب أن يرد عليه . وفى رأينا أنه من المستطاع تقديم إجابتين على ذلك :

أولاهما — أنه يبدو أنه ليس هناك سبب يجعل العالم الذى يسترشد بالإيمان المسيحى عرضةً للتحيز وعرضةً لأن يكون أقل اتصافاً بالصبغة العلمية من الذى يسترشد بالمؤمنين بسلطان العقل ، أو بالقدر ، أو بالمذهب الماركسى ، أو من أى شخص آخر يؤمن بالديمقراطية . ومن ثم فإننا نخلص مما سبق إلى أنه من العسير ، إلى حدما ، أن نجد — فى مجالات العلم ذات الصلة الوثيقة بمسائل الحياة الرئيسية — إجابة « علمية » بحتة ، لأن كل عالم يخضع لتوجيه مبادىء معينة أو نظرة معينة أو « انحياز » معين سواء أراد ذلك أم لم يرده ، وبغض النظر عن التسمية التى يمكن أن يختارها المرء ، ومن ثم سنطرح هنا جانباً الموضوع الأكثر عمقاً ، وهو « العلم للعلم » ، وما إذا كان قد أدى إلى حصول الإنسان على مثل هذه الثمرة الثمينة بحيث تعتبر أية روابط أخلاقية مرتبطة بها مرفوضة .

ومن الناحية الثانية ، قد يبدو أنه فى استطاعة الشخص الذى يسعى إلى إثبات الحقيقة التاريخية على أساس الوقائع الخالصة أن يقبل نتائج معينة

من الحقائق التى نظمها توينبى دون أن يقبل المبادىء المسيحية ، بنفس الطريقة التى استطاع بها قبول كثير من نتائج شبنجلر دون مشاركة فى نظرته العسكرية . . . ويبدو أن قيمة وصدق السواد الأعظم من اكتشافات توينبى ، وبالأخص ما يتعلق منها بتشابه تطور مختلف الحضارات ، يبدو لنا أن ذلك لا يتوقف على قبول أو رفض عقيدته المسيحية .

الحضارات لا تولد ولا تموت تماماً :

وثم تحد ثالث أساسى أمام نظرية توينبى — وهو تحد يواجه أيضا نظريات دانيلفسكى وشبنجلر ... ذلك أن الاستعارة الخاصة بالحضارات كالقول بالمولد والنمو والنضج ، والتحلل رغم أنها قد تكون جذابة للوهلة الأولى بسبب بساطتها ، فإنها غير مناسبة ، لأن الحضارات لا تولد ، ولا تموت . وتبعاً لهؤلاء النقاد ، فإن الحضارة ليست نظاماً متكاملا ، وليست وحدة ثابتة متماسكة ، ولكنها تكتل لظواهر ثقافية : سياسية واقتصادية وعلمية ودينية واجتماعية . . إلخ ، يمكن أن تنتقل من حضارة لأخرى . ومع أن عدداً من هذه الظواهر يتحد فى فترات معينة ليشكل ما نسميه حضارة ، فمن الجائز أن بعضها وُجد قبل ظهور الحضارة ، أو أنه يحيا بعد اختفائها ، ومعنى ذلك أن الحضارة لا تولد أو تندثر حقيقة .

وتبعاً لهذا الاتجاه فى التفكير ، كما يعبر عنه «سوروكين» Sorokin » ، فإن الحضارة الإغريقية — الرومانية مثلا ، لاتزال على قيد الحياة فيما كتبه الإغريق من كلاسيكيات وما خلفوه من فلسفات ، وفى القانون الرومانى وأشكال الحكم الرومانى وأساليبه . وإليكم شطراً مما قاله « سوروكين » فى هذا الشأن :

:

« إن قيماً كثيرة من « الحضارة » الإغريقية — الرومانية مازالت تقلد وتطبق وتدمج فى حضارتنا وثقافتنا ونظمنا وعقليتنا وسلوكنا وعلاقاتنا . . إنها تحيا وتعمل وتؤثر فينا ، لأنها أكثر حياة من أحسن كتاب بيع فى العام الماضى أو كتب الأدعياء والطرز التى صدرت بالأمس . . إن حضارة من « الحضارات » الكبرى لا تموت برمتها . . وفى استطاعة المرء أن يزعم ، بقدر معقول من التأكيد ، أن نسبة مئوية كبيرة من أية حضارة من الحضارات الغابرة « الميتة » — وهى فى بعض الأحايين نسبة مئوية كبيرة جداً — ما زالت حية » .

وإذا تأملنا هذه القضايا بدقة ، فلن نلبث أن نتبين ما فيها من مغالطة . ولئن كان الناس مازالوا يقرأون كتابات هومر وأفلاطون، ولئن كان القانون الرومانى ما زال يدرّس ويطبّق ، فإن ذلك لا يعنى أن الحضارة الكلاسيكية ذاتها ما زالت على قيد الحياة ـ كذلك لا يمكن أن يعنى ارتداؤنا البيجامات وشربنا القهوة ، أن الحضارة العثمانية ما زالت حية ، إذ أنه من الممكن أن يموت المؤلف وتظل كتبه تلقى رواجاً كبيراً ، وأن يموت الرسام وتظل رسومه موضع الإعجاب . ومن الجائز أن تموت شجرة الشاى وتظل أوراقها تستعمل فى صناعة الشاى . وإنما مدار اختبار الحياة أو الموت هو ما إذا كان لا يزال من المستطاع إنتاج أشكال أو منتجات جديدة ، وليس هناك اختلاف فى ذلك بين الحياة العضوية والثقافة مهما أسىء استعمال المقارنة فى نواح أخرى . . ومنذ اندثرت اليونان وروما لم يكتب أدب يونانى ، ولم توضع طرز معمارية يونانية جديدة ، ولم يوضع قانون رومانى جديد... وفيما بعد ، وجد مؤلفون يكتبون باليونانية واللاتينية ، ومن الممكن

أن يتمكنوا اليوم من ذلك أيضاً ، وفيما بعد أنشأ المهندسون المعماريون مبانى كلاسيكية جديدة ، وفسر الشراح القانون الرومانى وعلقوا عليه ، ولكن أياً من هذا الإنتاج لم يكن «جزءاً» من الحضارة الإغريقية أو الرومانية .. لقد ماتت هذه الحضارة ، لأنها لم تعد تتطور وتنمو وتبتكر، إنها لا تنتج مظاهر أو مبتكرات جديدة ، أى أنها لم تعد على قيد الحياة . ولن يغير من ذلك أن كثيراً من مبتكراتها الماضية لا يزال يشكل أجزاء ثمينة من تراثنا الثقافى .

إن الاعتراض الأول من الاعتراضات الرئيسية الثلاثة التى ناقشناها حتى الآن ، وأعنى به محاولة توينبى التعسفية إيجاد معنى للتاريخ ، يشكل أيضاً مصدراً لمعظم الاعتراضات التى أثيرت على كتابته .

نبى الكآبة :

وثم لوم آخر وجّهه مثلا الأستاذ «جايل» Geyl فى مناقشته مع توينبى التى أذيعت بالراديو ، وهو أن رأى الأخير يميل إلى توليد كآبة لا ضرورة لها بالنسبة لمستقبل الحضارة الغربية .

وأجاب توينبى على ذلك ، بحق ، بأن صفة الكآبة أو «المرح» فى إحدى النظريات لا شأن لها فى كون تلك النظرية صحيحة أو زائفة ، فإذا أدى التقدير غير المتحيز للحقائق إلى نتيجة «كئيبة» فإن من الجبن المحض أن نرفض تلك النتيجة لمجرد أنها كئيبة . .

ومهما يكن من أمر ، فهناك إجابة أساسية جداً على هذه الحجة، فإن رأى توينبى عن التاريخ قد يولد الكآبة حقاً إذا كان معناه أن حضارتنا مقضى

عليها ، وأنها الآن تمر بمرحلة هبوط فى طريق التحلل والتعفن الذى لامفر منه ، وبعبارة أخرى : إذا كان معناه القضاء والقدر المكتوبان ، وهذا مايصر توينبي على إنكاره فإنه ، كما قال « يقف عند القطب المضاد من حيث اتصال الأمر بهذا الموضوع المتناهى الأهمية إزاء الفيلسوف الألمانى المشهور شبنجلر » من كتاب : هل يمكننا معرفة طابع الماضى

ويرى توينبي « أن مجرى التاريخ إن هو إلا نتيجة لعملية التحدى والرد ، وأنه إذا كان هناك كثير منها فى تاريخنا الحديث يجيز الإحساس بالقلق ، فإن ذلك ينبغى أن يكون حافزاً على العمل ، وليس حكما بالإعدام لشل إرادتنا » المرجع نفسه .

اختبار أو عرض للأمثلة من جانب واحد :

وثم هجوم آخر على كتاب توينبي يوجه إلى نظرته ذات الجانب الواحد ، ويتخذ هذا الهجوم أشكالا عديدة مترابطة أشد الترابط .

وأحد هذه الأشكال أن توينبي ، وإن كان يوضح نظرياته بأمثلة كثيرة مأخوذة من تاريخ جميع العصور والمناطق ، فإنه يختار هذه الأمثلة جزافاً من عدد لا نهاية له من الحوادث ليؤيد نظرياته . . ولهذا فإن فى استطاعة أى شخص واسع المعرفة أن يروى أكبر عدد ممكن من الحالات التى تدحض هذه النظريات ، وبعبارة أخرى فإنه برغم أن توينبي يعتقد أنه غير متحيز ، إلا أنه ، فى الواقع ، يختار أمثلة تتلاءم مع قضاياه .

ويذهب نقاد آخرون إلى أن الحقائق التى يختارها توينبي

يمكن أن تعرض غالباً بطريقة تختلف فى قليل أو كثير مع النتيجة بحيث أنها لا تستطيع تأييد حجته ، وربما دحضتها . . ومن الأمثلة الملحوظة على ذلك عودة الحضارة المصرية عقب رجوع الحضارة العالمية فى الامبراطورية الجديدة فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، أى بعد أن تعرضت ، كما قال توينبى ، « للانهيار » وحتى بعد أن احتل البرابرة الأجانب أى الهكسوس البلاد . . . ويفسر توينبى هذه العوده بأنها « تحجر » للحضارة ، وخاتمة تصون الحضارة فترة طويلة بعد تحللها ، غير أن مؤرخين كثيرين لا يستطيعون رفض الرأى الآخر وهو أن الاتجاه الأخير للحضارة المصرية لا يتفق مع تخطيط توينبى ، وأنه يستخدم تفسيراً تعسفياً إلى حد ما حتى يجعلها مناسبة ، وهناك أمثلة أخرى سنذكرها فى الفصل التالى تشير إلى نتيجة مماثلة ، بل لقد أحصى الأستاذ « جايل » أمثلة كثيرة منها فى المقال الذى نشره بعنوان « نظام الحضارات عند توينبى » (Journal of the History of Ideas) يناير ١٩٤٨ وأعيد نشره فى The Pattern of the Past . وبنفس النغمة يشير معظم نقاد توينبى إلى أنه يقيم نتائجه العامة على تطور الحضارة الهيلينية ، ويحاول أن يجعل جميع المجتمعات الأخرى تتلاءم مع النموذج الهيلينى . . يقول بارنس :

« إنه يستخدم الحضارة الهيلينية كطابع أو نموذج لتكوين نظريته العامة عن جميع الحضارات ونموها وتدهورها ، وهو يحشر حقائقه باستمرار فى قالب أو إطار لا يتلاءم معها دائماً ...

« إن العيب الرئيسى فى مؤلفات توينبى — بغض النظر عن هدفه واتجاهه

اللاهوتي أساسا ، هو أنه بلغ نتائجه الأساسية قبل أن يمر بتركيب التجارب الهيلينية التـاريخية ، وبدأ فعلا عرضه للحضارات الإحدى والعشرين التي فحصها رسمياً » — (هـ . ا بارنس) .

وهناك شكل آخر للنقد ذاته ، ذلك أن توينبي يحقق الصفـاء والبساطة في صورته بالمبالغة في تبسيط الدور الذي تلعبه العوامل ، وبذلك يحصل على صورة أكثر وضوحا وسهولة إدراك ، وجاذبية .. لـكن أنراها تطابق الواقع تماما ؟ . إن جميع المؤرخين تقريباً ، ومن ناقشوا إنتاج توينبي ، أبدوا — بأمثلة عديدة — أنهـا لا تطابق الواقع في معظم الأحايين ، ويعبر الأستاذ « لوشر Locher » عن آراء كثير من زملائه في هذا الصدد عندما يقول :

[إن التفسيرات الجامدة الأكثر وزناً من جميع الاعتراضات الأخرى ، هي كما يلي : إن توينبي يبسط التاريخ إلى درجة تكاد تصل إلى حد الأساطير ، وبصرف النظر عن عـدد الملاحظات الجميلة التي يبديها ، أو الظلال التي يستخدمها ، فإننا نجد ، المرة تلو الأخرى ، أنه اختزل العمليات المعقدة إلى تفاعل بين قوى قليلة ، تتخذ الجماعات التي تشترك فيـه شـكل التفـكير البسيط والمخلوقات التي تنفعل] .

واستناداً إلى حجة هؤلاء المؤرخين ، وعلى أساس الحقائق التاريخية ،

يبدو أنه مما لا يمكن إنكار أن توينبي يصرف النظر عن الهامش العريض الذى يتركه للاختلافات ، ويغرق فعلا فى التبسيط ، وسنذكر فى الفصول التالية بعض أمثلة تبين اختلافاً أكثر فى أطوار النضج والتحلل أكثر مما يسمح به تخطيط توينبي .... وحتى هذا كله لا ينقض النظرية كلها فى خطوطها العريضة ، لأن جميع هذه الهجمات تنصب أساساً على الأمثلة التى اختارها توينبي أو على الطريقة التى يستخدمها أكثر مما هى موجهة إلى خط تفكيره العام . . وحتى إذا كان على المرء على ـ أساس معرفته معرفة واسعة بحقائق التاريخ كمعرفة توينبي ـ أن يستخلص أن أمثلة معينة من أمثلته أنتقيت جزافاً أو قدمت بطريقة الجانب الواحد بحيث تتلاءم مع النظرية ، فإن ذلك لا يحتم أن تكون النظرية خاطئة برمتها ، ما دامت تجعل لخطوطها العامة معنى على أساس الحقائق المقررة ، وهو ما فعلته حقاً . . فقد تبين عند فحص كل نظرية عظيمة جديدة بدقة أنها تحتوى على أخطاء أو مبالغات معينة فى النقط الثانوية ، بل الأساسية أيضاً . . ولكن ذلك لا يبطل قيمتها ، ولا يثبت أن النظرية خاطئة فى جوهرها .

إهمال عوامل معينة فى التاريخ :

ويتصل بنقد النظرة ذات الجانب الواحد النقد الذى وجه إلى البند السادس ، إذ يلوم بعض المؤرخين توينبي لأنه لم يعر الفن اهتماماً كبيراً ، برغم أنه جانب هام فى الحضارة ، ويلومه آخرون لأنه أهمل ، على نحو يكاد يكون تاماً ، جوانب هامة كالعلم ، والتطور الفنى والاقتصاد بصفة عامة ، ولأنه لم يحسب حساب تاريخ العلم وتاريخ الاقتصاد ، والأنثروبولوجيا

الثقافية ، وتاريخ علم الاجتماع ، وذلك نتيجة اقتناعه بأن القوى الروحية والسياسية هى وحدها التى تحدد اتجاهات التاريخ العظمى ، ولكنه لا يبذل عناية كافية للعناصر الحيوية فى حياة الحضارات ، ولا للعوامل التى لا غنى عنها لأية نبوءة تتعلق بما قد يحدث لحضارتنا .

فإذا كان هذا صحيحاً ، فإن الاعتراض يجب أن يكون ذا طبيعة أساسية ، فإن إهمال التكنولوجيا والاقتصاد بصفة خاصة فى التاريخ لا يمكن تخطيه بالنسبة لأولئك الذين يتمسكون بمدرسة المادية التاريخية .

إلا أنه يبدو أنه لن يكون لهذا اللوم مبرر إذا أدرك المرء — اكتفاء بذكر الأمثلة الرئيسية — أن توينبي يُرجع أصل الحضارة المصرية إلى تحدى الظروف الاقتصادية القاسية ، كما يرجع انهيارها إلى استنزاف قوى الإنسان وطاقته فى بناء الأهرام ، ويرجع صعود أثينا إلى الحل الذى وجدته لتزايد سكانها ، وأن تدهور المجتمع الرومانى كان بسبب الضِّياع الكبيرة . والواقع أن توينبي ، حينما يستقصى موضوع « التحدى والرد عليه » يثبت أن هذه العوامل غالباً ما تكون فى مراحلها المبكرة ذات طابع اقتصادى .

إن الشىء الذى يعترض عليه هؤلاء النقاد فعلا هو أن توينبي لم يشاركهم الاعتقاد فيما للاقتصاد والعوامل الفنية أو المادية من أهمية غلابة حاسمة ، ولم يشاركهم أيضاً الإيمان بسيادة العقل . وتشكل هذه الاعتقادات فى الوقت ذاته « انحرافاً » فى نظر هؤلاء النقاد ، يلومون توينبي عليه .

الحضارة ليست الوحدة البسيطة للدراسة التاريخية :

إن الإهمال المزعوم لتاريخ العلم وتاريخ الاقتصاد أساس لاعتراض آخر .

إن أحد أسس « دراسة » توينبي هو أن « الأمة ليست هي الوحدة البسيطة للدراسة التاريخية ، وهي ليست أيضاً — في الكفة الثانية من الميزان — مجموع البشرية ككل ، وإنما هي تجميع معين للإنسانية يطلق عليه لفظ « مجتمع » .

وقد تعرض هذا المفهوم الأساسي للهجوم على اعتبار أنه كلما قل إمكان فهم التاريخ — وليكن تاريخ انجلترا مثلا ، نظراً لعدم فهم الحضارة الغربية بصفة عامة — قل إمكان فهم الحضارة الغربية ما لم تؤخذ الحضارتان الهيلينية والعربية في الاعتبار .

وقد ظُن أيضاً أن هذا الافتراض الأساسي نتج عن استهانة توينبي بتأثير العلم والاقتصاد على التاريخ ولو نُظر إلى هذه العوامل بعين الاعتبار التي تستحقها لكشفت كما يقول هؤلاء النقاد ، عن اتجاهات طويلة الأمد وتطورات غير قاصرة على حضارة واحدة ، وإنما تمتد إلى حضارات عديدة على التعاقب أو في وقت واحد . ولعل من الإنصاف لتوينبي أن نقول : إنه وإن لم يعتبر الحضارة وحدة واضحة لدراسة التاريخ ، فإن كتاباته تثبت بدرجة كافية أنه كبير الإلمام بالعلاقات الداخلية للحضارات ، بل لقد وعدنا بتقديم مجلدين منفصلين يتناولان « الصلة بين الحضارات » وينبغي أن يكون ذلك كافياً في حد ذاته للتدليل على أنه وإن كان توينبي يطلق

على المجتمع لفظ الوحدة الواضحة للدراسة التاريخية ، فإنه لا يتغاضى بحال من الأحوال عن تأثير المجتمعات أحدها على الآخر .

فكرة انهيار الحضارات تبلبل الفكر :

وأخيراً ، فإننا نصل إلى نظرية المؤرخ الكبير التي يبدو لنا أنها تعرض نفسها لأكثر الانتقادات تبريراً . وإن كانت ليست ذات صفة أساسية تكفي لهدم البنيان الهائل كله ، إلا أنها على قدر كبير من الأهمية فيما يتعلق بتطبيقها على حضارتنا الراهنة ، ولذلك فإنها تستحق اهتماما خاصا ... إنها فكرته عن « انهيار الحضارة » .

وفيما يتعلق بالتوقيت ، يتضح أن توينبي يحدد الانهيار في مرحلة مبكرة من حياة الحضارة ، ويكفي أن نذكر ثلاث مناسبات للتدليل على ذلك .

ففي رأى توينبي ، حدث انهيار — « تدهور » — الحضارة الهيلينية في عام ٤٣١ ق . م مع بداية الحروب البلوبونية peloponnesian ، وليس من شك في أنه تمكن المحاجاة على أساس أن هذا الحدث شكل بداية النهاية بالنسبة لليونان ، أما إذا اعتبر المرء الحضارة اليونانية والرومانية حضارة واحدة ، كما يفعل توينبي ، فمعنى ذلك أن جميع الأعمال الابتكارية — بكل ما تنطوى عليه من فنون شكلت ما أصبح يعرف أخيرا بالامبراطورية الرومانية ، وما اشتملت عليه من فن الحكم ، والتشريع ، والفنون ، والفلسفة — جزء من عملية اضمحلال المجتمع الهيليني .

وينطبق الأمر نفسه على الحضارة الروسية الأرثوذكسية التي نشأت في القرن العاشر ، فقد حدد توينبي تدهورها باضمحلال مملكة كييف ،

فى القرن الثالث عشر ، ومرحلة متاعبها فى عام ١٠٧٥ ق . م وهكذا فإن فترة نمو هذه الحضارة لاتكاد تتجاوز قرناً .

وأهم من ذلك ، التطبيق الذى أجراه توينبى على حضارتنا ، ذلك لأنه لم يوضح بعد رده النهائى الحاسم عما إذا كانت الحضارة الغربية قد تدهورت أم لا ، ومن ثم علينا أن ننتظر الإجابة التى وعد بتقديمها على هذا الموضوع ، بيد أن توينبى أوحى إلينا ،كما فعل بعض زملائه ، « بأن مجتمعنا قد تدهور كمجتمع ، وأنه ماض فى تحلله » — انظر كتاب دراسة فى التاريخ ، المجلد ٥ ص ١٩٣ ، والمجلد ٤ ص ٥٢ ، ١٢٢ ، والمجلد ٥ ص ٤٠٣) — ومعنى ذلك أن التدهور حدث إبتداءً من القرن السادس عشر عندما نشبت الحروب الدينية ، وفى هذا قال « جايل » :

[تعتبر القرون الأربعة الأخيرة من تاريخنا ، حسبما يقول توينبى ، عملية تحلل واحدة ، طويلة الأمد] . انظر كتاب « هل يمكننا معرفة طابع الماضى ؟ »

من هذه الأمثلة ، وهى أمثلة قليلة مما قدمه النقاد ، يستطيع المرء أن يستخلص النتيجة التالية فيما يتعلق بمعالجة توينبى لموضوع « الانهيار » فهو يضع التدهور إما فى مرحلة مبكرة جدا ، أو يستعمل كلمة « تدهور » بمعنى يثير البلبلة .

ويقودنا هذا القول إلى الجانب الآخر من نظريته عن « الانهيار » : ما هو معنى وتأثير الانهيار فى عرف توينبى ؟ لعل الكلمة نفسها توحى ،

من حيث استعماله لها ، بأن الانهيار هو نقطة التحول فى حياة الحضارة ، أو الحادث الذى يحدد الانفصام بين فترة النمو وفترة الاضمحلال ، وحينما تستعمل الكلمة بهذا المعنى ، فإنها تشكل ، «نقطة لاتحول» للحضارة، وأزمة ، أو خطأ كبير لا يمكن أن تبرأ الحضارة منه أبداً .

فإذا كان هذا هو مرادف كلمة «انهيار» فإن ذلك يستتبعه أنه ما إن يبدأ الانهيار فى الحدوث حتى يقضى على الحضارة بأن تنحدر فى طريق التحلل رغم أنه قد تحدث « إعادة توحيد » ولكنها قد لاتكون من القوة ، بحيث تستطيع الحضارة أن تتغلب على الانفصام الأولى الكبير ، وبهذا يتخذ التدهور صفة الحادث الميتافيزيقى . وترجع نظرية توينبى غالباً إلى فكرة « المقدر سلفاً » التى يرفضها هو نفسه بإصرار ، لأنه إذا كان « الانهيار » كلمة تستعمل بمعنى حدث لا يبرأ المجتمع منه إطلاقا ، فإن هذا القول قريب جداً من القول بأن هذا المجتمع قضى عليه من لحظة بدء الانهيار بالفناء ، أو قدر عليه سلفاً أن يموت ، ولكن توينبى يحفل من هذا الاستنباط ، ومع ذلك فإن تلك هى النتيجة المنطقية لفكرته عن « الانهيار » كما تطبق على الحضارات السابقة .

ومهما يكن من الأمر ، فإن علينا أن نحترم ما قاله المؤرخ نفسه من أنه لايعترف بشىء اسمه «المقدر سلفاً» فى التاريخ ، ويتضمن ذلك بالضرورة أن البرء ممكن فى أية لحظة حتى بعد حدوث الانهيار ، وهو يقول فيما يتعلق بحضارتنا الراهنة :

[ليس هناك ما يمنع حضارتنا الغربية
من اتباع السوابق التاريخيـــة إن شاءت

لترتكب بذلك جريمة الانتحار الاجتماعى .
غير أنه ليس مقدراً علينا أن نجعل التاريخ
يعيد نفسه ، والطريق مفتوح أمامنا لكى
نبذل جهوداً خاصة لنوجه التاريخ ،
فى حالتنا ، وجهة جديدة لم يسبق لها مثيل .
ونحن ، كبشر ، نتمتع بحرية الاختيار ،
ولا يمكننا أن نطرح عنا المسئولية لنلقيها
على الله أو على الطبيعة ، وإنما يجب علينا أن
نتحملها بأنفسنا . . إننا لسنا تحت رحمة
القدر الذى لا يرحم] .

(من كتاب « الحضارة فى الميزان »)

فالانهيار بهذا المعنى يتخذ معنى مغايراً تماماً ، إنه ليس كارثة لا يمكن تفاديها ، ولكنه مجرد أصل للقصور الذى يسبب تدهور المجتمع فى نهاية الأمر ، وهو حينئذ لا يكون أكثر من مجرد الحادث الأكبر الأولى فى سلسلة الأسباب التى يمكن أن يُرجع إليها فيما بعد سقوط الحضارة النهائى ، وهو يشبه فى ذلك ، إلى حد كبير ، أعراض المرض الأولى فى الجسم الإنسانى ، إذا انهار الجسم فى النهاية نتيجة لهذا المرض . وذلك على كل حال ، يختلف تماماً عن الكارثة التى لا يمكن إصلاحها ، فإن الإنسان إذا مات بسبب إصابته بالالتهاب الرئوى ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن يعيش لو كان قلبه ، مثلا ، أكثر قوة ، أو لو أنه أبدى اهتماماً أكبر بنزلة البرد فى مرحلتها الأولى ، ومع ذلك فإن القلائل هم الذين يطلقون

على نزلة البرد الابتدائية تلك انهياراً لصحته البدنية .

ولا يمكن إدراك « التدهور » على هذا النحو حتى ولو كان يعنى أن المجتمع يعدّ لنفسه مرحلة « عودة » ويمضى فى النمو والتحسن بعد حدوث ذلك ، فقد يموت رجل فى الأربعين من عمره نتيجة لإصابته بتدرن رئوى لم تلاحظ أعراضه الأولى فى طفولته ، ومع ذلك فإن إصابته بالمرض لم تحل دون نموه إلى مرحلة الرجولة ، بل لعله كان من الجائز أن يعيش حتى يصل إلى سن السبعين لو أمكن كشف أمر المرض وعلاجه فى الوقت المناسب . . وتفسير كلمة « انهيار » على هذا النحو يكسبها معنى مغايراً تماماً وأقل خطورة من معنى الكلمة ، العادى الذى يبدو أن توينبى يرمى إليه فى الغالب .

ولقد أجاد الأستاذ لوشر هذا الازدواج فى استخدام الكلمة عند ما تحدث عن انهيار الحضارة الهيلينية ، فقال :

[إن الأمر واحد من اثنين : إما أن يكون عام ٤٣١ ق . م . هوة يمكن تخطيها ، وعندئذ لا يشكل تدهوراً حسب مفهوم توينبى . أو أنه يشكل تدهورا ، وحينئذ نجد بناء يشمل مجموع تاريخ الحضارة اليونانية — الرومانية لا يمكن إنقاذه بسبب هذا الخطأ الواحد ، ويعنى ذلك شيئاً شبيهاً بانهيار الإنسان ، وأنا أرفض هذا ، لأنه ميتافيزيقيا تاريخية] .

وإن الازدواج الذى لم يحل فى مفهوم توينبي عن « الانهيار » غير مقصور بحال على هذه الظاهرة . إنه منتشر فى جميع ثنايا كتابه ، وله جذوره فى ازدواج موقفه الرئيسى الذى يعنى ، من جانب ، أن الحضارات تتلاءم عادة مع طابع عريض معين ، ويؤكد من الجانب الآخر أنها تستطيع فى أية لحظة أن تتحرك إما إلى أعلى أو إلى أسفل . . . إن هذا هو ، كما سبق أن أشرنا ، الصراع الدائر فى نفس توينبي بين الحتمية والتجريبية ، وهو الصراع الذى يزيد من عظمة الرجل لأنه صراع ينبع من النضال من أجل الحقيقة .

غير أن وجود الازدواج المبلبل للخاطر يجب أن ندركه بوضوح ، وأن نتأمل آثاره ، لأن لآثاره أهمية حيوية بالنسبة لأية نتائج تستخلص بالنسبة للحضارة الغربية ، فلئن كان « الانهيار » كارثة لا يمكن إصلاحها ، وبداية محتومة للنهاية ، فمن الأهمية بمكان أن نعرف ما إذا كان انهيار الحضارة الغربية قد حدث فعلا ، وإذا كان قد حدث فمعنى ذلك أن مصير حضارتنا مقدر عليها سلفاً كما قال شبنجلر ، ومن الناحية الأخرى : إذا كان الانهيار لا يعنى أكثر من الأعراض الأولى للمرض الذى يمكن أن يرجع إليه موت الحضارة حسب منطق الأحداث السابقة فإنه عندئذ يفقد دلالته المنحوسة ، نظراً لأنه يمكن حينئذ شفاء المرض إذا ما أجرى التشخيص الصحيح فى حينه ، وأخذ العلاج الصحيح ، وكان المريض يتمتع بالقوة الكافية ، وإذا استخدم « الانهيار » بهذا الترادف ، فمن الممكن عندئذ أن ينتج المجتمع بعض ثماره الحقيقية بعد حدوث ما يسمى بـ « الانهيار » ما دامت الوقائع تبين أن تلك هى الحالة الشائعة فى الأمثلة التى يسوقها توينبي : امبراطورية مصر الجديدة بعد بناء الإهرامات الكبرى ، الجمهورية والإمبراطورية الرومانية بعد الحروب

البولوبونية ، وأوربا الغربية بعد التدهور الذى لعله حدث فى القرن السادس عشر ، أو فى القرن الحادى عشر ، وإننا نعتقد أن التفسير الثانى للكلمة يمكن قبوله اذا كان (لعمل) توينبى أى معنى ، والواقع أن الأستاذ توينبى طمأن هذا الكاتب بقوله إن هذا هو المعنى الذى يريد أن تؤكده الكلمة .

وبرغم ما للموضوع الانهيار من أهمية ، وبالأخص فيما يتعلق بالحضارات التى لا تزال قائمة ، فإن ذلك لا يهدم النظرية من أساسها ، أو يهدم جزءا من أجزائها الهامة ، فحتى إذا كان التدهور الحقيقى هو الانهيار — الذى لا يمكن تفاديه والذى يحتمل أن يكون قد حدث فى عدد من المجتمعات ولكنه حدث متأخرا عما ساقه توينبى — فإن خطته العامة تظل بعد ذلك كله قائمة.

لقد ذكرنا الآن ثمانية أسس كبيرة لمهاجمة نظرية توينبى من جانب زملائه المؤرخين .

ويبدو من المناسب أن نختم ، بناء على الأسس التى أوجزناها فى الصفحات السابقة ، بالقول بأن جميع هذه الأسس ، باستثناء الأول منها ، إما أن يعوزها البرهان الكافى ، أو تنقصها الطبيعة الأساسية بدرجة تهدم الجزء الرئيسى من نظريات توينبى .

ولكن الموقف يختلف عن ذلك بالنسبة للأساس الأول : إذا كان التاريخ شديد التعقيد والتنوع بحيث لا نستطيع أن نميز فيه أى طابع عام أو معين ، فعندئذ ينهار البناء الذى بذل توينبى كل العناية لإنشائه وبلورته ، بحيث لا يصبح أكثر من حطام غير مترابط .

ومن ثم فإن المسألة الحاسمة تظل هى : هل من المستطاع الكشف عن طابع عام فى حياة الحضارات ؟. وسنعالج هذا الموضوع فى الفصل التالى .

— ٧ —
التركيب : طابع الحضارات

حاولنا فى الجزء الأول من الكتاب الذى يوشك على الانتهاء ، أن نقيم أساساً علمياً يعتمد عليه البحث فى المرحلة الراهنة ، والاحتمالات المستقبلة لحضارتنا ، وقدمنا صورة موجزة لواحدة من المحاولات المبكرة الكبرى واثنتين من المحاولات الأخيرة التى بذلت لوضع فلسفة ثابتة عن حياة الحضارات وموتها . وقد وصل المؤلفون الثلاثة الذين تحدثنا عنهم ، إلى ما تطلق عليه الفكرة الدورية أو الحركة المنتظمة للتاريخ .

وبالإضافة إلى ذلك ، بذلت محاولات أخرى كثيرة هامة لا تقوم على فكرة دورية التاريخ لتفسير نهوض الحضارة وسقوطها ، فهناك الفيلسوف روسى المولد «بردييف Berdyaev» وزميله «سوروكين» ، وهو روسى المولد أيضا ، والأمريكيان « نورثروب Northrop » و « كروبير Kroeber » وقد ذكرناهم على سبيل المثال لا الحصر ، وهؤلاء تعمقوا فى دراسة هذا الميدان . ومن الطريف أن نلاحظ أنهم لم يقبلوا المفهوم الدورى للتاريخ ومع ذلك فإن بعض آرائهم — وبالأخص ما يتعلق منها بالأطوار التى تمر بها الحضارة ، تميل إلى تأييد كثير من الخطوط العريضة لنظريات دورية التاريخ فإنه بعد أن أجرى «سوروكين» تحليلا دقيقاً لفلسفات المدرستين ، استنتج أن الخلاف الحقيقى بين فريقى الكتاب أقل كثيراً مما يبدو ظاهريا ، وأن الاتفاق بينهما كبير » (سوروكين ص ٢٨٤)

ولقد التزمنا غاية القصد فى التحدث عن آراء دانيلفسكى وشبنجلر وتوينبى ، لأنهم يمثلون أكثر التفسيرات اكتمالا وجزما بحياة الحضارات ،

ولهذا كانت أكثر التفسيرات جاذبية،وسوف نشير أحيانا إلى آراء الكتاب الآخرين حسبما يقتضيه مجرى المناقشة .

عندمحاولة الوصول إلى النتائج، يبدو أن الأكثر نفعاً هو مقارنة المشروعين الشامخين اللذين تتضاءل أمامهما كل المحاولات الأخرى التى بذلت حتى الآن، فحتى دانيلفسكى برغم أنه بادرة مبكرة ، فإنه أقل أهمية لأنه لم يتحمق إلى حد كبير ، كما فعل شبنجلر وتوينبى .

وهناك اختلافات كثيرة عميقة الجذور بينهما ، ولعل أهم اختلاف هو اختلاف نظرة كل منهما إلى الحياة ، فشبنجلر عسكرى قبل كل شىء ، أما توينبى فمسيحى قبل كل شىء ، ويرى شبنجلر أن القوة هى العنصر النهائى الحاسم فى التاريخ ، وأن بقاء الأقوى هو المعنى الوحيد للتاريخ . وعند توينبى أن للتاريخ غرضاً أخلاقياً هو الذى ينقل الحياة البشرية من مستوى « الإنسان الأدنى » إلى مستوى « الإنسان » و « الإنسان الأعلى» أما شبنجلر الرجل العسكرى ، فيرى أن الحرب والجندية هما القوى الخلاقة ؛ ولكنها عند توينبى ، الرجل المؤمن بالله ، القوة المدبرة للأشياء العظيمة . وفى رأى شبنجلر أن السياسة والتاريخ ليسا موضوعاً لأية قوانين أخلاقية ، أماتوينبى فيرى أن كليهما خاضع لقوانين الله.

وهذا الاختلاف فى الفلسفة يدمغ كلاً من العملين العظيمين بطابعه ، ويؤدى إلى اختلافات هامة فى النتائج ، مثال ذلك ، أن شبنجلر يرى أن نهاية الحضارة الرومانية بدأت بعد معركة أكتيوم فى عام ٣١ ق . م ، إذ أن القتال على نطاق واسع فى العالم الرومانى قد انتهى منذ ذلك التاريخ ، أما توينبى

فيرى عكس ذلك . إنه يرى أن نهاية الحضارة الهيلينية (بما فيها الحضارة الرومانية) بدأت مع الحروب البولوبونية فى عام ٤٣١ ق . م لأنه منذ هذا التاريخ بدأت حروب كبيرة على نطاق واسع بين الولايات اليونانية منعتها من الوحدة ، فعجل ذلك بنهايتها .

وإذا كان شبنجلر ألمانياً صميما فى تناوله للمشكلة ، فإن توينبى انجليزى بدوره . وقد حاول شبنجلر سواء بوعى أو بغير وعى أن ينشىء طابعاً جامداً يلائم جميع الحضارات بحيث تتطور ، على النحو الذى حدث فعلا ، تبعاً لقوانين لا مفر منها فى رأيه أشبه بالكائن العضوى ، أما توينبى ـ فعلى العكس من ذلك ـ تقدم على طول الطريق التجريبى الإنجليزى دون أن تتوافر له أفكار سابقة ، أو أنه تظاهر بذلك على الأقل ، وبذلك يكون شبنجلر حتمياً ، بينما يكون توينبى ـ أو هذا ما يريده على الأقل ، تجريبياً . وتتضمن وجهة نظر شبنجلر المصير المحتوم لكل الحضارات ، ويؤمن توينبى بالاختيار الحر لكل حضارة ، تماماً كما هى الحال بالنسبة لكل فرد يقرر مستقبله الخاص به . وفى رأى شبنجلر أن كل الحضارات يجب ألا تحيد عن مجرى خاص واحد ، وفى رأى توينبى أن هناك تنوعاً فى الإمكانيات لانهاية له برغم الخطوط الطويلة المدى للتطور التى يمكن تفسيرها من المشابهات التى بينها . ويؤيد توينبى ، فى فكرته هذه ، جميع المؤلفين تقريباً برغم أنهم يعتبرون طابعه من الصرامة بمكان .

وقد أدى هذا الاختلاف الأساسى فى وجهات النظر إلى نتائج مختلفة ، وذلك فيما يتعلق بعصرنا . ومن وجهة نظر شبنجلر ، فإن جرس الموت دق بالنسبة للحضارة الغربية ، ومن ثم فإن الاختيار الوحيد الباقى أمامها هو أن

تتحمل عناء المصير المحتوم فى كثير أو قليل من الترفع ، وأن تختار ميتة الأشراف أو ميتة الجبناء ، أما وجهة نظر توينبي النهائية فى هذا الصدد فما زالت بحاجة إلى الشرح ، إلا أننا نستطيع ـ من عدد من تصريحاته ـ أن نعتقد أنه برغم أن علامات جميع الأوقات أفعمته بقلق عظيم ، فإنه لا يعتبر أن مصير حضارتنا أصبح قضاء مبرماً ، وهذا ، فى الواقع ، رأى معظم المؤلفين الآخرين . .

[فباستثناء شبنجلر ، يوافق جميع الكتاب على أنه ليس من المحتم أن تكون الأزمات الكبرى لعصرنا هى الضربة القاضية الأخيرة على مسرح التاريخ البشرى بالرغم من دواعى الهدم التى تتصف بها ، لأن تطور الأزمنة المقبل يمكن أن يتوقف ويحل محله أخيراً عصر بناء جديد] .

(سوروكين ص — ٣١٩) .

إلا أنه برغم هذه الاختلافات العميقة الجذور فى النظرة العامة ، وفى الأساس القومى والروحى ، وفى المنهج والأسلوب ، فما زال هناك تشابه مدهش فى النتائج العامة التى وصل إليها شبنجلر وتوينبي والآخرون .

وما زال هذا التشابه لافتاً للنظر إذا علمنا — كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الثانى — أن هناك فيلسوفاً ظهر فى مرحلة مبكرة ، إدعى أنه ينتمى إلى حضارة مختلفة ، وكتب قبل مجىء شبنجلر وتوينبي بنصف قرن ، ووصل إلى نتائج مشابهة جداً لما وصلا إليه .

الاتفاقات العامة بين هؤلاء الكتاب

ففى أول الأمر يعترف هؤلاء الكتاب الثلاثة ، كما يعترف كتاب آخرون كثيرون ، باسم أو آخر ، بحقيقة مولد أو فجر أو ظهور حضارة بعد عصر « لا تاريخ له » ولكنه يعرف فقط شكلا أثنوجرافياً من الوجود ولا يعرف حضارة حيـــة . ويعتبر فجر الحضارة هو عصرها الأول أو القديم ، وخصائصه هى الأسطورة ، وشعر الملاحم ، والفن البدائى ، إنه عصر المنشدين العظام والأساتذة الأوائل ، وتقوم فلسفة واحدة أو عقيدة واحـدة لا متنفس لها ، فتتحكم فى نواحى المجتمع المـادية والاجتماعية والروحية ، وتتحد السلطة الدنيوية والروحية أو ترتبطان بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً ، وتمارسها طبقة عليا أرستقراطية باستخدام قوانين مقدسة ومقاييس أخلاقية ... ويعترف عادة بالمستويات الخلقية الصارمة ، وتسيطر الروابط العائلية القوية على حياة المجتمع . أما اقتصاد هذه الفترة فزراعى ، ومن ثم فإن الذين يملكون الأرض ، أى النبلاء والكنيسة ، هم أصحاب السلطان من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

وتبدأ بعد ذلك فترة الربيع ، أو الازدهار أو الشباب ، أو النهوض التى يتبعها مولد المدن . ويجعل هذا الحدث العقل البشرى أكثر استقلالا عن الضغط الكنسى والإقطاعى ، يولد فيه نشاطاً وحياة ذهنية مرهقة ، بيد أن الدين يظل مسيطراً على القومية ، والحدس على العقل ، والتقاليد على النفعية ، والقيم الروحية على القيم المادية ، ويعنى ذلك وحدة الإلهام وإحساساً مطابقاً بأسلوب يضع خاتمة على كل إنتاج فنى أو فلسفى أو سياسى

تمر به كل حضارة معينة . . إنها فترة الأساتذة العظام .

ومهما يكن من أمر ، فإن نشوء المدن تدريجياً يؤدى إلى طور جديد تسود المدينة فيه تماماً على الريف ، حيث يتولى سكانها وطبقة التجار المتوسطة زمام الأمور من الفريق الحاكم ، فريق النبلاء الزراعيين ورجال الكنيسة ، ويؤدى ازدهار النشاط الروحى فى المدن ، ذلك الازدهار الذى أوجد نهضة العقل البشرى ، تدريجياً إلى تحرره الكامل من النظام الدينى ، فتصبح الحياة الروحية دنيوية ، وتستقل الفنون الجميلة ، والقانون ، والأخلاق عن الدين ، وتصبح قيمتها محل جدل وتقدير فردى . وتبدأ المادية فى السيادة على الدين ، واعتبارات النفعية على الإحساسات الباطنية ، والفنون الصناعية على العبقرية . . ويشتد ساعد العلم ، ويتزايد الإشراف على بيئة الميتافزيقا والبشر . وبعبارة أخرى يوجد الفن المتحسن ، والتوسع الجغرافى لمنطقة سيطرة الحضارة . غير أن هذه الظواهر ليست أسباباً أو برهاناً على تزايد الحضارة . . . إنها حسب وجهة نظر دانيلفسكى وتوينبى تميل غالبا ، إلى إخفاء الاضمحلال الداخلى الذى وجد فعلا فى هذا الطور ، طور « الصيف » ، أو « النضج » .

وفى رأى معظم الكتاب ، لأن المصدر الرئيسى للاضمحلال لايكمن فى ظروف خارجية ،ولكنه يكمن فى أسباب داخلية ، ولا سيما فقدان القوة الخلاقة التى يصورها شبنجلر على أنها سيادة الذهن على الغريزة ، ويصورها توينبى على أنها فشل من جانب الأقلية الخلاقة القيادية بالمجتمع فى تدبير الإجابات الملائمة لتحديات معينة تؤدى إلى إخفاق المجتمع فى تكييف نفسه تبعاً للموقف المتغير ... وبينما يوجد فرق فى اللهجة والتعبير ،

فهناك أيضا قاسم مشترك بين هذين الفيلسوفين وفلاسفة آخرين غيرهم حول هذه النقط . . .

إن أقوى تشابه فى الآراء بين معظم الفلاسفة أكثر ظهوراً فيما يتعلق بالطور الأخير ، وهو الطور الذى يحدث فيه التحلل النهائى (إن دانيلفسكى لا يعالج خصائص هذا الطور) .

وكظواهر نموذجية لتلك الفترة ، يذكر شبنجلر ، سيادة المدينة العالمية ، والمدن الرئيسية التى تتميز بحكم سكانها ، والبداوة الفكرية وقوتها الرئيسية وهى النقود والعقم الفيزيائى الذى يقترن بالعقم الذهنى أى انعدام القدرة على الخلق ، والابتكار ، وفقدان «الأسلوب» ، وأخيراً السلام العالمى الناتج عن وجود احتكار فعلى للسلطة و« الإمبراطورية العالمية » التى تنتهى فيها الحروب القومية والمذهبية ولكنها تستبدل بـ « حروب خاصة » بالقياصرة ، والتدين الثانى كرد فعل ضد سيادة العقل السابقة .

أما الخصائص النموذجية التى يعينها توينبى للطور الأخير فهى : عصر متاعب تعقبه دولة عالمية ، وبروليتاريا داخلية تبحث عن ملاذ فى كنيسة جامعة ، وبروليتاريا خارجية ، ويؤدى اتحاد قوى الأخيرتين ، فى النهاية ، إلى انهيار ملحوظ فى الدولة العالمية والحضارة التى تعتبر جسدها الأخير إذا أثبتت هذه الحضارة أنها عاجزة عن تدبير استجابة كافية على تحدى العصر .

ومن ثم ، فإن من الواضح أنه برغم أن هاتين الصورتين قد عبر عنهما بعبارات مختلفة ورسمتا بأوجه مختلفة فإن هاتين الصورتين الخاصتين بالمرحلة الأخيرة للمجتمع تقدمان بعض المشابهات البارزة : فترة المتاعب الكبرى ،

والحروب الكبرى واسعة النطاق بين وحدات أكبر حيث ينتصر فيها أحد الطرفين فى النهاية ويفرض السلام العالمى والدولة العالمية، ويجىء الديكتاتوريون والدهماء، ويسود فقدان القوة الخلاقة، والإفتقار إلى الأسلوب يتمثل فى العمل الفنى الذى يبعث على البلبلة، ويتضح الملاذ الذى تبحث عنه الجماهير المتعبة فى عالم السلام والدين، وأخيراً يعود المجتمع إلى حالة بدائية مجردة من الحضارة الحية .

ذلك لأن النتائج المشتركة بين الكتاب الرئيسيين الذين نتحدث عنهم تؤيدها حقيقة معينة هى أن كتاباً آخرين وصلوا إلى النتائج ذاتها على أسس مختلفة تماماً، وسنضرب مثلا واحداً :

مع أن الفيلسوف الروسى « برد ييف Berdyaev » لا يوافق أساسا على فكرة دورة الحضارة، إلا أنه يصل إلى نتائج تعتبر مؤيدة تماماً للنتائج السالفة من وجوه كثيرة.. فهو يميز، فى ثقافتنا الغربية، مرحلة همجية، ومرحلة مسيحية اقطاعية، ومرحلة دنيوية بشرية، تعقبها « مرحلة القرون الوسطى الجديدة » . ويقول إن حضارتنا جمعت ، خلال القرون الوسطى، قوى خلاقة، أو « قوى روحية انشطارية » كما يسميها ، عن طريق نظام الرهبنة والفروسية اللتين ركزتا على مملكة السموات ، ونتج عن ذلك أن وضعت النزعات الإنسانية الإنسان فى مركز الكون ، وأطلقت قواه الداخلية الخلاقة المكبوتة من عقالها ، وخلصته من أغلال السيطرة غير العادية.، وصبغت الحياة بالصبغة الدنيوية وأثارت قوة الإبداع الفنى . وبعد أن استنفدت قوتها الخلاقة ، دخلت حضارتنا الآن فى طور « العصور الوسطى الجديدة » متميزة بالرغبة فى « الحياة

الحقيقية الكاملة ، والرخاء والسعادة والاستمتاع بالحياة التى تنحو إلى خنق النظام الكابت الكابح ؛ فهذا أمر ضرورى للنشاط الإبداعى .

إن المؤرخين الآخرين الذين لا يقبلون وجهة النظر القائلة بدورية التاريخ مازالوا يتبينون ، فى مراحل حضارتنا ، الأخرى خصائص كثيرة مشابهة لتلك الخصائص المشروحة فى الصفحات السابقة (للإلمام بملخص دقيق لهذه المشابهات فى الفلسفات المختلفة ، انظر صفحات ٢٩٢ و ٢٩٤ من كتاب Sorokin) .

فإذا كان ثلاثة مؤرخين أو أكثر من جنسيات مختلفة وعلى هذه المعرفة الواسعة بالحقائق ، ويكتبون فى أوقات مختلفة ، معتمدين على فلسفات مختلفة ومستخدمين مناهج مختلفة ؛ إذا كانوا قد وصلوا إلى نتائج شديدة التشابه ، فيجب أن يكون هناك افتراض قوى بصحة هذه النتائج .

ويلق هذا الافتراض تأييداً من حقائق معينة واضحة معترف بها عادة ويستطيع كل شخص مفكر أن يختبرها .

حقائق التاريخ

إننا نتحدث عن الحضارات بلغة الجمع ، ومعنى ذلك أنه كانت هناك أكثر من حضارة فى مجرى التاريخ ، ويعنى ذلك أيضاً أن الحضارات تولد وتموت ، أو على الأقل تظهر وتختفى ، وسواء أكانت تولد من فترة بلا حضارة وتموت تماماً كما يقول دانيلفسكى وشبنجلر ، أو كانت تنسحب بداخل شرنقة الدين لكى تعود فتظهر فى شكل حضارة جديدة كما يقول توينبى ، وسواء بقيت بعض قيمها الدائمة حية أو امتصتها حضارات أخرى

لاحقة كما يدعي البعض ، فإنها مسألة تعبير ونعوت لغوية إلى حد كبير .

وعلاوة على ذلك ، فإن من المؤكد أيضاً أن الحضارة لا تظل « جامدة » من لحظة ظهورها إلى لحظة اختفائها ، فكل حضارة إنما تبلغ في مرحلة (وفي بعض الأحايين في أكثر من مرحلة) ذروة الازدهار ، ومعنى ذلك أن هناك عملية أو أكثر من عمليات النمو تؤدي إلى الازدهار ، وهناك أيضا العمليات التي تؤدي إلى الانحدار الذي يلي الازدهار .

كذلك يبدو أنه من غير المستطاع إنكار أن ثقل النشاط الاقتصادي والحضاري في كل حضارة قد انتقل من المجتمع الريفي البدائي الزراعي إلى المدن ، ومنها انتقل أخيراً إلى المدن الرئيسية . ومن المسلم به أن زمام السلطة انتقل من يد رجال الدين وأصحاب الأملاك (الطبقة الارستقراطية الإقطاعية) إلى الطبقة التي تكدس المال (الطبقة البورجوازية) ومنها إلى الجماهير ثم إما إلى الدهماء أو إلى القياصرة . وسارت إلى جانب هذه العملية عملية تطور أخرى في كثير من الحضارات هدفها إنشاء وحدات سياسية واقتصادية أكبر ، فمن المقاطعات وعواصمها إلى مدن الولايات ، ثم إلى البلدان التي تتحد تدريجياً في ولايات كبيرة ، وتأتي جميعها في نهاية الأمر تحت سيادة سلطة واحدة .

ومن الحقائق أيضاً أنه وإن كان طور المدن الرئيسية والدولة العالمية والقياصرة في الحضارات الأخرى قد استمر فترة طويلة جداً وتعرض لارتفاعات وانخفاضات ، فإنه لم يستمر إلى ما لا نهاية ، ومن ثم يجب اعتباره الفصل الأخير في مأساة حياة الحضارة .

إن جميع الحقائق التي ذكرناها هنا ، والتي عرفت بأسماء مختلفة من

جانب كثير من الكتاب المشهورين ، تقف بقوة ضد الرأى القائل بأنه من المستحيل تمييز اتجاه عام فى حياة الحضارات المختلفة ، وتقف ضد الأحكام القائلة بأن التاريخ يمكن أن يتحول إلى أى اتجاه فى أية لحظة وفى أية مرحلة .

ويبدو أنه لا يمكن إنكار وجود اتجاه عام عريض للتطور المشترك لكل الحضارات ، إلا أن القول بأنها جميعاً مضطرة إلى اتباع طابع واحد غير مرن يعتبر نتيجة صارمة بعيدة المنال جداً مستمدة من المقارنة بالأجسام الفيزيقية ؛ وحتى فى حياة الإنسان والحيوان والنبات توجد آلاف من الإمكانيات المختلفة .

وليس هناك ثم سبب يفسر : لماذا لا تكون الإمكانيات على الأقل منوعة بدرجة كبيرة بالنسبة للمجتمع ، كما هى الحال بالنسبة للفرد . وبالعكس ، يجب أن تكون هذه الإمكانيات أكبر ما دام المجتمع غير مرتبط بقوانين التطور الفيزيقى .

ويبدو أنه ينبغى ، حتى بالنسبة للحضارة ، أن نفترض على أساس الشواهد التاريخية ، أن « ارتداد » الحضارات أمر ممكن إلى درجة محدودة . إلا أنه لا توجد أمثلة لحضارة بلغت طور المـــدن العالمية ثم عادت إلى المجتمع الزراعى البدائى ما لم تمر خلال عملية من عمليات التحلل والفساد بدرجة تجعل الحضارة نفسها تغير طبيعتها تغييراً تاماً ، فإن تطور الحضارات — كما هى الحال فى الحياة بأسرها — يمكن أن يتحرك إلى أعلى أو إلى أسفل ، ولكنه لا يسير إلى الخلف أبداً .

هذا وتلاحظ - بوضوح - إمكانية الاختلافات الواسعة على أساس

نظرية أساسية عريضة ، فى الطورين ذوى الأهمية الخاصة فيما يتعلق بعصرنا ، أى ذلك الطور الذى يتعلق بالتطور الأكبر والطور المتعلق بالاضمحلال التالى ، فدعونا نتأمل حقائق التاريخ مرة أخرى[1] .

لقد بلغت مصر مثلا لأول مرة فى حضارتها ذروة المجد فى عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة، وكان ذلك بين عامى ٢٧٨٠ و ٢٤٢٠ ق.م. وكان ذلك نتيجة لفترة طويلة من الوحدة والسلام الداخلى الذى استمر منذ عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً . وخلال القرون الأربعة التالية شهد وادى النيل ضعفاً فى سلطة الفراعنة تمثل فى المنافسة والأعمال الحربية المحلية، وهجوم الأجناس الأجنبية، والانحدار الملحوظ فى الإنجازات الاقتصادية والثقافية . وحوالى عام ٢٠٠٠ ق . م أعاد أمراء طيبة تشكيل حكومة حسنة الإدارة فى مصر كلها ، وهو ما نطلق عليه المملكة الوسطى التى بقيت حتى عام ١٧٨٨ ق.م وأوجدت حضارة مصرية ثانية، مزدهرة ، تنعكس فى جمال مقابرها ومعابدها ورسومها ونحتها وأدبها . . وبعد ذلك أتاح الاضمحلال الداخلى والسياسى والاقتصادى الفرصة لقبائل الهكسوس الأجنبية لتقيم حكمها على مصر بلا قتال أو حرب. وبهذا بدأ عصر مظلم ثان. ثم نجح المصريون فى طرد الهكسوس واستعادة مجدهم مرة أخرى فى الامبراطورية الجديدة تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة حوالى عام ١٥٠٠ ق . م واستمرت حتى عام ١٢٥٠ ق .م، وترجع المعابد العظيمة كمعابد الأقصر والكرنك ومقبرة توت عنخ آمون إلى الفترة الثالثة من ازدهار الحضارة المصرية . وبعد عصر طويل متجدد من الظلام

---

(١) المعلومات التالية مستقاة ، ضمن المصادر الأخرى ، من كتاب «ارتفاع وسقوط الحضارة» بقلم شبرد ب . كلوف ، طبعة « ماجروهيل » سنة ١٩٥١ .

استطاعت مصر أن تجمع شملها فى فترة الانتعاش التى شهدها القرن السابع قبل الميلاد .

ومن هذا يتبين أن مصر عرفت ، على الأقل ، ثلاث موجات عالية من الحضارة ، أعقبتها فترات جزر . وسارت فترات المد العالى مدة تزيد على ١٥٠٠ سنة ، وإذا أراد المرء أن يحسب فترة الانتعاش السالفة ، كانت هناك أربع فترات مجد تمتد إلى حوالى ٢٠٠٠ عام .

وسلكت الحضارة السومرية الطريق ذاته ، وعرفت فترتى مجد يفصلهما عصر مظلم خضعت فيه للسيطرة الأجنبية ، كانت الأولى من خلق الملك سارجون القادشى فى القرن الخامس والعشرين ق . م ، أما الثانية فكانت فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد بعد طرد الغزاة البرابرة من منطقة القوط « Gutium » واستمرت حتى بداية القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، وتعرض وادى دجلة والفرات بعد ذلك للغزو وحكم الأجناس الأجنبية المنتمية إلى حضارة خارجية .

ومهما يكن من أمر ، فإن إحدى هذه الفترات هى تلك التى شهدتها الامبراطورية البابلية الأولى التى بلغت ذروة الحضارة بقيادة « حامورابى Hammurabi » (حوالى ١٧٥٠ ق . م) ، وقد تميزت تلك الحضارة بانتعاش أدبى عظيم ، وبوضع مجموعة من مواد القوانين ، وانتهت بدورها حوالى عام ١٦٥٠ ق . م نتيجة للغزو الأجنبى وعلى كل حال ، فقد عادت ثانية بعد نحو ١٠٠٠ عام فى سنة ٦٢٥ ق . م ، وأسست الامبراطورية البابلية الثانية التى أوجدت خلال بضع مئات من السنين ،

انتعاشاً فى النشاط الخلاق ، وأعادت تأسيس بابل كمركز للعالم تحت إمرة نبوخذ نصر الثانى .

ومرت أشور Assyria أيضاً بفترتين عظيمتين : إحداهما فى ظل حكم آشورنازير — بال الثانى (٨٨٣ — ٨٥٩ ق . م) والأخرى بعد ذلك بنحو ١٥٠ عاماً فى إمبراطورية آشور الثانية أو الامبراطورية الأشورية الجديدة .

فإذا ما اعتبر المرء ، كما هى العادة دائماً ، آشور وبابل تنتميان إلى حضارة واحدة ، فمعنى ذلك أنه كانت لهـــذه الحضارات أربع فترات ازدهار على الأقل .

أما الحضارة التالية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى يمكن اعتبارها بطريقة أو بأخرى فرعاً للحضارة الكلاسيكية فقد دامت أكثر من ١١٠٠ عام ومرت أيضاً بمراحل الصعود والهبوط خلال تلك الفترة . فبعد بداية رائعة فى عهد « قسطنطين Constantine » الأكبر (٣٠٠م)عانت اضمحلالا فى السلطة والثقافة فى القرن الخامس ، وأعقبه انتعاش فى القرن السادس،وبلغت الأوج فى حكم «جستنيان Justinian» . وفى القرن السابع تعرضت لاضمحلال جديد . ويبدو أنه وجدت فى القرن الثامن والتاسع فترة ازدهار جديدة بفضل الإصلاحات والحكومة الامبراطورية الحقة ، إلى أن حدث الانهيار النهائى فى أواسط القرن الحادى عشر .

وهذه الأمثلة كافية لاستخلاص بعض النتائج الهامة :

وإحدى هذه النتائج هى أنه ليس من الضرورى أن تبلغ الحضارة قمة مجد

واحدة ،فقدتكون لها دورتان أو ثلاث دورات متباعدات من الناحية الزمنية، وبالتالى فإن أحكام شبنجلر التى تقضى بأن جميع مراحل الحضارة ، بما فيها مراحل النضج والاضمحلال ، تخضع لحكم سابق خاص ، وفترة محددة ، لا تتفق مع الوقائع ، لأن مجد مصر امتد أكثر من ٢٠٠٠ عام ، ومجد سومر امتد أكثر من ٥٠٠ عام ، ومجد بابل دام أكثر من ١٥٠٠ عام ، والحضارة البيزنطية عاشت أكثر من ٧٠٠ عام .

وعلاوة على ذلك،فإنه يتضح من تاريخ هذه المجتمعات أن فترات الإنتاج السياسى والاقتصادى والثقافى حدثت عندما كانت هذه المجتمعات مستقلة وموحدة فى ظل حكومة مركزية حسنة التنظيم ، بينما أدت الحروب الداخلية والمنازعات إلى تمرد « البربر » وهم قبائل أجنبية ذات تراث غريب لطخت الحضارة فترة من الوقت ، بل دمرتها تماما .

وكذلك يتضح من الأمثلة المقتبسة — بعكس وجهة نظر توينبى — أنه حتى غزو عصابات البربر للدولة العالمية واحتلالها ، لايشكل بأى وجه من الوجوه نهاية الحضارة التى تحتفظ بها ، نهاية لا راد لها ، فقد عادت تلك الحضارات على نحو مفاجىء ودامت فى بعض الأحايين عدة قرون ، وهذاهو ما حدث لمصر وسومر وبابل وآشور ، إذ شهدت جميعاً امبراطورية ثانية أو امبراطورية جديدة ، كانت فى بعض الأحايين أعظم من سابقتها . ومن المحتمل أن يكون من قبيل الحضارات التى لاحظنا عودتها ، ما حدث لمصر تحت حكم أخناتون ، وما حدث لبابل تحت حكم نبوخذ نصر العظيم .

وذلك يقودنا إلى نتيجة أخرى تتبدى من تاريخ المجتمعات الأولى هى : تأثير القيادات العظيمة على مصير هذه المجتمعات ، وقد يبدو أحياناً أن مثل

هذه القيادات كانت السبب الوحيد لنهضة جديدة لا يمكن تقديرها ، وهذا ، ولا شك إحساس خادع ، لأنه ، حتى القائد العظيم ، لا يستطيع إلا أن يعتمد على القوى الكامنة فعلا فى المجتمع ، وإن كان تأثيرها قد يؤدى إلى نتيجة كبيرة فى التاريخ . وهذا بدوره يتعارض مع الفكرة المثبطة للهمة التى يبديها شبنجلر من أن الإنسان ليس إلا أداة ، لا حول لها ولا قوة، فى يد القدر ، وعليه أن يتقبل المصير الذى فرضه التاريخ عليه .

لكن هذه النتائج لا تبطل الحقيقة الرئيسية التى تبين أنها تظهر من الأبحاث العلمية الكثيرة ، ومن التحليل التجريبى للحقائق المعروفة عموماً ، تلك الحقيقة التى تقول بأن حياة الحضارات تمثل على الأقل اتجاها عاماً عريضاً للتطور برغم آلاف التغيرات التى تعرض لها .

اختبار الاضمحلال : فقدان القدرة الخلاقة

أما وقد وصلنا إلى هذه النتيجة ، فإن أهم سؤال تال تجب الإجابة عليه هو : ما هو الجوهر الحقيقى للاضمحلال ، على أساس النظر للمستقبل ؟ هل هناك اختبار يمكن أن نحدد به وجود هذا الاضمحلال ودرجته ؟ .

يبدو أن مثل هذا الاختبار موجود ، فإن جميع مظاهر الاضمحلال فى المجتمع ، وجميع الأسباب الرئيسية لها جوهر واحد عام ، هو الافتقار إلى قوة الخلق ، فسواء أرجع الإنسان تدهور المجتمع إلى فشل تدبير رد مناسب على التحدى ، أو عزاه إلى فشل الأغلبية المسيطرة فى الاحتفاظ بطاعة الجماهير الاختيارية، أو إلى انعدام الإحساس بالأسلوب ، أو إلى حلول

الغريزة محل العقل ، فإن الخلاصة دائماً هى فقدان القدرة الخلاقة .

وهذا أيضاً جـــذر لجميع أوجه الاضمحلال مثل : استبدال الأفـكار العظيمة والمبادىء بالخصومة الشخصية باعتبارها العوامل المحركة فى الحياة العامة ، وانعدام الأساليب الجديدة العظيمة فى الفن ، وانعدام الفلسفات الجديدة ، باستثناء الكنيسة العالمية — التى لم تعد ، على كل حال ، من الحضارة القديمة ، وفقدان الإحساس بالأسلوب ، وتزايد الصبغة الذهنية فى الحياة الروحية الذى تعقبه حركة بعيدة عن الحكمة والتعقل ، ونقص ديناميكيات المجتمع وقوته إزاء ما يحيط به ، والعقم الفيزيقى ومايستتبعه من نقص تعداد السكان ، ويمكن أن نرجع جميع الاتجاهات إلى اضمحلال القوة الخلاقة من الناحيتين الفيزيقية والروحية ، ونظراً لأنها تنبع من اضمحلال القوة الخلاقة ، فمن الممكن أيضاً قلبها بإحياء القدرة على الخلق والابتكار .

ومن ثم ، فإن اختبار ما إذا كان المجتمع قد بدأ يضمحل أم لا ، يصبح مسألة تحديد مدى قوة ما فيه من قوى خلاقة .

وقبل أن نمضى قدماً فى الطريق الخطر لمحاولة تطبيق الاختبار على الحضارة الغربية ، يبدو أن من الضرورى تقدير المرحلة التى نقف فيها من مراحل التطور العادى للمجتمع .

الجزء الثانى

الطور الحالى للحضارة الغربية

— ٨ —

أين نقف

عندما نحاول أن نحدد مرحلة التطور التى بلغتها الحضارة الغربية ، فإن من السهل ، قبل كل شىء ، أن نبين مراحل قليلة لم تمر بها هذه الحضارة .

فواضح أننا « لسنا » فى الفترة الأولى ، أو الفترة القديمة من المجتمع البدائى الزراعى ، القوى الإيمان ، الخشن الأسلوب ، الذى يوجد به أصل كل حضارة ، وقد عرفت حضارتنا هـذا الطور فى العصور الوسطى ، حيث بدأت الشرارات الأولى للحضارة الغربيـــة تتوهج فى قلاع القرون الوسطى ، وأديرتها ، ووجدت الظواهر الأولى لحضارتنا فى أغانى منشديها ، وأثاثها القوطى المتفرق ، ورسومها الدينية البدائية ، وكاتدرائياتها القوية ، وفى إطار سلوك الفرسان ، وفى قوانينها المسيحية الصارمة ، ونواهيها الخلقية ، وفى حكم شارلمان .

وواضح بالمثل أن حضارتنا لم تمر بفترة النمو التالية لذلك ، والتى تتميز بمولد المدن ونشوئها والازدهار الأول للحياة الثقافية والفنية والتجارية . لقد مر المجتمع الغربى بهذا الطور أثناء عصر النهضة وانتعاش العلم الذى شكّل تصريحاً باستقلال العقل البشرى عن القوى التى خضع لها فى القرون الوسطى ، وازدادت هذه الحركة ازدهاراً عندما بدأت القبضة العالمية للكنيسة والنظام الإقطاعى المسيطر على المجتمع فى التراخى ، وعندما بدأت

المدن تحل محل القلاع والحصون ، ومساكن المدينة مكان الإقطاعى النبيل ورجل الدين ، والصناعة والتجارة محل الزراعة ، وعندما طفحت العلوم والفنون بفيض من الازدهار الفنى .

ومن ثم لا ريب فى أن حضارتنا وجدت نفسها إما فى الفترة التالية للنضج أو فى المرحلة النهائية لقوة واحدة مسيطرة على حضارة كاملة ، قوة السلام العالمى والكنيسة العالمية .

وتوضح المنازعات العسكرية والاقتصادية والسياسية والمذهبية والطبقية والعنصرية الهائلة التى يشهدها قرننا العشرون ، أننا لم نصل بعد إلى الطور الأخير ، وفى الوقت ذاته ، تشكل هذه الحقائق نفسها ، عند قراءة التاريخ ، الأعراض الدالة على أن هذا الطور قريب منا .

وعلى كل حال، فإن الفحص الدقيق لأعراض عصرنا ضرورة ملحة قبل الوثوب إلى النتائج .

ومن العسير جداً على أى معاصر أن يقدر القوى التى تعمل فى عصره تقديراً صحيحاً ، ومن الصعب أن يتجنب ميله الطبيعى للمغالاة فى تقدير اتجاهات الوقت الحاضر ،سواء أكانت بالنسبة لما هو محمود،أو لما هو غير محمود، أو بتقديم صورة مثالية أو مبسطة للماضى . ومن الواضح أن الفترة التى انقضت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قصيرة جداً إذا قيست بمقاييس حياة الحضارة ، ومن ثم فإنها لا تمكننا من استخلاص النتائج منها فحسب ، فإذا رغبنا فى تحديد خصائص عصرنا ،كان علينا أن نقصر دراستنا على فترة مكونة من عدة حقب على الأقل .

إن اختيار نقطة معينة لتحليل طور خاص من أطوار التاريخ أمر تعسفى ، لأن التاريخ تطور مستمر ، لا يمكن تجزئته إلى أقسام منفصلة تماماً ، ومع ذلك فإننا ، لأغراض تتعلق بالمنهج ، نتقبل فى الغالب تواريخ معينة كبداية أو نهاية لطور معين ...

وإذا كان على المرء أن يختار عاماً بذاته كبداية لـ « عصرنا الحديث » ، فلعل هذا العام هو ١٩١٤ ، لأن معظم الخصائص التى سيرد ذكرها الآن إما أن تكون قد نشأت فعلا أو أصبحت شديدة الوضوح بعد هذا العام المشئوم . إلا أن كثيراً منها قد وجد أو كان فى سبيله إلى الوجود قبل ذلك التاريخ ، ونظراً إلى أنه ليس من الضرورى ، فى مجال عرض التطورات الاجتماعية ، أن نختار عاماً معيناً ليكون نقطة بداية ، فإنه يبدو أننا لا بد أن ندخل فى دراستنا على وجه التقريب الجزء المتقدم من القرن العشرين ، وبالأخص الحقب الأربع التى انقضت منذ اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

خصائص عصرنا

التطور ، نمو وحدات أكبر :

منذ القرن السادس عشر تقريباً ، أى منذ أن اتخذ معظم القوميات فى أوربا الشكل الحالى ، إلى بداية القرن العشرين ، ساد المسرح العالمى تقسيم القوى بين أكثر هذه الدول أهمية ، على انفراد : البرتغال ، وأسبانيا ، والسويد ، والأراضى المنخفضة ، وفرنسا ، وانجلترا ، وروسيا ، وألمانيا وأخيراً إيطاليا تحت أسماء متتالية ، وأشكال ونظم مختلفة . ولعبت هذه الدول

أدواراً قيادية جاءت على التعاقب أو فى وقت واحد ، واستطاعت أن تحدد مصيرها على نحو مستقل ، وكانت سيادتها حقيقة فعلية .

إن من أهم الحقائق التى برزت فى القرن العشرين التخلى عن فكرة القومية الصغيرة ، فهناك تحول واضح نحو وحدات أكبر ، وهذا التحول يتخذ شكل إيجاد منظمات عالمية كعصبة الأمم ، والأمم المتحدة ، كما ينحو إلى إنشاء المؤسسات الإقليمية فى العالم العربى ، وأمريكا اللاتينية ، وجنوب شرقى آسيا ، وأوربا الغربية ، ومجموعة حلف الأطلنطى ، فقد اندمج معظمها معا فى تنظيمات سياسية واقتصادية ، وتقوم هذه المجموعات على أساس إقليمى أكثر أهمية من المحالفات السابقة التى كانت مجرد اتحادات مؤقتة لقوميات يمكنها ، بمحض إرادتها ، أن تنهى تحالفها وتستبدل به تحالفاً مغايراً . والاتحادات التى تنمو الآن هى مجموعات وظيفية تقوم روابطها السياسية والدينية والثقافية بضمها معاً فى نسيج محبوك ، لأن دول القرن التاسع عشر ذات السيادة الإقليمية لم تعد تتمشى مع العصر الحالى بعد أن بلغنا المرحلة التى تضاءلت فيها سلطة الدول القومية التى سبق أن ظفرت بالسلطة أمام السلطات القليلة الهائلة التى نشأت على مستوى القارات ، تلك السلطات التى تناضل الآن من أجل سيادة العالم . وليس من شك فى أن القرارات الحاسمة فى العالم اليوم تنبع من مركزين أو ثلاثة مراكز فقط ، وأن بقية العالم لا يستطيع ، عند ما يتصل الأمر باتخاذ قرارات هامة فعلا ، أن يتغاضى عن رغبات هذه المراكز .

وبلغت الظروف الاقتصادية أيضاً مرحلة جعلت القومية العادية فى القرن التاسع عشر من الضآلة بحيث لا يمكنها البقاء ، وأصبح الإنتاج

على نطاق واسع والاستهلاك على نطاق واسع أيضاً - أى على نطاق القارة - هما اللذان يهيئان اليوم إمكانيات البقاء الاقتصادى وتحسين مستوى المعيشة .

عصر الحروب الكبرى والمنازعات :

من سوء الطالع أننا نعيش الآن فى غمار « عصر المتاعب » وفى فترة « الدول المتنازعة » بغض النظر عما إذا كانت هذه الفترة قد بدأت بحروب نابليون كما ادعى شبنجلر ، أو بدأت بالحرب العالمية الأولى . . . لقد شهد القرن الحالى فعلا حربين على درجة من الخطورة والتدمير لم يسبق لهما مثيل ، كما شهد حرباً أخرى فى كوريا على درجة غير ضئيلة من اتساع النطاق ، وحتى إذا أمكن تجنب نشوب حرب عالمية ثالثة كتلك التى كثر الكلام عنها ، فيبدو أن ذلك كاف لدمغ عصرنا بأنه عصر الحروب الكبرى .

وعلاوة على ذلك ، ولد عصرنا حرباً مذهبية كانت لها نظائرها ولاشك من حيث العنف فى العصور المبكرة ، ولكنها لا تشبهها فى ميادينها . وقد شملت هذه الحرب الكرة الأرضية كلها .

وفى الوقت ذاته ، شهد النصف الأول من القرن الحالى نشوء القومية فى آسيا ، مما أدى إلى زوال السيطرة الغربية على آسيا . ويكفى أن ينعم الإنسان النظر فى هذا التغيير الضخم وأن يتذكر ما اقترن به من هياج منذ حدوث تمرد البوكسر Boxer وامتد إلى كل آسيا تقريبا وأجزاء من أفريقيا ، حتى يدرك أن هذا القرن كان قرناً من المصادمات الكبرى فى هاتين القارتين ، ومن ثم يعتبر ذلك كله

مبرراً كافياً لتسمية القرن العشرين « عصر المتاعب » .

التطلع إلى السلام :

فى هذه الظروف ، لاعجب إذن ، أن يتزايد التطلع إلى السلام والمطالبة بقيام « عالم واحد » من جانب الجماهير التى تعانى الأمرين من كل هذه الحروب العسكرية والمذهبية والعنصرية . فإن الشوق إلى السلام لا يزال حياً فى قلوب الناس باعتباره مثلا نبيلا . وقد تطور هذا الحب إلى نداء حماسى من أجل البقاء .

عندما تولى قيصر روسيا ، فى عام ١٨٩٩ ، زمام المبادرة فى النداء لمؤتمر السلام الأول فى لاهاى ، كانت ميزة هذه المحاولة أنها الأولى لنقل هدف السلام الدائم إلى مملكة السياسة العملية ، بعد أن كان ينظر إلى السلام فى ذلك الحين على أنه ليس أكثر من مثال للتقوى تلهج به الألسنة .. أما السؤال الذى يواجهنا فى هذه الأيام فهو : هل نحن مقبلون على حرب أم سلام ؟ . إن هذا السؤال يشغل حياة كل رجل وامرأة فى سائر الأمم ، ولا تستطيع أية حكومة إلا أن تسعى من أجل السلام قبل كل شىء مادامت تسعى للحصول على تأييد شعبها .

عصر الجماهير :

فى القرن التاسع عشر ، وهو عصر التحرر والثورة الصناعية ، كانت السلطة مركزة فى أيدى أفراد الطبقة البورجوازية ، قادة التجارة والصناعة ، ثم انتقلت فى القرن العشرين إلى طبقة أخرى هى الجماهير .

وقد شهد القرن الحالى ، كما وصفه المفكر المعاصر « أورتيجاجاست » « ثورة الجماهير » وتبعا لهـذا الكاتب تشير جميع الدلائل إلى أن « الجماهير قررت أن تكون فى مقدمة الحياة الاجتماعية ، وأن تحتل المراكز وتستخدم الأدوات ، وتستمتع بالملذات التى كانت قاصرة على القلة حتى الآن »

إن عصرنا يسمى ، فى الغالب ، بعصر العامة ، وهو تعبير آخر للشىء نفسه ، بكلمات مغايرة ، لأن خلاصة الجماهير تتكون من عامة الناس الذين يشكلون الأغلبية العظمى لكل أمة أو مدينة أو مجتمع ننتمى إليه جميعا ، ولو أننا قد لا نميل إلى التسليم بذلك .

وقد حدث هذا بفعل عدد من العوامل :

وأول هذه العوامل ازدياد السكان بنسبة هائلة فى كل مكان ، فمنذ القرن السادس حتى عام ١٨٠٠ مثلا لم يزد تعداد سكان أوربا عن ١٩٠ مليون نسمة ، ثم زاد فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٩٠ من ١٨٧ مليون إلى ما يقرب من ٥٨٠ مليون نسمة ، وما زالت زيادات كبيرة تطرأ على بقاع من آسيا ونصف الكرة الغربى ، وليس من شك فى الأرقام التى سنقدمها فيما بعد ، فى هذا الفصل عن نمو بعض المدن العالمية ، ليست هى فى حاجة إلى تفسير . فإذا ما تأمل المرء مدى هذه الزيادة الخيالية وعواقبها ، فلن يكون من المستغرب أن يبدو كل مكان يتراكم الناس فيه فى العالم من معابد دلهى إلى مطاعم نيويورك ، مكتظاً جداً وطبقا لدراسة الأمم المتحدة للظروف الاجتماعية ، لا توجد دولة فى العالم لا تعانى من مشكلة الإسكان .

وبالاضافة إلى زيادة عدد السكان ، فهناك عوامل أخرى أسهمت في نشأة قوة الجماهير ، وهى :

استمرار التوسع فى الثورة الصناعية، مع استمرار نمو الطبقة التى أوجدتها هذه الثورة ، وهى الطبقة العاملة ، وبالتالى نشأة الاتحادات العمالية ، وهى عملية ما زالت فى بدايتها فى آسيا .

وهناك التطور الثورى فى وسائل اتصال الجماهير ، وبالأخص الصحف ، والمجلات الشعبية ، والراديو والتلفزيون ، تلك الوسائل التى جعلت الإنسان العادى على صلة مباشرة بأحداث العالم من جانب ، وجعلت من الممكن التأثير والسيطرة على عدد كبير من الأهالى من جانب آخر ؛ وهو أمر لم يكن ميسوراً من قبل . فقد أصبح من الممكن لأى خطيب فى هذه الأيام فى الولايات المتحدة ، أن يؤثر على ما يقرب من عشرة ملايين شخص بالتليفزيون ، وأضعاف هذا العدد بالراديو . . . وينمو تأثير هذا التطور بقوة كبيرة فى الولايات المتحدة حيث يوجد أكثر من ٥٣ مليون جهاز تليفزيون .

وكان الدليل الخارجى لانتصار الجماهير موضع اختبار بعد التوسع التدريجى فى حق الانتخاب والتصويت العام من جانب معظم الدول الغربية فى القرن العشرين . وأدت مواءمة هذا التغير الثورى، الذى جعل من اكتساب حق التصويت العام الموضوع الرئيسى فى السياسة ، إلى حدوث تغيرات عميقة فى الحياة السياسية لجميع الشعوب الغربية .

ولما كنا نحاول هنا أن نحدد فقط الطور الذى يمر به مجتمعنا ، فلا معنى إذن لمحاولة تقدير مدى الكسب أو الخسارة فى هذه التطورات ، فالمهم هو أن سطوة الجماهير علامة لا يمكن إنكارها فى عصرنا .

عبادة البطل :

غير أن هناك بالفعل دلائل على أن التاريخ يسير ليكمل الدائرة الخالدة التى رسمها «بوليبوس» منذ ألفى عام ؛ وهى الدائرة التى تبدأ فى شكل الملكية (حكم الفرد الواحد) ثم تتطور إلى الأرستقراطية (حكم أفراد قلائل) ومنها إلى الديمقراطية (حكم الشعب) ثم تعود مرة أخرى إلى حكم الفرد الواحد ، ولكن هذا التحول الكبير لم يحدث فى جميع البلدان على كل حال ، غير أن عبادة البطل تمهد له التربة الخصبة فى هذه الأيام ، وإن تفاوتت درجتها فى معظم البلدان .. واتخذت عبادة البطولة هذه نسباً غير متوازية فى أيامنا ، وهى فى بعض الأشكال مشوهة ، لأن عبادة البطل كانت فى الماضى الخطوة الأولى - غالبا - فى تنازل الشعب عن سلطته لمصلحة أحد معبوديه .

ومن سخرية التاريخ أن يحصل الشعب على السلطة بعد نضال طويل ، وبعد كفاح وجهاد فى سبيلها ، ثم يتقدم ليسلمها ، فى الواقع إن لم يكن فى الشكل ، « للرجال الأقوياء » المحبوبين من الجماهير الذين استطاعوا ، لسبب أو آخر ، أن يستأثروا بتأييد العامة . وغالبا ما يختار الناس الرجل الصالح بإحساسهم الغريزى ، ويكون اختيارهم ، لسوء الحظ فى بعض الأحايين ، خاضعاً للمقاييس العاطفية التى لا تتلاءم مع قدرة البطل على الحكم ،

ويكتشفون أخيراً أنهم لم يختاروا الرجل الصالح ، وأنهم لا يستطيعون التخلي عنه بنفس السهولة التي اختاروه بها .

ويكمن أكثر أشكال عبادة البطل خطورة في الحركات الجماعية بالطبع ، وهذا الشكل هو أخطر أنواع عبادة البطل ، لأنه ما أن يثبت الرجل القوي أقدامه في منصبه حتى يتعذر زحزحته منه إلا بثورة . وغالبا ماتكون حرباً عالمية بكل ما يشتمل عليه « هذا العلاج » من أهوال للملايين .

والديمقراطيات ، بدورها ، ليست منزهة بحال من الأحوال من عبادة البطل ، غير أنها تتخذ شكلا غير ضار كتقدير الجماهير للمقاتلين أو لاعبي كرة القدم أو البيسبول أو نجوم السينما ، رغم أنها تأخذ في بعض الأحايين اتجاها أقل براءة حينما تنقلب ، بدافع عاطفي بحت ، إلى حرب الأبطال أو الدهماء الذين لا يملكون شيئا غير ذم الآخرين .

نشأة القادة العظام :

يرتبط ظهور القادة العظام ارتباطاً وثيقاً في عصرنا بالظاهرتين السالفتي الذكر : وهما تفوق الجماهير ، وعبادة البطل ، وتظهر هذه الشخصيات في السياسة ، وحركات العمال ، والمجالات المالية (برغم أن عصرهم الزاخر قد ولّى في هذا الميدان) ، وفي الأعمال والصناعة ، والإدارات الحكومية . وينجح هؤلاء العمالقة ، بفضل صفات معينة هي المهارة وقوة الإرادة والمثابرة وسداد الحكم . . إلخ . وعلى كل حال ، فهم ليسوا علامة فريدة لعصرنا . أما ما أتاح الفرصة لهؤلاء الأفراد لبناء مثل هذه السلطة الشاملة في عصرنا هذا ، فهو عظمة الجهاز التي لم يسبق لها مثيل ، وتشابك المشكلات التي تشتمل

عليها ، وكلاهما يستدعى ، بالضرورة تركيزاً فريداً للسلطة فى أيدى منظمين أكفاء نادرين . وقد أدرك الرجل العادى ، سواء أكان ناخباً أو عضواً فى نقابة أو أميناً لمخزن ، أن الوظيفة التى ينبغى أداؤها تفوق إدراكه وقدرته ، ومن ثم فإنه غالباً ما يشعر بسعادة غامرة حين يتخلى عن الإدارة اليومية لقادته . ومن وجهة النظر الديمقراطية ، فإن لهذا العمل مزايا كبيرة كما أنه مجرد من الأخطار مادامت السلطة «النهائية» ستبقى فعلا فى يد الشعب .

ولكنها تصبح خطراً قاطعاً إذا انتقلت السلطة النهائية إلى أيدى القادة ، وأصبح الشعب مجرد أدوات فى أيدى هؤلاء الأفراد . ويزداد هذا الخطر بدرجة كبيرة فى السياسة، بسبب الاتجاه الديمقراطى الكامن فى الجماهير نحو عبادة البطل. ولهذا فإن من التحديات التى تواجهها الديمقراطية فى عصرنا، القدرة على الموازنة الصحيحة بين إعطاء القادة سلطة كافية فى جميع المجالات تمكنهم من أداء العمل بشكل مرض من جانب ، ومن جانب آخر ألا تمنحهم سلطة كبيرة تفسدهم أو تبطل حق الأقلية فى إبداء الرأى المستقل .

اضمحلال سلطة المال :

عندما تحدثنا عن القادة العظام فى مختلف مجالات الحكومة والأعمال ، ذكرنا استثناء واحداً : هو المال .

فقد أخذت الظروف التى حصل فى ظلها كل من «مورجان» و «ميلون» و«كروجر» على ثرواتهم الخيالية ، تتضاءل منذ عشرات السنين ، وهذا عرض من أعراض تضاؤل الدور الذى يلعبه المال فى المجتمع الغربى ، من أوجه كثيرة . وليس معنى ذلك أن الناس أصبحوا يسعون للحصول على النقود

بشراهة أقل من ذى قبل ، ولا لأنها أصبحت أقل راحة للذين يملكونها ، ولا لأنها قاصرة عن إنجاز أشياء كثيرة ، ومع ذلك فإنه مما لاسبيل لإنكاره أن قوة رأس المال الخاص ودوره أخذا يتضاءلان منذ وقت بعيد .

لقد أصبحت الحركة الدولية لرأس المال الخاص عبر جميع البلدان ، فيما عدا القليل منها ، مستحيلة بالفعل أو خاضعة لقيود حكومية صارمة . وهكذا تلاشى أثر ما كان يشكل العمل المصرفى الدولى منذ خمسين عاماً .

وفى الاقتصاد المحلى أيضاً ، أصبحت عمليات الإقراض الخاص خاضعة لقيود كثير من الحكومات فى جميع الدول الغربية وإن كانت القيود المفروضة عليها أقل من تلك المفروضة على الدور الذى تلعبه دولياً .

وتمشياً مع هذه التطورات ، أخذت الحكومات ذاتها تلعب دوراً أكثر نشاطاً فى العمليات المالية الداخلية والدولية .

كل هذا ، مع اتساع نطاق حق الانتخاب والعلانية المتزايدة التى تلجأ إليها الحكومات فى جميع الدول الديمقراطية ، قلل من قدرة رجال المال على أن يلعبوا الدور الذى اعتادوا أن يلعبوه فى شئون المصارف والمال قبل الحرب العالمية الأولى ، كما أشرف تأثير المصرفيين الكبار على الحكم على التلاشى إلى الصفر وهو الدور الذى طالما بالغ العالم الخارجى فى تقديره .

وعلاوة على ذلك فإن الضرائب التى زادت من عشر مرات إلى عشرين مرة عما كانت عليه فى القرن الماضى ، زادت من صعوبة تكوين رأس المال الخاص عما كانت عليه الحال فى أيام رخاء «روتشيلد» و «مورجان» ، وقلل التضخم من قيمة العملات المحلية ، فى أحسن الظروف ، إلى أقل من نصف

كانت عليه فى بداية القرن ، وفى أسوأ الحالات إلى الصفر أو إلى جزء من واحد فى المائة .

وأخيراً ، أدت ندرة المواد الخام والسلع الاستهلاكية والمساكن فى معظم الدول الغربية إلى فرض قيود على التوزيع الذى خفض ، إلى حد معين ، من قدرة النقود على شراء مواد السلع ، وهكذا شلت حركة قانون العرض والطلب الذى كان يلعب يوماً ما دوراً لا يقف فى سبيله عائق فى معظم الدول الغربية... نقول: شلت حركة هذا القانون بشكل خطير ، وهكذا انتهى عهد كبار المصرفيين الدوليين بمجىء عصر حرية التجارة الدولية .

غير أن التصفيق لهذا التطور أو استهجانه لا يدخل فى نطاق دراستنا الحالية ، وما يعنينا هو أهمية هذا التطور كاتجاه للمجتمع الغربى فى يومنا ، وهو اتجاه يتفق مع أحد الخصائص التى قدمها شبنجلر بشأن طور الحضارة الأخير .

نحو المدن العالمية :

ذكرنا أن نمو عدد قليل من المدن العالمية ، ذلك النمو الذى جعل بقية مدن العالم تبدو إقليمية بالنسبة لها ، دليل آخر من دلائل الطور الأخير للحضارات السابقة . ولقد بدأت هذه العملية فى مجتمعنا خلال القرن التاسع عشر ، وازدادت قوة فى القرن العشرين ، وسنذكر بعض الأمثلة الواضحة على ذلك :

فيما بين عامى ١٨٧٠ و ١٩٥٠ ، زاد تعداد سكان لندن ـ دون الضواحى ـ من ٤ ملايين إلى ٩ ملايين نسمة ، وسكان نيويورك من ١ إلى ٨ ملايين ، وسكان برلين من ٨٠٠ ألف إلى ٤,٥ ملايين ، وسكان موسكو من ٦٠٠ ألف إلى ٦ ملايين ، وسكان جاكرتا من أقل من ٢٦٠ ألفا إلى ٢,٨ مليون . وليس

من شك فى أن المدن الرئيسية تطابق فى الأيام الحالية الصورة التى رسمها شبنجلر لهذا « الغول الهائل » - يقصد المدينة التى امتصت ، بسحرها الذى لا يقاوم ، الملايين التى خرت ساجدة لسحرها الأخاذ . إن كل من وقف على حافة بحيرة متنزه « سنترال بارك » التى تنعكس على صفحة مائها ملايين الأضواء المنبعثة من ناطحات السحاب فى نيويورك،أو تطلع إلى باريس من فوق درج الساكركير ، ورأى كيف أنها تنافس بجمالها نجوم السينما ، لا يملك إلا أن يستخلص أن ذلك تجسيد لنبوءة شبنجلر .

فهاهى بابل ونينوى وروما القديمة قد بعثت من جديد .

وينطبق الشىء ذاته على السكان : فإنهم يقيمون فى عمارات نخمة ، وبذلك فقد سكان المدن الرئيسية الحديثة كل ارتباط وإحساس بالتربة أو ما يتصل بها . . . لقد كان البيت بمثابة قلعة الإنسان ،بناه وشيده للإقامة فيه ، ولكنه أصبح فى هذه المدن مجرد مكان للنوم والأكل (فمن العسير أن نقول إنهم يستخدمونه للحياة فيه) . إنه واحد من ملايين - ذات مساحات متقاربة فى كثير أو قليل ، وتتراوح فى الحجم والشخصية الذاتية - يتحرك فيه الناس إلى أن يحين وقت تغييره بآخر أكثر راحة ، لأنه يهىء دواليب أكثر أو يوجد به حمام إضافى أو ثلاجة .

وهكذا بعث طابع هجرة المثقفين من جديد .

تدهور معدل المواليد :

إن تدهور معدل المواليد عنصر يشترك فيه عصرنا الحاضر مع الحضارات السابقة ، وطبقاً لدائرة المعارف البريطانية فإن معدل المواليد

أخذ فى التدهور السريع منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى جميع الدول الهامة بالعالم ، إلا أنه ليس فى الإمكان أن نتحقق مما إذا كان ذلك ينطبق على دول مثل روسيا والصين حيث لا يمكن الحصول منها على إحصائيات يمكن التحقق من صحتها أم لا . ولكن مهما يكن من أمر ، فإن الاتجاه بالنسبة لمعظم الدول الغربية توضحه الحقائق والأرقام . فقد إنخفض معدل المواليد فى انجلترا وويلز من ٣٥ فى الألف تقريباً (فى الفترة فيما بين ١٨٥٠ و ١٨٨٠) إلى ١٥ فى الألف تقريباً (فى الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٠) وكان الانخفاض فى ألمانيا من ٣٥ إلى ١٧ — ١٨ فى الألف ، وفى فرنسا من ٢٦ إلى ١٥ ، وفى الولايات المتحدة من ٢٥,١ (عام ١٩٢٥) إلى ما يقرب من ١٧ (فى أعوام ما قبل الحرب العالمية الثانية) .

وأبدت جميع هذه الدول ارتداداً ملحوظاً بعد الحرب مباشرة ، فى عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ مثلا ، غير أنه كان من الواضح أنها ظاهرة موقوتة تشبه تلك الظاهرة التى برزت بعد الحرب العالمية الأولى . ومن الطريف أن نذكر أن ما حدث عقب تلك الحرب كان عكس ذلك تماماً ، فقد سجل معدل المواليد فى كثير من الدول الغربية ، فى الوقت الحاضر ، مستوى أعلى مما كان عليه قبل الحرب ، ففى أعوام ١٩٤٨ و ١٩٤٩ و ١٩٥٠ كان معدل المواليد فى انجلترا وويلز حوالى ١٧ (مقابل ١٥ فى الألف قبل الحرب) ، وفى فرنسا ١٢ — ٢١ (مقابل ١٥ فى الألف قبل الحرب) ، وفى الولايات المتحدة حوالى ٢٤ (مقابل ١٧ فى الألف قبل الحرب) ، وما زال من السابق لأوانه أن نحكم عما إذا كان هذا اتجاهاً مستمراً يعكس نهضة صحية فيزيقية فى الإيمان الخلقى فى العالم الغربى أم لا .

العودة من المذهب العقلى :

وفى المجال الفكرى أيضاً ، تطورت حضارتنا طبقا لطابع معين :

فقد ولدت حضارتنا فى العصور الوسطى فى وسط فنى ونظام سياسى واقتصادى خاضع لسيطرة الكنيسة ، ففى بداية القرن السادس عشر بدأ العقل البشرى يتحرر من نفوذ الكنيسة ، ونفوذ النظام الإقطاعى ، ودخل إلى عصر المشروعات الكبرى والابتكار ، فولد ذلك عصر الإصلاح ، والنهضة ،وانتعاش المعرفة والاتجاهات الإنسانية ، ومكتشفى العالم ، غير أن مشروعية الدين المسيحى لم تواجه تحديات .

ولما زاد استقلال الروح الإنسانية وشجاعتها استطاعت أن تغير اتجاه القرن الثامن عشر ، وعندئذ بدأ الإيمان المسيحى نفسه يتعرض لأول مرة للهجوم العلنى المكشوف . . فى المراحل المبكرة أثارت هذه العقيدة منازعات عنيفة وحروبا دموية ، ولكنها كانت اختلافات حول الكنيسة والمذهب ، والعقيدة والمبدأ الجامد ، وأصبحت الآن تنكر تعاليم المسيح ، بل تنكر وجود الله عز وجل ، وقد بذرت بذور تلك الحركة فى أذهان الناس خلال القرن الثامن عشر بمعرفة كتاب أمثال : فولتير ، ومؤلفى دوائر المعارف وغيرهم من الفلاسفة ، ونضج محصولها الأول فى الثورة الفرنسية وأثمرت ثمارها الكاملة خلال القرن التاسع عشر ، وهكذا جاء عصر العقل ويتفق ذلك مع التطور الثالث المعتاد للحضارة ، وهو الطور الذى تتم فيه عملية صبغ الشئون الروحية بصبغة دنيوية وتكمل فيه الحياة الفنية والعلمية .

غير أنه حتى فى هذه الفترة تثور الشكوك الأولى : ففى النصف الأول

من القرن العشرين ، كان الإيمان ضئيلا بنعم المعرفة غير المحدودة باعتبارها دواء لكل أمراض العالم . وفى ذلك الوقت كانت الحضارة الغربية قد مرت بهذه التجربة زهاء ٤٠٠ عام وتعلمت الدرس ذاته الذى يتعلمه الإنسان عادة فيما يقرب من أربعة عقود من حياته : ولّد التحرر من سيطرة القوى الخارجية فى بداية الأمر نهضة مثمرة ذات قوة خلاقة روحية وفنية تعتمد على الحس ، واستبدلت هذه القوة تدريجيا بتطور أكثر قوة للعقل الذى أوجد المعرفة والعلم والفن ، واكتشف فى النهاية فقط أن هذا كله لا يجلب السعادة فى حد ذاته ، وأن المخ قليل الفائدة بدون الخلق ، وأن الأعمال التى تمخضت عنها معرفة الإنسان المذهلة لم تحقق اليوتوبيا المنتظرة ، بل إنها — على النقيض — أثارت مشاكل أكثر ، ونزعات أكبر ، ومتاعب أكبر ، وأوجدت الثورة الصناعية مشكلة العمل والصراع الطبقى ، وزاد العلم وهو مبرأ من القيود الأخلاقية ، من إشراف الإنسان على قوى الطبيعة بطريقة لا يمكن تصورها ، وزاد من قيمة راحة الإنسان ورخائه وصحته وطمأنينته . غير أنه أوجد فى الوقت ذاته قوى تدمير رهيبة إلى درجة أن قنبلة واحدة تكفى لقتل ٧٨,٠٠٠ شخص ، بل إن أسلحة المستقبل قد تستطيع أن تقضى على الحياة المتحضرة ذاتها .

فهل ثم عجب أن يجد الناس أنفسهم فى القرن العشرين غير راضين عن سير الأمور التى أوجدتها سيطرة العقل ، أو عن التأكيد بأنه — أى العقل — لا يستطيع أن يقدم الحل لمتاعب عصرنا ؟ إن عصر العقـــل فى سبيله إلى الذبول .

وارتد الناس ، فى بحثهم عن ملاذ فى قيم أخرى ، من الأمور العقلية

إلى الأمور غير العقلية . ويمكن تتبع هذا التحول عن العقل فى الدين والفن والعلوم والسياسة ، ومجمل القول ، أن الناس يبحثون عن الحل فى أحد اتجاهين : إتجاه إلى أعلى يتمثل فى البحث عن قيم أعلى من العقل . . واتجاه إلى أسفل ، يتمثل فى البحث عن قيم أقرب إلى الأرض من العقل .

فعندما يتطلع الناس إلى أعلى ، فإنهم يبحثون عن الخلاص فى الحلول الدينية أو الفلسفية أو الميتافيزيقية أوالأسطورية . وهناك انتعاش ملحوظ فى الاهتمام بالدين والاحتياجات الدينية فى عدد من الدول ، فنسبة المشتركين فى الكنيسة بالولايات المتحدة فى تزايد مستمر ، وفى الوقت ذاته فإن نجاح الحركات غير الطائفية فى كثير من الدول الغربية مثل « فريق أكسفورد » أو « حركة إعادة التسلح الخلق » يمثل خيبة الأمل فى الاتجاهات الذهنية والجوع الروحى الذى يعانى منه عصرنا .

وثم تطور هام فى مجال اللاهوت فى عصرنا يتمثل فى نجاح الأرثوذكسية الجديدة التى تقول بأن مشاكل الإنسان الأساسية حول وجوده يمكن أن تحل بالإيمان لا بالعقل ، وقد أسس هذه الحركة فى أوربا « كارل بارث » (Karl Barth) ، و « أميل برونر » (Emil Bruner) وأحدثت فى منتصف القرن الحالى تأثيراً قويا فى بريطانيا والولايات المتحدة على يد الدكتور (رينهولد نايبوهر Dr. Reinhold Niebuhr) ، ويبدو أنها لا تزال تحرز قوة (انظر كتاب العالم فى منتصف القرن ص ١٨٢ و ١٨٤ بقلم Edwin Ganham) .

ومن الممكن أن نجد المظاهر الأخرى لهذا التحول عن الاتجاهات العقلية فى كثير من المذاهب الجديدة التى تتنافس فى الاستئثار بتجنيد

الجماهير ، تلك المذاهب التى تشبه « كوكتيلا » من مخاليط مختلفة من المشاعر العاطفية المختلفة والدين وشبه الفلسفة .

ومن ثم لن يدهشنا إذا وجدت هذه النزعة اللاعقلية فى المستقبل معبودها فى « متدين ثان » وكنيسة جامعة ، فإن الحركة الجامعة بدأت تنمو فى الكنيسة البروتستانتية منذ حقب كثيرة ، وانقشع العداء الذى كان مستحكما فى أحد الأيام بين الكاثوليك والبروتستانت ليحل محله التعاون لمواجهة التحدى الناشىء من المذاهب الإلحادية التى تسعى إلى الحلول محل الكنيسة فى تلبية احتياجات الإنسان الروحية ، فليس من المدهش إذن أن يتنبأ توينباى فى أحد أحاديثه بأدنبرة ، بأن حركة القرن التاسع عشر فى العالم الغربى ، التى استبدلت الدين بالتكنولوجيا كمركز للاهتمام ، سوف تنقلب فى القرن الواحد والعشرين إلى حركة مضادة يعود فيها الجنس البشرى من التكنولوجيا إلى الدين .

ووجدت حركة البعد عن التعقل والواقعية طريقها إلى الفن فى أساليب مختلفة قفزت إلى المقدمة منذ الحرب العالمية الأولى ، منها التكعيبية والمستقبلية ، والرمزية ، والقيصرية ، وإن تكن السيريالية هى أكثر النماذج تعبيراً فى هذا الصدد .

ويلاحظ الاتجاه ذاته فى العلم ، « فالعلوم الفيزيقية » التى تحدت الدين فى أحد الأيام ، تميل الآن إلى تأييد الميتافيزيقا بدلا من تأييد التفسير المادى للكون والإنسان (المرجع نفسه ص ١٧٨) . وبالمثل فى الطب ، فإن مدرسة « الطب النفسى » ذات التأثير القوى تعلن أن حوالى ثلثى جميع أمراض

البشر نتيجة للصراع العاطفى ، ومن ثم فهى ليست أمراضاً جسمانية وإنما هى أمراض عقلية وروحية يجب أن تعالج على هذا الأساس .

وحتى فى السياسة أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن المجتمع لا يمكن أن يحكم بالعقل الخالص ، ويمكن أن يلاحظ التجسيم الدينى لهذا الاتجاه فى الديمقراطيين المسيحيين ، وهم أحزاب الوسط بين الأحزاب التى تولت الحكم فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ودول أوربية أخرى بعد الحرب العالمية الثانية .

ويذهب الاتجاه الآخر الذى ينطلق إلى أسفل ، والذى يأخذ به خصوم السخط العقلى فى عصرنا ، إلى إنكار كل قوى تعلو عن الإنسان ، ويعود لعبادة القيم الأرضية البحتة ، وقد يأخذ عندهم شكل عبادة البطل ، وتأليه الدكتاتوريين الذى تكلمنا عنه من قبل ، ويمكن أن نميزه أيضاً فى التعصب السياسى وعبادة الدولة التى اكتسحت العالم الغربى منذ الحرب العالمية الأولى ولم تختف بعد . ومن الجائز أن يتبلور هذا الاتجاه فى فلسفة مادية كالمادية التاريخية أو فلسفة الوجودية ، أو قد يستخدم ببساطة الفلسفة الأخيرة فى أرخص أشكالها المادية وهى السعى وراء النجاح والقوة وإرضاء الحواس .

قواعد أخلاقية منحلة :

جلب التطور الروحى الذى مرت خلاله الحضارة الغربية فى بحر وجودها تطوراً مماثلا فى قواعد المجتمع الأخلاقية .

وكانت المقاييس الأخلاقية ، طيلة سيادة الدين على الحياة الروحية والاجتماعية جزءاً منها ، وبذلك خالفت وصايا الإنسان السامى المطلقة

غير القابلة للنزاع والجدل ، بيد أنه عند ما أخذ العمل البشرى يتحرر ، وأصبحت الحياة الروحية والاجتماعية ذات صبغة دنيوية ، فقدت المقاييس الخلقية ، بالضرورة ، شخصيتها المطلقة المتسامية ، واتخذت طبيعة القواعد التى وضعها الناس لخير المجتمع ، وهكذا حلت المنفعة والحكم العقلى محل الإرادة الإلهية كأصل لهذه القواعد ، وأصبحت الأوامر الإلهية ذات الطبيعة المطلقة ، موضعاً للتعليل والتأمل البشرى ، وبالتالى محل جدل ، وبعد ذلك خضعت للحكم الشخصى حتى أصبحت موضع بحث فى نهاية الأمر.

وقد ساعد على ذلك مؤثران قويان منذ منتصف القرن الأخير ، هما : المادية التاريخية بإعلانها أن العوامل الاقتصادية هى أصل جميع التطورات فى المجتمع ، وبذلك قللت من شأن المعايير الأخلاقية ، فحتمت عليها أن تكون مجرد وظيفة للعوامل الاقتصادية .

وبالمثل فى علم النفس عند فرويد ، فهو يرى أن للدوافع الجنسية أسبقية على جميع الدوافع الأخرى ، وبذلك قلل من قيمة المعايير الأخلاقية فجعلها مجرد وظيفة للعوامل الجنسية .

وعلى رأس هذه الحركات فى مجال الفكر ، وهى الحركات التى كانت قد عاشت لأمد طويل عند اندلاع نار الحرب العالمية الأولى ، يجىء الاضطراب الفيزيقى الذى سببته الحرب العالمية ، والذى تمثل فى انحلال المعايير الاجتماعية للسلوك والروابط العائلية التى نشهدها منذ ذلك الحين .

حدث كل هذا فى مجتمع أرخيت فيه قيود تقاليد العصور الأولى ، واستبدلت بها روابط واهية من المنفعة والحكم الشخصى .أما موقف الفرد

تجاه المجتمع ، ذلك الموقف الذى وجد له تعبيراً فى أحد الأوقات ، فى مجموعة صارمة من الواجبات الملزمة ، فقد أصبح أكثر فأكثر مجموعة من الحقوق والمزاعم والمطالب ، وانتقل من الوصايا العشر إلى إعلان حقوق الإنسان. وليس هذا التغيير فى التأكيد من الواجبات إلى الحقوق عرضياً ، وإنما هو نتيجة طبيعية لعقلية دعاة الاستمتاع وأخذ ما يمكن أخذه من الحياة ، هذه العقلية الطاغية فى هذه الأيام .

الافتقار إلى الإحساس بالأسلوب :

من علامات التعرف على الحضارة الحية ، أن كل فترة من فتراتها تجلب أسلوباً خاصاً بها يمثلها ويتخلل كل تعبيراتها الجمالية ، وقد عرفت الحضارة الغربية سلسلة من هذه الأساليب كالرومانسية والقوطية والنهضة والباروك والروكوكو .. وقد بيَّن « هوزنجا Huizinga » أن القرن الثامن عشر يعتبر ـ حتى الآن ـ آخر قرن أنتج أسلوباً خاصاً متجانساً منسقاً، أما القرن التاسع عشر فلم يكن له أسلوب خاص ، وكل ماحدث به كان فترة وجيزة من التألق، وعلاماته المميزة هى انعدام الأسلوب ، وخلط الأساليب ، وتقليد الأساليب.

وغالباً ما تسهل ملاحظة عدم وجود أسلوب أو « الإحساس بالبلبلة » كما يطلق عليه توينبي ، فى ذلك الشكل من الفن المرتبط بالحياة اليومية ارتباطاً وثيقاً ، ومن ثم فهو يعبر عن فترات عظيمة ونعنى به : الفن المعمارى .

وقد أظهرت باريس ، ولعلها أكثر المدن التى عرفها التاريخ جمالا ، الدلائل على تقليد أساليب سابقة ، وذلك فى كنيستين من أكثر كنائسها شهرة أنشئتا فى القرن التاسع عشر ، شيدت إحداهما على شكل معبد رومانى

والأخرى على الطراز الرومانسى البيزنطى . وهناك أيضاً مجموعة ممتازة من الأساليب — لا تعكس جمالها الخاص ولا قيمتها القومية — فى مدينة واشنجتون ، وهى إحدى عواصم حضارة العالم الكبرى ، حيث يستطيع الإنسان ، فى جولة قصيرة ، أن يمر بسلسلة من الأبنية العامة والنصب التذكارية المصممة على شكل المعابد اليونانية ، والمسلة المصرية ، والمتحف الكلاسيكى الجديد . أما دواوين الحكومة فليست على طراز واحد . وهناك أيضا فندق على الطراز القوطى . وأخيراً ذلك الشىء الذى يبدو أنه نتيجة لتقليد تصميم هرم مصرى فى العصور المتأخرة ، ومعبد يونانى .

وعلينا أن نضيف بلا إبطاء، أن معظم هذه المبانى وما يماثلها، يمثل انعدام الأسلوب منذ القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين ، وأن الفن المعمارى ، كما سيلاحظ فى الفصل العاشر ، هو الفن الوحيد الذى شاهد فيه قرننا العشرون أسلوباً جديداً قوياً .

وهناك مظاهر أخرى من الفن العصرى ، وإن لم تكن جميع المظاهر — تبين الخصائص التى بيّنها «سوروكين» فى الوصف التالى للتطور المتوسط للنضج الزائد ، ويبدو أن هذا الوصف مناسب وفريد جداً :

« إننا نجد فناً حاذقاً يستطيع أن يعيد إنتاج أى شىء ، ولكن نظراً لتجرده من الروح القوية الخاصة ، فإنه يمزج جميع أنواع الأساليب على نحو غير مناسب ، ويقلد ، بطريقة لاشعورية ، الأسلوب

« البدائى » ، ولهذا فإن «الإحساس» أو المادية الحسية ، لا المثالية ، هو السائد الآن . وقد هوى الفن إلى الحضيض . إنه يقلد الحسية والحقيقة التجريبية ، ويميل ميلا غريباً إلى إنتاج ظواهر الحياة السلبية ، والمشجية ، والحماسية ، والركيكة ، والبهيجة ، والقبيحة. لقد اندثرت الرزانة الهادئة ، وأصبحت لدينا ، بدلا منها ، أشكال مشوهة ، ومعاناة ، وقبح . . .وأضحت المرأة التى لم تكن تظهر إلا لماماً فى الفن الكلاسيكى، موضوعاً مفضلا فى هذه المرحلة ، إنها توصف الآن ، بشكل واقعى ، وفى اصطلاحات شهوانية وحسية وجنسية ومغرية و«جمالية» ، وظهرت روح الحسية الخالصة التى توافرت فى الأبيقوريين»

ولا تنطبق الصفة الأخيرة بمعناها الصارم على الفن فحسب ، بل تنطبق أيضاً على نواحى الحياة الأكثر زخرفاً التى تشملها أسباب الترفيه العام والفن التجارى ، ونحن لا نجادل فى أن الجنس يلعب دوراً فى الحياة العصرية أعظم منه فى أى وقت مضى منذ خلق آدم وحواء ، ولا نريد أيضاً أن نناقش ما إذا كان من الأفضل أو الأسوأ التخلى عن النفاق الذى استخدم فى الماضى لستر هذا الموضوع ، لكن مهما يكن من الأمر ، فإن المهم فعلا بالنسبة لعصرنا ، أن مظاهر الجنس المغرية المثيرة — وهى دليل

الفترة « الحسية » لكل حضارة — أصبحت فى الوقت الحاضر تناقش وتشرح علنا على نحو يفوق ما كان يحدث فى أى عصر من العصور السابقة وتكفى نظرة على أية مجلة أو إعلانات للسينما فى أية مدينة كبيرة ، لتأكيد هذا القول .

انكماش رقعة الحضارة الغربية :

عند نهاية القرن التاسع عشر ، كانت حضارتنا قد بلغت أقصى درجات التوسع الإقليمى ، وكانت قد اكتشفت الأماكن العذراء على الكرة الأرضية والقطب الشمالى والجنوبى ، وهكذا كان العلم كله معرضاً لنفوذ الاقتصاد والفن والثقافة الغربية ، ولم يكن العالم الغربى بالمعنى المحدود لهذه الكلمة ، هو وحده الخاضع لسيطرة الحضارة الغربية ، بل كانت تشاركه فى ذلك روسيا وآسيا وأفريقيا بشكل أو آخر سواء عن طريق الحكم السياسى أو السيطرة الاقتصادية أو التأثير التجارى أو الفنى أو العادات الاجتماعية أو الملابس أو الدين ، وهى غالباً ما كانت تشكل غشاء رقيقاً زائفاً فوق سطح المجتمع ما لبث أن سقط فى كثير من المناطق ، إلا أنه كان يعتبر فى وقته غير متناه فى السمو حتى فى المجتمعات غير الغربية ، وفى هذا الامتداد لحدود العالم المعاصر ، حققت الحضارة الغربية مقياساً آخر من مقاييس دانيلفسكى وتوينبى عن نضج الحضارة .

ومنذ ذلك الحين أخذت رقعة السيطرة الأجنبية فى الانكماش بسرعة

لم تدع للغرب فرصة أو وقتاً لإدراك ذلك ،ويعيش الآن فى روسيا والصين ما يقرب من ٨٠٠ مليون نسمة تحت ظل النظام الشيوعى ، بعيدين عن جميع القيم التى تؤيدها الحضارة الغربية ، وعما قريب سوف يجهل هذا الثلث من سكان العالم ، حتى ولو من ناحية الذكرى، ما معنى حرية الإنسان، والديمقراطية ،وحرية الكلام ، وحرية الصحافة ، وحرية الفكر والدين، وسيعرفون فقط الصور الكاريكاتورية المشوهة لهذه الكلمات التى دمغها جهاز الدعاية الكفء بطابع كريه فى أذهانهم .

وفى بقية آسيا استطاع عدد مساو تقريباً من الدول أن يضع نهاية للحكم الغربى ، ويحصل على استقلاله ، ومن الجائز أن تدفعهم كراهيتهم للسيطرة السياسية التى استطاعوا التخلص منها إلى أن يرفضوا قيما اعتبروها خطأ مرتبطة بالسيطرة الغربية ارتباطاً لا ينفصم .

ومن سبق الحوادث أن نستنتج أن نفوذ الحضارة الغربية تضاءل بنفس نسبة الانكماش الإقليمى ، لأن ما فقدته من ناحية سيطرة الدول الاستعمارية القديمة ، استعادته جزئياً نتيجة لزيادة النفوذ الأمريكى منذ الحرب العالمية الثانية ، ومن الجائز أن يظل الوضع كذلك إذا ثبت نجاح الأشكال الجديدة للتعاون الاقتصادى بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، ذلك لأن المظاهر الاقتصادية للحضارة الغربية التى اكتشفت حديثاً أثبتت وجود دلائل جديدة فى جميع هذه المناطق ، وواقع الأمر ،كما سنبين فى الفصل التالى ، أن أحد الاختبارات الكبرى أمام الحضارة الغربية هو مدى قدرتها على مواجهة « تحدى » حركة معاداة القومية الغربية .

الخلاصـة :

يتضح من الجزء الأول من هذه الدراسة أن جميع التطورات التى وردت فى هذا الفصل حدثت أيضاً فى حضارات أخرى . إنها تبين أن الطور الثالث ، وهو طور النضج ، بلغ نهايته ، وتبين من ناحية أخرى أن حضارتنا الغربية لم تدخل بعد فى الطور الأخير ، أى طور الدولة العالمية الشاملة ، والكنيسة الجامعة .

وفى الوقت ذاته ، تتمثل أزمة حضارتنا فى عدد من « التحديات » التى تشير إلى النتيجة نفسها ، غير أنها تستحق فحصاً دقيقاً خاصاً فى الفصل التالى ، نظراً لأهميتها الحيوية بالنسبة لاستمرار بقاء حضارتنا .

ومن ثم فإن من المحتمل جداً أن تكون الحضارة الغربية فى طور الانتقال من فترة النضج إلى فترة حضارة السلام العريض ، وبمعنى آخر فى الطور الذى يعتبره دانيلفسكى « حالة متناقضات ومنازعات ما قبل الحضارة » ، وهو ما يطلق عليه شبنجلر « الجزء الأول من الفترة الرابعة — حقبة القياصرة » ، وما يطلق عليه توينبى « عصر المتاعب » .

ومع أن الدلائل التى ذكرت تفترض اقترابها من مرحلتها النهائية ، إلا أنه ليس هناك سبب يؤيد قرب نهاية حضارتنا ، ولقد كانت تلك هى النتيجة التى استخلصها عقل شبنجلر العسكرى الذى يرى أنه : حيثما لا يكون هناك قتال ، لا تكون هناك حضارة . وإنما يتوقف استمرار الحضارة وقيمتها علينا نحن ، فإذا اعتبرنا ـ مثلما فعل «هوزنجا» ، أن القرن الأول قبل المسيح هو قمة مجد الحضارة الرومانية ، فمعنى هذا أننا لم نصل بعد إلى الوقت المماثل الذى يعتبر أعظم عصر لحضارتنا .

إن استمرار ذلك الطور الأخير لا يمكن تحديده ، فقد يستمر ٤٠٠ أو ٥٠٠ عام مثلما حدث لروما ، وقد يستمر ألفي عام مثلما حدث في مصر ، وقد يشكل عصراً من التحلل والفساد مثلما حدث في القرون الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية ، كما قد يشكل عصراً يلمع كأنموذج للنجاح ، وحسن الإدارة ، وعظمة الفن والعلم ، كما كانت الحال في عصر أوغسطس وفي الإسكندرية وبيزنطة .

والواقع أنه ليست هناك حضارة تستطيع أن تسير إلى الخلف ، وإن كانت تتمتع بحرية اختيار التحرك إلى أعلى أو إلى أسفل . ونحن لم نعرف أية حضارة تراجعت إلى العصور الأولى ، وإن نكن قد عرفنا حضارات كثيرة ارتفعت بإرادة شعوبها وحكامها ، أو سقطت نتيجة لانعدام هذه الإرادة .

والأمر كله متوقف علينا نحن .

— ٩ —

الأخطار الرئيسية الثلاثة التي تواجه الحضارة الأوربية

أشرنا فى الفصل السابق إلى عدد من خصائص عصرنا التى تبين أن المجتمع الغربى فى حالة انتقال ، ويتضمن بعض هذه الخصائص نقائص وضعفاً يمكن أن تكون خطراً على حضارتنا ، إلا أن ما يجعل موقفها حرجاً هو أن الحضارة بالإضافة إلى هذه الخصائص ، تواجه عدداً من العقبات الرئيسية ، تكفى كل عقبة منها — إذا لم نتغلب عليها — للقضاء عليها . وبهذا المعنى ، لن تكون هناك أية مبالغة إذا أطلقنا على الحالة الراهنة للعالم الغربى ذلك الاصطلاح الذى يساء استعماله بكثرة ، وهو « عصر الأزمة » أى الطور الحاسم الذى تكون نتيجته إما بقاء الحضارة أو اندثارها .

وهناك ثلاثة أخطار رئيسية تهدد الحضارة الغربية ، وهى ، كالخصائص التى ناقشناها فى الفصل السابق ، تتلاءم مع سابقتها ومع نمط معين ، وتميل إلى تدعيم النتيجة السابقة التى تجزم بأن حضارتنا تقترب من طور السلام الحضارى العريض .

ويجىء الخطر الأول من ضعف داخلى مشابه للخطر الذى تعرضت له الحضارة اليونانية فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ونعنى به تمزق وحدة أوربا .

أما الخطر الثانى فيكمن فى أن تتحول الشعوب خارج أوربا ضد الحضارة الغربية بعد أن تحررت من سيطرتها : إنه الاتجاه ضد الغرب .

متمثلا فى القومية الناهضة للشعوب التى لم تكن مستقلة فيما سلف .

ويجىء الخطر الثالث من قوة نشأت بداخل مجتمعنا ، ومن ثم يمكن أن تعرف باسم « بروليتاريا داخلية ، وتعمل فى الوقت الحاضر بداخل العالم مثلما تعمل خارجه .. وهذا الخطر هو الشيوعية .

الشيوعية وعداؤها للقومية الغربية :

نشأت الشيوعية كما نشأ العداء للقومية الغربية فى المناطق غير المستقلة سابقاً فى شكل ثورة ضدما كانت تعتبره سيطرة غربية على العالم ، كما قامت تحدياً لزعامة الغرب، وتعتبر الشيوعية، فى الوقت الحاضر، أشد التهديدين خطراً، لأنها تهدف إلى اقتلاع النظامين السياسى والاقتصادى للحضارة الغربية من أساسهما ، وإنشاء معبود من النظام السياسى والاقتصادى الخاص بها فى مكانها ، وبرغم أن معاداة القومية الغربية أحدثت أثرها المبكر فى مناطق شاسعة ، إلا أنها أقل خطراً فى تهديد الحضارة الغربية ، لأنها وجهت نشاطها حتى الآن ، إلى هدف محدد هو القضاء على السيطرة الغربية التى ما زالت حتى الوقت الحاضر — ما دامت لم تقع بعد تحت السيطرة الشيوعية — محافظة على كثير من خصائص المجتمع الغربى السياسية والاقتصادية . وليس من شك فى أن مجتمعات آسيا والمجتمعات غير الغربية الأخرى ، غالبا ما كانت لها خصائص قوية خاصة بها ، قد تكون أحيانا أسمى صفة وبالأخص فى المجالين الثقافى والروحى ، ولكنها لم تقدم حتى الآن أى نظام منافس يمكن أن يدّعى منافسة النظامين الديمقراطى والشيوعى .

وما دام الأمر كذلك ، فسيظل الصراع مشتعل الأوار بين هذين النظامين .

ومن الممكن اعتبار الشيوعية « بروليتاريا خارجية » بالمعنى الذى يقصده «توينبى» . ويبدو أنه من المؤسف ما عمد إليه «توينبى» من استخدام كلمة « بروليتاريا » للتدليل على هذه القوى الثورية ، فإن هذه الكلمة تشير عادة إلى شيء أدنى مرتبة، بينما الواقع أن هذه القوى هى قوى ثورية مناهضة، ليس من الضرورى أن تكون أدنى مرتبة أو « بروليتاريا » . ومهما يكن من الأمر ، فحيثما استعملت هذه الكلمة فى هذا الكتاب للدلالة على هذه القوى ، فإنما الغاية من ذلك هى استخدام الكلمة ذاتها التى استخدمها توينبى فى وصف هذه الظاهرة ، دون أن يكون فى ذلك استنكار أو استهجان لهذه الحركات . ولهذا فإن الشيوعية — بوصفها هذا — تعتبر نفسها محرومة من امتيازات الغرب. وليس ثمة شك فى أن ذلك المستوى المعيشى العالى الذى يتمتع « الغرب » به يرجع إلى نظام إنتاجهم ، وقوة عقولهم المبتكرة، وإلى أسباب مفهومة لا تستطيع أن تفهمها الجماهير « التى لا تملك » ، فهذه الجماهير لا تفهم إلا أن الآخرين أغنياء ، وهى فقيرة ، ومن ثم فهى تريد إحراز الرخاء ذاته ، وإذا دعت الضرورة فإنها ترى قلب الدور الذى يقوم به كل منهما ، وفى مثل هذا الموقف : أليس من الأيسر أن تهمس فى أذن الرجل المحروم بالرسالة المسمومة « انظر كم هو غنى ، وأنت فقير !! لقد حصل على ثرائه هذا بسرقة نصيبك المشروع ، فاقتله وخذ ثراءه ، خذ منزله وسيارته ، وعندئذ ستصبح رجلا عظيماً » . تلك هى الطريقة التى استخدمتها الشيوعية بنجاح، إلا أن الفقير المعدم ما يكاد ينفذ هذه النصيحة المرذولة حتى يكتشف أنه قتل مع « المتمتع » سر رخائه ، ومن ثم فإن

الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكه « المعدمون » ليتحرروا اقتصاديا وليحصلوا على المساواة ليس هو قتل « المتمتعين » وإنما التوصل إلى سرهم ومواءمته مع ظروفهم الخاصة ، وبعبارة أخرى استخدام نفس الوسائل التى تجلب رخاء مماثلا لمجتمعهم . وإذ استطاعت الحضارة الغربية أن تتوصل إلى الوسائل التى يمكن أن يعتبرها الشرق أفضل الوسائل لإحراز النجاح ، فعندئذ فقط ، سيتمسك الشرق بهذه الطرق بمحض اختياره ، وعندئذ يمكن أن تتحرر هذه المناطق من شعورها بالعداء نحو الغرب ، وذلك دون أن تتضاءل قيمتها القومية على أى نحو . ولكى يتم ذلك ، يجب أن تنجح الحضارة الغربية فى إقناع هذه الشعوب بقيمة الدين الشاملة ، وقيمة حرية الإنسان التى يجب أن تحظى بالاحترام فى الشرق والغرب على السواء .

وبمعنى آخر ، ليس هناك تناقض أساسى — متميز عن العاطفة — بين الحضارة الغربية وقومية الدول الحديثة النهوض ، أى أن تعايشها السلمى ليس ممكناً فحسب ، بل من الضرورى أيضاً أن يقوم تعاون وثيق جداً بينهما حتى يمكنهما أن يحظيا بمستقبل أفضل .

والبديل لهذا الوضع هو أن تتمكن الشيوعية من ضم شعوب آسيا وأفريقيا إلى معسكرها ، لا بالمعنى السياسى والعسكرى فحسب ، ولكن — وهذا هو الأمر الأكثر خطورة — أن تتمكن من أن تقر فى أذهان هذه الشعوب أن الشيوعية تهيىء لها وسيلة الحصول على مستقبل أكثر رخاء ، فعندئذ تستطيع هذه الجماهير ، مع العالم الشيوعى الحالى الذى يبلغ تعداده أكثر من ١٥٠٠ مليون نسمة ، أن تشكل « بروليتاريا خارجية » تمثل أكبر خطر عرفته الحضارة الغربية . وبالإضافة إلى ذلك فإن من المحقق أن تتحالف هذه

«البروليتاريا الخارجية» — تحت قيادة الشيوعية — مع ذلك الجزء من «البروليتاريا الداخلية» بداخل العالم الغربى الذى يقع بدوره تحت إشراف الشيوعية المباشر أو غير المباشر . وليست هناك حضارة سبق أن عرفها العالم، واجهت مثل هذا التحالف القوى الواسع من الداخل والخارج تحت قيادة واحدة .

انقسام أوربا

لم تنشأ أزمة المجتمع الغربى ، شأنها فى ذلك شأن أزمات المجتمعات الأخرى فى الماضى، من تحديات خارجية كالتحديين اللذين ألمعنا اليهما فحسب، بل تنشأ أيضاً من تحد داخلى آخر . ويكمن التحدى الأخير فى انقسام أوربا ، ويرجع انحسار السيطرة الأوربية فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية — فى التحليل النهائى — إلى انعدام وحدتها . ذلك لأن هذه الحروب التى أضرت بالطرفين ، ومزقت القارة القديمة عند بداية القرن الحالى ، قد استنزفت قواها بصفة مؤقتة . وبفرض أن هذه الحروب لم تحدث هذا «النقص» الشامل فى القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية لأوربا ، ذلك النقص الذى حدث فعلا، فإن خطورتها النسبية - لا ريب - هى أنها جعلت أهمية أوربا فى الميادين العسكرية والاقتصادية والسياسية تتضاءل نتيجة لعملية «انحسار» أوربا بسبب الوحدات القومية الأكبر التى ظهرت حولها وطغت عليها، وهى العملية التى يصفها توينبى فى كتابه Civilisztion onTrial بقوله إن الحروب العالمية عجلت فقط بهذه العملية ، وجعلت التناقص فى

مكانة أوربا السابقه أكثر وضوحاً ، لأنها كانت محصورة فى ذاكرة جيل واحد فقط .

ولقد أصبحت وحدات أوربا القومية، باستثناء روسيا ، أصغر من أن تلعب الدور الذى اعتادت الدول الكبرى أن تلعبه فى العالم ، أو حتى تصون استقلالها السياسى أو الاقتصادى الفعلى ، وزب قائل : إن دولا مساحتها كبيرة كمساحة روسيا أو الصين أو الهند أو الولايات المتحدة ظلت قرونا طويلة بغير أن تضر بقيادة الدول الأوربية الأصغر منها . وتفسير ذلك أن التطور الراهن فى الفن الصناعى والمواصلات والدعاية وحكم الجماهير هو الذى مكنها من الاتحاد الفعلى،ومن أن تنمى اقتصاداً وقوة تتناسب مع حجمها ومواردها وإمكانياتها .

إن انكماش أوربا بالنسبة إلى بقية العالم ،ليجد دليلا أكثر وضوحاً هو الاضمحلال النسبي فى طاقتها الصناعية،وهو عامل تعتمد عليه أساساً القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية فى العالم الراهن . ، فى عام ١٨٧٠ أنتجت انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا والسويد مجتمعة ٦١ ٪ من الإنتاج الصناعى فى العالم ، وفى الفترة ما بين عامى ١٩٣٦و١٩٣٨ — وبرغم زيادة إنتاج هذه الدول من ناحية الكم — بلغ نصيب إنتاجها من مجموع الإنتاج العالمى أقل من ٣٠ ٪ ، وفى الفترة ذاتها ازداد نصيب الولايات المتحدة من ٢٣,٣ ٪ إلى ٣٢,٢ ٪ ونصيب روسيا — الذى لم يتجاوز حتى عام ١٩١٣ ٥,٥٠ ٪ — إلى ١٨,٥٠ ٪ .

إن الرجعيين وحدهم هم الذين يأسفون لنهضة المناطق غير الأوربية ، فهم لا يعرفون رداً أحسن من « النواح » أو محاولة إرجاع عقارب الساعة

إلى الوراء — هذا إذا كانت أيديهم أقوى من عقارب الساعة — ولكن هيهات فإذا كان لدى أوربا فعلا شيئاً تقدمه ، فإنها تستطيع أن تثبت ذلك بالإقدام على الإصلاح الوحيد الذى يعيد إليها دورها المشهود ، وذلك هو الاتحاد ، إذ ليس هناك أى سبب طبيعى على وجه البسيطة يفسر لماذا لا يستطيع ٣٠٠ مليون أوربى حر ، مع ما هم عليه من عبقرية ذهنية لا تعادلها عبقرية أخرى، ومهارة فنية ،فضلا عن امتلاكهم أغنى الموارد المعدنية والإمكانيات الصناعية الهائلة . لماذا لا يستطيع هؤلاء أن يحرزوا من جديد مركزاً أعلى كأحد المنتجين العالميين . إنه فقط انقسام اقتصادها الذى يبلغ اثنى عشر قسماً منفصلا أو أكثر،هو الذى يعترض طريق الإنتاج الشامل أو الاستهلاك الشامل ، وهذا الانقسام نفسه هو الذى يحول دون دفع عجلة الإنتاج الأوربى بحيث يبلغ نسبة أعلى من الإنتاج العالمى ، ومايصحب ذلك من بلوغ نسبة أعلى ، من رخاء العالم وقوته . وسنعالج فى الفصل التالى ، ما إذا كانت أوربا تملك القوة التى تمكنها من مواجهة هذا التحدى ، لأن العقبات التى بيناها فى هذا الفصل ، بالإضافة إلى التطورات التى ذكرناها فى الفصل السابق، تميل إلى إظهار أن الحضارة الغربية على عتبة ما يعتبره دانيلفسكى وشبنجلر وتوينبى ، مرحلتها الرابعة ، وأنها تواجه أكبر عقبة فى حياتها .

غير أن الخروج من هذا بأن الحضارة الغربية قد انتهت وخيمت عليها الكآبة وأصبحت فى حكم المقضى عليها بالفناء ، قول لايعتبر نتيجة محتومة، فضلا عن أنه قول يشف عن روح الهزيمة بلا مبرر ، ولذلك يجب نبذ هذا القول بشدة على أساس الحقائق التى بيناها فى الفصول السابقة ، كذلك فإن القول بأن طور الدولة العالمية يفتقر إلى العظمة ، لأنه يفتقر إلى الحروب

الدولية ؛ يعتبر ، كما حاولنا أن نبين ، تحيزاً لا يمكن أن ينبع إلا من عقلية رجل عسكرى كشبنجلر . والقول بأن « الانهيار » الذى يستهل الطور الثالث من المدنية ، معناه أن سقوطها أمر محتوم ؛ إنما هو قول يختلف مع مايقوله توينبي عن القدر الذى لامهرب منه ومع الأمثلة التى يضربها. وليس هناك شك فى أن الإمبراطورية الأوغسطينية كانت بداية الطور الأخير للحضارة الرومانية ، ولكنها ظلت تعتبر عدة قرون ، قمة مجدها ، والمثل المتألق للدولة الناجحة الخاضعة لحكم سليم ، وللدولة التى ندر أن يوجد لها شبيه فى التاريخ . . . وسواء اعتبرت الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية المصرية الجديدة سحابة صيف أو معبود حضارتهما ، فإن المسألة هى مسألة كلمات فى الأغلب الأعم، لأن أهميتهما تكمن فى عبقريتهما الابتكارية. وحتى إذا اتبعنا طريقة توينبي فى التفكير ، فليس هناك سبب يجعل هذه العبقرية لا تستطيع ، فى هذه المرحلة المتأخرة ، أن تجد رداً مناسباً على تحدى عصرها ، وتحدث ارتفاعاً جديداً فى الحضارة .

وليس فى استطاعتنا أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء : إلى مجتمع القرون الوسطى الزراعى أو إلى المجتمع الحضرى المبكر فى عصر النهضة ، إلا أنه فى استطاعتنا أن نجعل الطور النهائى المقبل لحضارتنا هو أوج حياتها الدينامية المتألقة ، وأن نجعله جديرا بأكثر الأمور التى وجدت فى التاريخ قيمة وسؤدداً .

وليس ثم سبب يفسر عدم إمكان الرد على التحدى الهائل الذى تميز بيقظة الشعوب التى كانت محرومة من كل امتياز داخل وخارج نطاق الحضارة الغربية ، إذا ما وهب الغرب تصميما وحيوية كافيين . أما نجاح الرد فعلا فيتعزز فى آخر الأمر لا بالتفوق فى الإنتاج ولا بالنصر المسلح ، وإنما بالقوة الابتكارية الداخلية الكامنة فى الحضارة الغربية ، أى بقدرتها على أن تقدم للعالم تلك القيم الروحية والسياسية والاقتصادية التى تدفع حتى الدول التى لا تتمتع بأية امتيازات إلى محاولة الوصول إليها طواعية باعتبارها أحسن وسيلة تؤدى إلى خيرها الروحى والمادى .

* * *

إن كل ماذكرناه يتجه إلى النتيجة الوحيدة التالية وهى : يتوقف مستقبل الحضارة الأوربية على العبقرية الخلاقة التى تمكنها من مواجهة تحديات عصرنا ، فليس مقدراً علينا انهيار عاجل ، وليس من الضرورى أن يكون مكتوباً علينا سلفاً أن نرتفع إلى حضارة أعلى تشمل الكرة الأرضية ؛ إنما يتوقف مجرى حضارتنا على القوى الكامنة فى أعمالنا .

وإذا كان القول الأخير صحيحاً ، فإن ضرورة البحث عن إجابة للسؤال السابق ذكره تصبح أكثر إلحاحاً ، فما مدى قوة القوى الخلاقة الموجوده الآن فى الحضارة الغربية ؟

إنها لمهمة محفوفة بالأخطار أن نحاول عرض مجال العلم الواسع للقوى الخلاقة فى الوقت الحاضر ، فالمجال فسيح جداً فعلا بحيث لا يستطيع أى عقل بشرى أن يستوعبه ، وبالإضافة إلى أن مصادر البحث العلمى

التي يستطيع الإنسان الاعتماد عليها قليلة العدد فإن الحكم الشخصي يلعب دوراً أكبر كثيراً مما لعبته الاختبارات فى الماضى . ومع ذلك ، فإن علينا أن نحاول إيجاد إجابة إذا كنا مصممين على صياغة مستقبلنا على أساس التقدير الواقعى لصلاحيتنا للبقاء . ومن ثم فسنحاول ـ مع علمنا بقصورنا المحتوم عن بلوغ الهدف ـ أن نلقى نظرة عابرة على القوى الحية الحالية فى حضارتنا . وحينما نفعل ذلك سنحاول مرة أخرى أن نضع ضمن نظرتنا الشاملة ، الصورة التى رسمها الآخرون الأكثر خبرة فى مجالهم ، كلما أمكن ذلك .

ولسوف يظل هذا المؤلف معتمداً على تجارب استخلصها بحكم عمله الذى أتاح له أن يعيش بين بعض الشعوب الرئيسية فى الغرب ، وأن يلمس دوافعها وهم : الفرنسيون والألمانيون والبريطانيون والهولنديون والبلجيكيون والدانماركيون والأمريكيون ، ولقد دفعه نقص معارفه بأمريكا اللاتينية ، برغمه ، إلى إغفال أية إشارة فى كتابه إلى هذه المنطقة التى تلعب دوراً متزايد الأهمية فى الحضارة الغربية .

وفى دراسة القوى الموجودة فى حضارتنا فى الفصول التالية ، لن نبذل أى جهد لإصدار حكم بالجودة أو بالرداءة ، بالجمال أو الدمامة ، لأن ذلك يستحيل على أى كاتب معاصر ، ولهذا ينبغى أن يترك للخلف ، ثم إن ذلك ليس أمراً ضرورياً للغرض الذى وضع من أجله هذا الكتاب . ولذلك يجب أن يقتصر البحث على موضوع مدى قوة القوى الخلاقة الكامنة فى الحضارة الغربية ، فالقدرة على إيجاد الثمرة ، لا قياس مذاق هذه الثمرة ، هو غاية دراستنا .

— ١٠ —

قوة أوربا الخلاقة

إن أكثر الأسئلة إلحاحاً وتطلباً للإجابة عند محاولة تقدير قوة أوربا الخلاقة ، هو : ما إذا كان مهد الحضارة الغربية يتمتع بحيوية كافية للتغلب على التحدى الرئيسى الذى يهدد مستقبلها من الداخل ، أى تفرقها .

القوى الخلاقة فى السياسة الأوربية

إن من دواعى الدهشة والأمل معاً ما يبدو من أن القارة العجوز تعد فعلا القوة الخلاقة لإتمام هذه المعجزة الوشيكة الحدوث .

وعند الحكم على مدى ما أحرز من تقدم فى هـذا المضمار ، يجب ألا نستخدم مقاييس السائح الأمريكى الذى تنتابه الدهشة والضيق بسبب كثرة الحدود التى يعبرها ، والإجراءات الرسمية التى لا عدد لها والتى يتحتم عليه أن يخضع لها حينما يسافر ساعات قليلة عبر أوربا . ولكى نصل إلى حكم متزن ينبغى أن نستخدم مقياسين : أحدهما مقياس القرون التى أدت إلى الوضع الراهن . ومعنى ذلك أنه يجب علينا أن نقيس مدى التقدم الذى تم فى مدى السبعمائة أو الثمانمائة أو الألف عام التى تشكلت فيها الأمم الحالية فى أوربا ، وإذا تأملنا التقدم الذى أحرزناه فى السنوات القليلة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، على هذا الضوء ، ألفيناه مدهشاً . ولعل هذا القول يبدو مدهشاً فى حد ذاته بالنسبة للأشخاص الذين أصابهم الغضب بسبب انعدام النتائج المحسوسة إزاء توحيد برلمانات وتشريعات وتعريفـات

جيوش أوربا .. إلخ ، إلا أن موجزاً مركزاً لما تم يكفي للتدليل على صحة هذا القول .

ولسوف تظل حكومات هولندا وبلجيكا ولوكسمبرج التي كانت في المنفى بلندن أثناء الحرب العالمية الثانية موضع التقدير التاريخي ، لأنها أرست الأسس للمحاولات العملية الأولى للوحدة التي تمت بعد ذلك في أوربا ، ونعني بها اتحاد البنولكس الاقتصادي الذي قامت عقبات كثيرة أمام إنشائه لم يزل بعضها قائماً لم يتغلب عليه ، ولكنه سيظل أول عمل صلب منذ الحرب العالمية الثانية نحو التكامل الاقتصادي والسياسي لدول ظلت تسير كل منها في طريقها الخاص منذ ٣٥٠ عاما ، باستثناء فترة واحدة مدتها خمسون عاماً .

ويعتبر الاتحاد الغربي الذي أبرم بين فرنسا وبريطانيا العظمى ودول البنولكس في عام ١٩٤٨ محاولة أخرى في هذا السبيل ، ومع أن نتائجه لم تصبح محسوسة بعد، كما أنه أثار خيبة الرجاء بسبب إخفاقه في محاولة إنشاء نظام للدفاع المشترك عن غرب أوربا ، إلا أنه — حتى بفرض ما ثبت من أنه ليس أكثر من مجرد سلم يؤدي إلى إنشاء تحالف أكبر لشمال الأطلنطي - سيظل محتفظا بأهميته التاريخية باعتباره واحداً من الأدلة الأولى المحسوسة على تصميم أوربا الغربية على بلوغ تكامل أوثق .

وكانت الخطوة التالية، وهي إنشاء المجلس الأوربي ، ذات أهمية أكبر ، ولكن نتائجها المحسوسة إزاء التوحيد لم تزل بعد محدودة ، إلا أنها أكثر أهمية من أي من الظواهر الأخرى ، لأن هذا المجلس الأوربي نبع بوضوح

من الدافع القوى تجاه توحيد الدول الأوربية نفسها بقدر ما تستطيع التعبير عن مشاعرها بحرية ... ومع أن دور المجلس الاستشارى استشارى محض، إلا أنه هيئة ديناميكية تتمتع — بفضل الضغط الذى تمارسه — بالقدرة الفعلية على التأثير الدائم على حكومات أوربا سواء أرادت أو لم ترد، لكى تتقدم بسرعة أكثر على الطريق إلى التكامل.

ولقد واجه مشروع لجنة الدفاع الأوربى اعتراضات جديدة، كثيرة فى الأصل، مما أدى إلى إدخال تغييرات كثيرة عليه قبل إقراره، إلا أنه ليس هناك من يستطيع أن ينكر أن اللجنة كانت خطوة نحو الدفاع عن أوربا الغربية؛ خطوة تتصف بالجرأة وبعد النظر الذى يتناسب مع ضخامة المشكلة، وأخيرا قامت الدول المعنية بأداء أشق المهام الرئيسية: وهى إنشاء سلطة أوربية عليا سوف تتوج فى أحد الأيام هيئة أوربا المتكاملة. والتاريخ وحده هو الذى يستطيع أن يبين إلى أى مدى ستستطيع هذه الهيئات أن تحقق دفاعاً كافياً، ووحدةً سياسية كافيةً. أما مايعنينا هنا فهو أن زعماء أوربا قدموا خططا حاسمة يجرى تطبيقها لمواجهة تحدى التفرقة الأوربية.

ولن يكون لتوحيد أوربا أهمية تذكر إذا تم تحت ضغط الولايات المتحدة. فبالعكس، قد تكون هذه الوحدة عرضة آنذاك لأن تكون مجرد إقليم تابع للولايات المتحدة فيما وراء البحار. . . . إن النتائج السالفة الذكر، والعمل الدائب نحو التوحيد الذى يقوم به كبار الساسة الأوربيين أمثال بريان وتشرشل وسباك وستيكر وشومان وموليه وإديناور، دليل واضح — إذا احتاج الأمر لدليل — على حاجة أوربا الملحة للوحدة الأعظم،

ولقد برزت هذه الحاجة أو هذا الدافع كقوة حية دينامية فى السياسة الأوربية بعد الحرب العالمية الثانية ، وهكذا فإن «أوربا جديدة» توشك على الولادة ، وتلك أوضح علامة على حيوية أوربا اليوم ، وأقوى أساس للتنبؤ بأنها ستتمكن من الرد بنجاح على التحدى الذى تواجهه .

أما الأشكال التى سيتجسد فيها هذا الدافع أخيراً ، فأمر ثانوى ، لأن معظم الأجهزة التى شكلت حتى الآن ، كانت قليلة الإنتاج ، فما زال هناك رمل كثير وزيت قليل فى التروس ، كما أن الدافع أو الحافز الكامن خلفها لا يزال ضئيلا جداً . ولكن مهما يكن من الأمر ، فإن ذلك لا يستحق اهتماماً عاجلا مادامت العملية سريعة بدرجة تكفى لمواجهة مقتضيات العصر .

إلا أن ذلك ليس هو الوضع ،مع الأسف .

ويقودنا ذلك إلى المقياس الثانى الذى ينبغى استخدامه لقياس مدى تقدم التكامل الأوربى : إنه صلاحية هذا المقياس لحل مشكلات أوربا الحالية .

وإذا استخدمنا هذا المقياس ، لبدا أنه ليس فى الإمكان إنكار أن التقدم الذى أحرز لا يزال غير كاف . فإذا استمر على معدله الحالى ، فسوف تنقضى عدة أعوام قبل أن يتحقق نظام الدفاع عن أوربا المتحدة ، وسوف تنقضى عدة حقب قبل أن توجد سوق أوربية ذات مجال يساعد المنتجين الأوربيين على أن ينافسوا ، بنجاح ، أولئك الذين يسعون وراء الأسواق الواسعة كالولايات المتحدة والهند وروسيا والصين ، إلا أن الوقت لم يحن بعد للتأكد من أن أوربا ستتمكن من التقاط أنفاسها قبل أن تسبقها الدول الجبارة .

المحيطة بها على نحو لا يمكن البرء منه ... إن الوقت ضيق ، فإذا لم تصل هذه الدول إلى درجة كافية من التكامل في الوقت الذى يحول دون تدمير دول أوربا الغربية مرة أخرى بالحرب واحتلالها ، فلسوف تصبح أوربا الغربية موضع الإعجاب فى المستقبل بسبب تاريخها وآثارها وأطلالها، ولكنها ستندثر كعامل كبير فى العالم ، وحينئذ سوف تشارك اليونان فى مصيرها ، فقد أدى انقسام اليونان وتفرقها إلى سقوطها فريسة فى براثن دول أعظم هى ، على التعاقب ، دولة فيلب المقدونى ، والإسكندر الأكبر ، وروما ، وبيزنطة . ومع أن إشعاعها الثقافى أضاء تلك الدول قرونا تالية ، فإن اليونان نفسها زالت ولم تعد ذات قيمة كعامل عالمى وكمصدر خلاق .

القوى الخلاقة فى الاقتصاد الأوربى

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية فى أوربا فى شهر مايو ١٩٤٥ ، خفض الإنتاج الصناعى لدول أوربا الخاضعة لمشروع مارشال إلى حوالى نصف ما كان عليه قبل الحرب . وبعد قرابة سبع سنوات ، وفى العيد الرابع لمشروع الإنعاش الأوربى ، زاد الإنتاج الصناعى فى معظم دول غرب أوربا إلى حوالى ١٥٠ ٪ مما كان عليه قبل الحرب ، وزاد الإنتاج الزراعى إلى ١٠٩ ٪ . وليس من شك فى أن هذه الأرقام المتناهية البساطة أفصح إجابة على السؤال التالى : ما مدى الحيوية الباقية فى حياة أوربا الاقتصادية ؟

لم يكن من المستطاع حدوث هذا البعث الاقتصادى بغير المنبه الذى قدمته مساعدة مشروع مارشال . ومع ذلك ، لم يكن من المستطاع أيضا

حدوثه بغير أن تبذل الدول الأوربية ذاتها الجهود والنشاط اللازمين لذلك كما أثبتت النتائج الأبعد، عن الارتياح، التي تمخضت عنها المساعدات المماثلة التي قدمت لبعض الدول الأخرى. فقد تبين أن الجهد الذي بذلته أوربا فاق كل ما يتوقعه واضعو مشروع مارشال، نظراً لأنه أمكن الوصول إلى عدد من أهدافه في مدى ثلاث سنوات بدلا من أربع سنوات، كما كان مرتقباً. ويبدو أنه افتراض معقول، أن نقول إن هدف مشروع مارشال من إعادة التوازن الاقتصادي في عام ١٩٥٢ كان من الممكن أن يتحقق في كثير من دول أوربا لولا أحداث كوريا التي أطاحت بتوازنها التجاري.

ومع ذلك، فإذا سمحنا بتجاوز مناسب لما أحدثته نتائج الحرب الكورية فمن الواضح أن الاقتصاد الأوربي لم يصل بعد إلى درجة كافية من الانتعاش، فإن الإنتاج الأعلى لا يمكن أن يكون حلا لمشكلات أوربا الاقتصادية، نظراً لأن هذه المشكلات وليدة التدمير الحربي المربع المصدر، أي: فقدان المناطق الموجودة فيما وراء البحار، وزيادة المنافسة الصناعية في القارات الأخرى، ونقص التجارة بين الشرق والغرب، وضيق الأسواق في أوربا. ومن ثم فإن إيجاد سوق واحد فقط يضم — على الأقل — أوربا الغربية، وتطوير الإنتاج بالجملة، يمكن أن يضع أوربا في مركز المنافس لمناطق أخرى، ويصون مستوى معيشتها ويرفعه.

إن محاولات «وظيفية» تبذل في ميادين عديدة لتحقيق تكامل الاقتصاد الأوربي، مع أنها قد لا تبدو ملموسة وأساسية على النحو الذي يتوق إليه المرء، فإن كل محاولة منها تبدو، في ميدانها، عملا خارقا، لأنها يجب أساسا أن تقلب رأسا على عقب في سنوات قليلة ما أمكن بلوغه خلال عدة قرون.

ولقد تحققت حتى الآن محاولتان من هذا النوع فى المجال الاقتصادى ، هما اتحاد المدفوعات الأوربى، ومشروع شومان . والمشروع الأخير، على الأخص، يضم صناعات الصلب والفحم فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج ، ويعتبر خطوة ذات أهمية تاريخية قصوى لم يكن أحد يتصور إمكان تحقيقها قبل الحرب العالمية الثانية . وبعد أن مزجت النتائج السياسية والاقتصادية البعيدة المدى بعضها ببعض، واندفعت نحو ما كان يعتبر قلب النزاع الأوربى لما لا يقل عن قرن ، وهو : المنافسة بين صناعات الفحم والصلب فى فرنسا وألمانيا ، وكان لا بد من التغلب على صعاب كبيرة ، ومعارضة قوية ، واستمرت المفاوضات المعقدة عاما كاملا ؛ ولكن روح أوربا الخلاقة خرجت ظافرة ، وما لبثت المشكلة التالية ، أى مشكلة تكامل أوربا الزراعى ، أن طرحت على بساط البحث وأمكن التوصل إلى حل لها .

وهكذا ، فلو أن التقدم الذى أحرز فى النواحى الاقتصادية ، كما هى الحال فى النواحى السياسية ، لم يكن كافياً لتحقيق التكامل ، والإنتاج الجماعى المطلوب ، إلا أننا نستطيع أن تستخلص أن أوربا أبدت قوة شافية كافية لاستعادة رخائها السابق ، وحيوية كافية لإدراك الأساليب الضرورية لتكامل أوربا .

قوة المعمار الأوربى الخلاقة

أبدت أوربا أنها قادرة على أن تنتج ، فى بعض ميادين الفن ، أشكالا أو طرزا جديدة ، ذات قيمة دائمة ، وهذا واضح بصفة خاصة فى ثلاثة

مجالات هى : فن المعمار ، والأفلام ، والموسيقى .

لقد امتاز نهوض حضارتنا فى مدن شمال إيطاليا فى عهد النهضة ، بين ما تميز به ، بظهور مدرسة الرسم التى قد يكون لها مثيل ، ولكن ليس هناك ما يفوقها . فإذا نظر الإنسان بعين الاعتبار إلى صغر حجم هذه المدن ، فإن عدد الأساتذة الكبار الذين أنجبتهم فى وقت قصير يدعو لبالغ الدهشة حقاً ، وتعتبر هذه الانطلاقات للقوة الخلاقة فى ميدان معين ، أوضح علامة على حياة الحضارة .

وبنفس الطريقة انبثق أسلوب معمارى جديد تماماً فى أوربا فى النصف الأول من القرن الحالى ، فمن شبكة الخطوط غير المنسقة والموضوعات المقلدة ، ظهر الخط المستقيم ومبدأ الوظيفة كأسلوب معبر عن عصرنا ، وهو جرىء فى الفكرة وينطوى على خلق جديد حقاً ، وهو تعبير قوى عن الحيوية مثلما كان الطراز الدوريكى أو القوطى ، وشأنه شأن أى طراز آخر ، عرف -بالطبع- التشويه والمبالغة ، إلا أنه ليس هناك أدنى شك فى أن الأحياء الحديثة بأمستردام وستوكهولم وبرلين وهامبورج ومدن أوربية كثيرة أخرى ، وأبنية مثل مبانى البلدية بستوكهولم وأوسلو وهلفرسوم ستدخل فى نطاق الأعمال المبتكرة العظيمة فى الثقافة الغربية ، ومن خصائصها أنها ليست مجرد إنتاج فنانين أفراد ، أنشىء نتيجة لأمر أصدره فرد واحد . بالعكس ، إنها تجد تعبيراً أصيلا عنها فى الأبنية المعدة للاستعمال الجماعى كالمكاتب والمبانى السكنية للعمال والمصانع والمدارس والأبنية العامة وكلها تعكس ، بأمانة ، تفوق الجماهير . ولم يجمد هذا الأسلوب الجديد فى شكل تكرار مجرد من الإلهام والحياة . وبرغم أنه انتشر فى العالم الغربى كله باعتباره النمط

الدولى لسنوات العقد الثالث من هذا القرن ، فقد تفرع أيضاً فى شكل تنوع مدارس المناطق أو الجماعات كمدارس امستردام وستوكهولم وفينا .

وإذا صح ما قاله « بيركهاردت Burckhardt » من أن طبائع الأمم والثقافات والفترات التاريخية تتكلم على لسان فنها المعمارى ، فمن المحقق أن أحياء الفن المعمارى الأوربى فى القرن العشرين دليل قوى على قوة أوربا .

القوى الخلاقة فى صناعة السينما الأوربية

إن الفيلم وإن كان يعتبر شكلا فنيا أسرع زوالا من غيره ، إلا أنه اختبار هام لقوى حضارتنا الثقافية ، وذلك ، على وجه التحديد ، لأنه الشكل النموذجى للفن وللتسلية الجماعية فى عصرنا .

فليس هناك شكل من أشكال الفن يحتاج إلى مثل هذا التكديس لرأس المال والمعدات المادية ومثل هذا الخليط من الفن والإنتاج الفنى الصناعى الذى يطلق عليه صناعة الفيلم . ولقد كانت الاستديوهات الأوربية تعانى من نقص الامتياز فى هذين المضمارين بالمقارنة بهوليوود ، ومع ذلك فمنذ البداية تقريباً ظلت عدة صناعات أفلام أوربية تنتج أفلاماً متفوقة بصفة مستمرة .

ويرجع ذلك إلى الأيام الأولى من صناعة الفيلم الصامت ، عندما أنتج الألمانيون فيلمهم العظيم الممتاز «Nibelungen» (وهو فيلم يقوم على أسطورة قديمة) ، وتبعته أفلام عظمى كثيرة إلى أن أجبرت صناعة الفيلم الألمانى

على الخضوع للنازيين ، ففقدت أصالتها ، غير أنهـــا أخذت تستعيد الآن ماضيها .

أما صناعة الفيلم البريطانى فتنتج ، بثبات، أفلاماً على مستوى عال ، ومهما يكن من الأمر فربما كان أكثر أعمالها بروزاً ما أنتجته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها عندما كان رأس المال والأيدى العاملة فى مدهما الأعلى، ونجحت أكثر فى رفع مستواه حتى استحوذت على اهتمام الجمهور الأمريكى ، ولم تخرج درر المواهب الفنية من أمثال نويل كوارد وسومرست موم ، وإنما أخرجت أيضا المسرحيات الكبرى الناجحة مثل هاملت ، والأحذية الحمراء ، وقصص هوفمان .

وينطبق الشىء ذاته على تحف إيطاليا بعد الحرب ، التى عرضت فترات طويلة فى أوربا وأمريكا ، مثل (المدينة المفتوحة) ، وبريق الحذاء ، وسارق الدراجات ، والأرز المر ، ومعجزة فى ميلانو .

كذلك بلغ الفيلم الفرنسى مستويات لم يتفوق عليه فيها أحد سواء فى التصوير أو التمثيل أو الإخراج، فحقق نجاحاً بارزاً فى أفلام مثل: بطاقة دى بال ، وأطفال الفردوس، وسيمفونية الراعى، والشيطان فى الجسد، والدائرة.

وينبغى أن نضيف إلى ذلك أفلام ما قبل الحرب الفرنسية والإيطالية التى تغلب عليها دائما الواقعية، ومسحة الحزن والسخرية وعدم الإيمان ، وهى صفات لا تدل بالضبط على الحضارة . ولكن ذلك لا يبدل على كل حال من حقيقة أن إنتاج الفيلم الأوربى نجح ، برغم افتقاره إلى الموارد المالية والمادية ، وضمان السوق الجماعى والمواهب المتوافرة فى هوليود ، فنقول إنه نجح فى إنتاج أفلام على مستوى أعلى وغالباً لا تبارى فى قوة إبداعها .

القوى الخلاقة فى الموسيقى الأوربية

إن التمييز بين حصيلة أوربا وحصيلة أمريكا من الموسيقى ، من الصعوبة بمكان ، لأن الموسيقى أكثر عرضة للمؤثرات العالمية ، وقد تنقل منشئو الموسيقى ومفسروها ، فى العقود الأخيرة ، بين القارتين أكثر من أية جماعة أخرى من الفنانين ، وعلى كل حال ، إذا أجرينا تفرقة ،فإننا إنما نفعل ذلك لمجرد اختبار الخصوبة الثقافية فى قارتى العالم الغربى .

لقد وصل عشرات من الملحنين إلى المقدمة فى أوربا أثناء العقود الأخيرة فهناك ميلود Milhaud وبولنك Poulenc بفرنسا ، وهونجر Honegger بسويسرا ، وسيبلوس Sibelius بفنلندا ، وماليبيورو Malipiero وبيزتى Pizzetti بإيطاليا ، وفوخان وليامز Vaughan Williams وبرتين Britten بانجلترا ،وهم بعض الأسماء المشهورة بينهم . ولقدعمل كثيرون آخرون ممن ولدوا وتعلموا فى أوربا ، عملوا بأمريكا،ومنهم: بول هيندميث Paul Hindemith وأرنست كرينك Ernest krenek وإيجور سترافنسكى Igor Stravinsky والمرحوم أرنولد شوينبرج Arnold Schonberg ، وبيلا بارتوك Bela Bartok . ويكفى ذكر هذه الأسماء للبرهنة على النشاط الخلاق للموسيقى الأوربية فى عصر الحروب العالمية .

وفى إنشاد الموسيقى أيضا — إذا كان لذلك ثمة تأثير على درجة حيوية الحضارة — مازالت أوربا تتمتع بمركز الزعامة ، وهى ما زالت بعد خصبة

مثلما كانت دائماً ، فى إنتاج العازفين الأفراد ، وقواد الفرق الموسيقيه ، ومع أن فرق بوشطن ونيويورك وفيلادلفيا الموسيقية لا تكاد تبارى فى أى مكان آخر ، إلا أن جميع العازفين الأفرادوقواد الفرق الحاليين تقريباً من مواليد أوربا بما فيها روسيا .

إلا أن ذلك لا يعنى بحال أن الحياة الموسيقية ليست مزدهرة فى الولايات المتحدة ، ولكنه يدل على أن غالبية عظماء كتّاب الموسيقى ومفسريها فى عصرنا كانوا أبناء أوربا ، كما أنه دليل على خصوبة أوربا الثقافية .

— ١١ —

قوة أمريكا الابتكارية

قد يبدو لأى شخص يعرف الولايات المتحدة أن من تحصيل الحاصل إثبات حيوية الشعب الأمريكى ، تماماً كما يبدو أن من تحصيل الحاصل إثبات نشاط ثور عمره عامان . ولا تقتصر خطى هذا الشعب على حركة سيره ، وإنما تشمل حياته اليومية ، وديناميكيته، وخواصه العامة كشعب وكأفراد ، وشدة انفعالات أمريكا وقوة مشاعرها ، ونمو مشروعاتها الاقتصادية الخيالى ، ونهضة عظمائها الرائعة فى الحياتين الخاصة والعامة .. كل هذا واضح جداً حتى لأكثر المراقبين سطحية ، بحيث يبدو أن الإستزاده من البحث إنما هى مسألة لاضرورة لها بالنسبة لمن يتحسس نبض الحياة الأمريكية .

ولكن هذه المظاهر الخارجية لا تكفى لتحقيق أغراضنا : فقد تخدعنا ، وقد تكون مجرد علامة على سيطرة الإنسان الخارجية على الطبيعة دون وجود قوة داخلية خلاقة تجعلها خاضعة لهدف معين ، ومن ثم دعنا نبحث عن ميادين يبدى فيها العقل الأمريكى قدرته الحقيقية على الإبداع .

القوة الخلاقة للفن الصناعى الأمريكى

ولدت أمريكا كدولة مستقلة فى وقت واحد مع الآلة البخارية، وسارت حياة أمريكا، ونموها جنباً إلى جنب مع حياة الآلة البخارية ونموها، وتعتمد عليها

قوتها الحالية ورخاؤها ، فى التحليل الأخير . كما أن نفوذها ينتشر فى جميع أرجاء العالم على عجلات الآلات .

فى هذا الميدان قبل كل شىء أظهرت أمريكا عبقريةً خلاقةً .

ويقول المؤلف الأمريكى جيمس بيرنهام : « إن الولايات المتحدة ناضجة فى مجال واحد فقط هو تطور فن الإنتاج . ولا يدرك الأمريكيون أنفسهم مدى تفوقهم الذى لا يبارى فى هذا المجال ، فليس هناك ، ولم يكن هناك فى يوم من الأيام شىء يدانى أساليب الإنتاج الأمريكى . ولا يكمن سر تفوق أمريكا فى الآلات نفسها ، نظراً لأن انجلترا وألمانيا ، وربما السويد وسويسرا تفوقت عليها ، وإنما يرجع إلى الموهبة والقدرة ، التى تكاد تصبح الآن صفة قومية تدل على تنظيم الإنتاج على نطاق واسع » .

ويستطرد المؤلف فيبين أنه حتى فى اكتشاف القنبلة الذرية مثلا ، لم يجر الأمريكيون أى بحث من الأبحاث الأساسية ولكن تلك القوة الابتكارية التى تتمتع بها الولايات المتحدة عبرت عن نفسها فى إنشاء العملية الهائلة اللازمة للإنتاج .

هذا وتبدو « الحضارة التكنولوجية » مستحيلة فى نظر الأشخاص الذين يعتبرون الفن الصناعى « التكنولوجيا » موتاً لكل الحضارات ، إلا أنه ليست هناك ضرورة لذلك ، لأن التقدم التكنولوجى إنتاج عقلى شبيه بأى تقدم علمى فى المجالات العلمية ، ويعتمد تطبيقه على نشاط الإنسان ولوذعيته ، ويعتبر أسلوب مصانع هنرى فورد فى الانتاج المستمر كما يعتبر استمرار تدفق التوزيع الكيمائى ، وملايين الاختراعات الصغيرة والكبيرة أيضاً التى

دخلت فى عمليات الإنتاج الجماعى العصرية - تعتبر هذه كلها بمثابة التعبير الخلاق للعقل البشرى ، و بمثابة إسهام فى الحضارة كنظرية فيثاغورس . هذا ويتطلب تطبيقها تخطيطاً له هدف وغاية ، ونشاطاً لا يقل عما استلزمه بناء الأهرامات أو برج بابل .

وليس معنى ذلك أن التقدم التكنولوجى هو الحل الملائم لمشكلات العالم كما يظن البعض ، فقد بين توينبي أن بسط السيطرة على المناطق المحيطة ليس فى حد ذاته علامة على نمو الحضارة ، بل على العكس قد يجعل الإنسان عبداً للأساليب بدلا من أن يكون سيدها ، ويجعل من الفن الصناعى غاية فى ذاته، بدلا من أن يكون وسيلة لغاية ، بيد أن الأمر الذى يهمنا الآن هو ما إذا كان التكديس الهائل فى الاختراعات والعمليات والتنظيم يشكل الدليل على القدرة الخلاقة فى أمريكا . . . وهنا يجب أن يكون الرد « نعم » بالنسبة لأى شخص لا يكون حكمه خاضعاً لتحيز عميق الجذور ضد مايسمى « المادية الأمريكية » .

إن نظام الإنتاج الذى أوجد وضعاً يقضى بأن تنتج دولة تعدادها ٧٪ من سكان العالم ، ما يقرب من ثلث السلع والخدمات فى العالم ، وإن تقدم المساعدات والتأييد لحوالى ستين دولة ، كل هذا يجب ألا نحط من شأنه الآن باعتباره إنجازاً لقوة بشرية خلاقة وإسهاماً فى الحضارة .

القوى الخلاقة فى السياسة الأمريكية

عند البحث عن أعمـــال خلاقة فى السياسة الأمريكية ، يبدو من الضرورى التخلى من البداية عن فكرة واحدة قد تطرأ على ذهن كثير من الأمريكيين كعمل أمريكى نموذجى ، فإن الأمريكى العادى يحب أن يفكر فى الديمقراطية على أساس أنها اختراع أمريكى، ولكن الواقع ليس كذلك ، لأن الديمقراطية ، كنظام للحكم يستمد سلطته النهائية من إرادة الشعب ، قديمة قِدَم المجتمع المنظم ، ولكنها ترجع فعلا فى حضارتنا الغربية إلى وقت طويل سابق على عبور كولومبس للمحيط الأطلسى .

كذلك لا يمكن أن يقال إن أمريكا طورت نظاماً للحكم خاصاً بها ، يشبه الإسهام العظيم فى الحضارة من جانب روما وبريطانيا . وليس فى ذلك ما يدعو للدهشة ، نظراً لأن النشاط الأمريكى الرئيسى ظل ، ردحاً طويلا من الزمن ، مركزاً فى حراسة الحدود ، وتوسيع رقعة البلاد ، واستغلال الموارد الهائلة . وحتى السنوات الثلاثينية ، كانت الحكومة تعتبر شراً لابد منه،وحَلبةً يستطيع المتنافسون الاقتصاديون أن يضرب كل منهم الآخر الضربة القاضية فوقها فى قتال حر ، ولم تبدأ الحكومة القيام بدورها فى الولايات المتحدة . مثلما قامت به الحكومات الأخرى فترةً من الوقت فى الدول الأخرى،إلا حينما دهمتها الأزمة المالية الطاحنة وما اقترن بها من كساد .

ومن ثم ، لا يمكن أن يقال إن لدى أمريكا ديمقراطية متأصلة كرست نفسها لفن الحكم بصفة خاصة ، ومن قصر النظر أيضا أن نستخلص أن الشعب الأمريكى لم يظهر أية كفاية خلاقة فى مجال فن الحكم .

وفى هذا الصدد، يقال إن أكثر إسهامات أمريكا قيمه، لا يكمن فى اختراع أى مبدأ أو نظام جديد ، وإنما يكمن فى التطبيق الناجح لنظامين هامين هما النظام الفيدرالى، والنظام الديمقراطى فى ظروف جديدة، وعلى نطاق لم يعرف من قبل .

النظام الفيدرالى :

إذا كانت أشكال الحكومة الفيدرالية قد طبقت من قبل فى بعض الدول الأوربية ، فإن هذه التطبيقات بقيت بداخل حدود أصغر كثيراً من ناحيتى الرقعة والزمن ، وقد بدىء بتنفيذ هذا النظام فى الولايات المتحدة منذ أكثر من مائة وستين عاماً فى منطقة تبلغ مساحتها مساحة قارة ، ومع ذلك فإن المبدأ لا يزال ثابت الجذور ، كما كان دائماً فى التقاليد الأمريكية منذ كانت ، ولو أن هناك زيادة ملحوظة فى سلطات الحكومة الفيدرالية .

وتدين الولايات المتحدة بفوائد كثيرة لتطبيق هذا النظام ، فبطريق موازنة توزيع السلطات المخولة والمحتفظ بها، أمكنت إدارة دولة عرضها ثلاثة آلاف ميل بكفاية ، وبغير الإضرار بالمصلحة المباشرة للمواطن الفرد فى الحكم والشئون العامة ، وحال ذلك دون سيطرة أية ولاية على أخرى أو سيطرة الاتحاد نفسه على أية ولاية ، ذلك لأنه جعل فى الامكان إيجاد التنوع الذى تتخلله درجة كافية من الوحدة .

وفى عصرنا ، الذى يتسم بالنمو تجاه قيام وحدات أكبر ، ويعتبر فيه الشكل الوثيق من التعاون فى أوربا وبين شعوب شمال الأطلنطى، بمثابة شرط لبقاء الغرب ، تتخذ فوائد هذا النظام الفيدرالى دلالة جديدة مادام

النظام قد أعد بإحكام لتجنب عدد من العثرات القادمة ، إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة أنه يجب تطبيق هذا النظام فى حالات أخرى بنفس الطريقة التى طبق بها فى الولايات المتحدة .

التحول من الديمقراطية البورجوازية إلى الديمقراطية الجماعية :

مما لا يمكن إنكاره أن هناك اختلافاً معيناً بين الديمقراطية الأمريكية وديمقراطيات غرب أوربا الأقدم عهداً ، وليس من السهل تعريف هذا الاختلاف ، ولكنه يشكل مساهمة أمريكا المحددة فى قضية الديمقراطية ، ولعل أحسن تعبير له هو « أن أمريكا نجحت فى مواءمة الديمقراطية لمطالب الحكم الشعبى » .

إن الثورتين الأمريكية والفرنسية وإن قامتا على مبدأ واحد هو أن جميع الناس ولدوا متساوين وجديرين بالحياة والحرية والسعادة (الحرية والإخاء والمساواة) إلا أنهما لم تكونا من طراز ثورات الجماعات الشعبية أو ثورات الرجل العادى.. لقد كانت كل منهما ، بحسب التعبير الاجتماعى ، حركات ضرورية أوجدتها طبقة الملاك الوسطى ، أى البورجوازية ، مثل ملاك الأراضى فى فرجينيا الذين ثاروا ضد الحكم الإنجليزى الاستبدادى الذى لم يكن يسمح لهم بالإسهام فى الشئون العامة ، وهو ما كانوا يعتبرونه حقاً من حقوقهم . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فقط وما بعده بدأت الحقوق السياسية والاقتصادية تنتشر تدريجياً ، فى وجه معارضة البورجوازية فى الغالب ، حتى شملت كل رجل وامرأة ، ثم شملت الجماهير كلها . إنه الامتداد الناجح لمفهوم الديمقراطية المحدود فى القــــرن الثامن عشر حتى يشمل

ديمقراطية الرجل العادى فى القرن العشرين الذى يرى أن إسهام الأمريكيين الفعلى يكمن فى ميدان السياسة الداخلية . ولقد أوجدت أمريكا - عن طريق التطور السلمى غير الملحوظ فى أغلب الأحوال - التحول الثورى من الديمقراطية البورجوازية إلى الديمقراطية الجماعية التى حاولت الشيوعية تحقيقها باستئصال شأفة الطبقات البورجوازية . ومن ثم استطاعت أمريكا مواءمة نظام الحكم — مع الاحتفاظ باسمه وجوهرياته — برفق ونجاح مع الأحوال والاحتياجات المتغيرة بالضرورة . وهكذا واجه الأمريكيون « تحدى الظروف الجديدة » .

وتحققت مصلحة المواطن الأمريكى العادى الوثيقة الصلة بشئون بلده العامة عن طريق نظام تعليم يهدف بصفة خاصة إلى هذه النتيجة من ناحية ، ومن خلال نشر الأنباء والآراء على نطاق واسع لم يسبق له مثيل من ناحية أخرى . . . إن وسائل النشر والإعلام الأمريكية تكرس جزءاً كبيراً من الإهتمام يفوق ما تكرسه الدول الأوربية ، للتعليق على الأنباء ومناقشتها ، حتى تساعد الجمهور على تكوين الأحكام ، فهناك اللوحات والندوات والمناقشات والأحاديث الموجهة إلى ربات البيوت ، والحدائق ، وأندية المدنيين ورجال الأعمال . . . إلخ ، وكلها تلعب دوراً هاماً فى الحياة العامة . وهناك عدد قليل من الأوربيين يتحيزون ضد أمريكا لرسوخ الفكرة الشائعة القائلة بأن المعلومات التى تصل إلى الجمهور الأمريكى أقل تفصيلا من تلك التى تصل إلى الجمهور الأوربى . إلا أنه ليس هناك جمهور ، كالجمهور الأمريكى يستدرج إلى الإسهام فى الموضوعات العامة الهامة ، فيناقشها على نطاق واسع ويقتلها بحثاً .

ومن الإسهامات الملحوظة التى قدمتها أمريكا فى هذا المجال تشجيعها لكتاب المقالات الصحفية ، فهذه المقالات يكتبها الثقاة فى الشئون العامة وتنشرها عشرات الصحف يومياً ؛ وهى مستقلة عن رأى الصحيفة الخاص .

السياسة الخارجية :

وبالإضافة إلى هذه الإسهامات الإنشائية فى وسائل الديمقراطية الجماعية ، قدم الشعب الأمريكى أيضاً الدليل على قوته وسعة باعه فى مجال السياسة الخارجية ، ولعل هذا القول يبدو مثيراً للغرابة ، نظراً لأن السياسة الخارجية الأمريكية معرضة دائماً للنقد سواء داخل أمريكا أو خارجها .

إلا أنه يجدر بنا أن نعود إلى التأكيد بأنه لما كانت غايتنا هى تحديد حيوية أو تدهور حضارتنا ، فإننا لن نقيم وزناً لبعض القرارات السياسية المعينة التى اتخذتها الولايات المتحدة ، أو دقة الوسائل المستخدمة ، وإنما سنهتم بديناميكية السياسة الأمريكية الخارجية ومواءمتها للظروف الجديدة التى تشهدها ؛ فحتى أشد الناقدين قسوة على السياسة الخارجية الأمريكية لا يملك إلا أن يعترف بأن هذه الصفات الديناميكية لم تكن معدومة منذ بدأت الولايات المتحدة تتخلى عن العزلة فى السنوات الثلاثينية ، ومنذ دخلت حلبة السياسة العالمية .

إن فى الإمكان العثور على أوضح دليل على المواءمة ، إذا عاد الإنسان بذاكرته إلى خمسة عشر عاماً خلت وعرف كيف أن الغالبية الساحقة من الشعب الأمريكى تتمسك بشعار « لا يجب ألا نتدخل فى الشئون الأجنبية » فحتى فرانكلين روزفلت ، الذى لا يستطيع أحد أن يتهمه بالعزلة ،

شعر — فى أعوام ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، بل فى عام ١٩٣٩ — بأنه من الضرورى أن ينادى ، فى تصريحاته العامة ، بعدم التورط وعدم التدخل والحياد حين قال : « إن أبناءكم لن يرسلوا للاشتراك فى الحروب الأجنبية » .

أما اليوم فإن الجنود الأمريكيين ، تؤيدهم الأغلبية الساحقة من الشعب تقف فى أوربا والفيلبين واليابان وكوريا ، ولن يكون هناك دليل أكثر وضوحاً من ذلك على هذا التغير الأساسى فى موقف أمريكا ، فلو أن أى أمريكى تنبأ فى عام ١٩٣٥ بأن تلك ستكون السياسة الأمريكية الخارجية بعد خمسة عشر عاماً لسخر الجميع منه ، إن لم يفعلوا ماهو أكثر من السخرية . وبالمثل فإن القرارات الرئيسية التى اتخذت بعد الحرب فى السياسة الأمريكية الخارجية مثل « مشروع مارشال لمساعدة أوربا » ، وبرنامج ترومان بالنسبة لليونان وتركيا ، والجسر الجوى لفك حصار برلين ، وبرنامج النقطة الرابعة ، والقرار المفاجىء الذى اتخذ لمساعدة كوريا الجنوبية ، بعد الهجوم الشيوعى ، وقرار إدماج ألمانيا فى الدفاع عن أوربا — إن هذه كلها تعتبر أدلة على الشكل الجديد الذى أتخذته السياسة الأمريكية . ولعل هناك شعوبا أخرى ذات تجارب وتقاليد أكثر حاولت أن تصل إلى هذه الغايات بوسائل أكثر دهاء أو بصبر أطول ، ولكن هذا ليس موضوع بحثنا .

وكذلك يبين الحزم الذى أبدته الولايات المتحدة لمقاومة التوسع الشيوعى مدى الفارق بين موقف أمريكا فى هذا الشأن وما أبدته من تردد حيال ألمانيا النازية فى السنوات الثلاثينية ، ومثل ذلك أيضاً ما اتخذته لمقاومة العدوان فى كوريا على حين جمد الغرب حيال العدوان الذى حدث فى منشوريا سنة ١٩٣١ وفى أثيوبيا عام ١٩٣٥ وفى إعادة تسليم أراضى الرين عام ١٩٣٧ .

إن جميع خصائص السياسة الأمريكية ، منذ أن بدأت تلعب دوراً رئيسياً فى سياسة العالم ليست خصائص تدهور ، ولكنها خصائص دينامية شابة لم تكبحها التجربة والتقاليد بعد .

وهكذا فى السياسة الداخلية والخارجية معاً ، قدمت أمريكا الدليل الكافى على قدرتها على إدراك الموضوعات الكبرى والجرأة فى علاجها وهى الصفات التى تميزت بها دائماً الشعوب المتحضرة فى أوج حيويتها .

القوة الخلاقة فى الفن الأمريكى المعاصر

امتصت المشكلات المادية قوى الشعب الأمريكى حتى عهد قريب : ففى بادىء الأمر أقامت الأمة مجتمعاً أبيض متحدية بذلك الهنود والطبيعة ، ثم قهرت بعد ذلك الأرض الشاسعة التى لا نهاية لها حتى المحيط الهادى وطورتها ، وبعد ذلك استغلت ثراءها بطريقة محمومة ، ومن ثم قد يكون لنا عذر إذا قلنا إن النشاط الروحى ، وبالأخص الدين والفن ، يلعب دوراً أصغر ، ويمتص جزءاً من الطاقة المحلية أقل مما يحدث فى معظم الدول الأوربية والآسيوية ،ذلك لأن العقلية الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى لا يؤديان إلى الصفاء التام اللازم للتأمل الدينى أو النشاط الفنى .

غير أنه لوحظت ، فى العقود الأخيرة ، زيادة فى الاهتمام بالصفة الإنتاجية العادية فى الميادين الفنية . ويقول « جيمس تروسلو آدمز « James Truslow Adams » فى مؤلفه « Epic of America » :

« لو أننا لم ننجب ، فى ميدانى الفن والأدب ، رجالا يمكن أن يقال إنهم

فى مرتبة الأساتذة فى كل العصور ، فإننا أدينا أعمالا لولاها لأصبح العالم أكثر فقراً ، فضلا عن أنها ذات مرتبة عالية إذا قيست بمعايير العالم المعاصر .

ففى المسرحيات ، وإن لم يحدث ذلك فى أشكال التسلية الأخرى ، أثرت أمريكا تأثيراً قوياً على المسرح فى العالم الغربى بواسطة امتياز كتابها المسرحيين من « ماكسويل أندرسون Maxwell Anderson » إلى «آرثر ميلر Arthur Miller» ومن «روبرت شروود Robert Sherwood» إلى « يوجين أونيل Eugene O'neill » . وفى ميدان الروايات الخيالية أبدى كتاب مثل « سنكلير لويس Sinclair Lewis » و « جون ماركاند John Marquand » و « إرنست همنجواى Ernest Hemingway » و « جون ستينبك John Steinbeck » و « وليام فولكنر William Faulkner قوة ودفئاً دنيوياً لا يدل على التحلل ، لأنهم يخلقون أدباً يعبر أحسن تعبير عن مرتبة خاصة فى المجتمع الأمريكى الحاضر .

أما الحياة الموسيقية فقد بلغت فى الولايات المتحدة مستوى يضارع أحسن مستوى بلغته فى أى مكان آخر ، ومع أن أغلبية كبار الكتاب الموسيقيين والعازفين الأفراد وقواد الفرق الموسيقية الذين يؤدون عملهم فى الولايات المتحدة جىء بهم من أوربا ، فإن الاهتمام العظيم الذى يلقونه ، وكمال فرقهم الموسيقية ، لم يكن ليتحقق إلا فى « جو » من الاستجابة فى شعب يتمتع بتذوق الفن الموسيقى وتحظى فيه الموسيقى بحيوية فعلية فقد زاد عدد أوركسترات السيمفونيات التى كانت تملكها الولايات المتحدة فى عام ١٩٠٠ من عشر فرق إلى أكثر من ستمائة فرقة فى الوقت الحاضر ، ومع أن جميع هذه الفرق لا تستطيع أن

تفاخر بأنها من مرتبة فرق بوسطن أو فيلادلفيا ، إلا أن النمو العددى دليل على حيوية حياتها الموسيقية .

وبرغم أن الموسيقى والمسرحيات والأدب الأمريكى ، بلغت مستويات عالية ، إلا أنها لا تزال أبعد من أن تكون دليلا قوياً على قدرات أمريكا الخلاقة فى مجال الفنون . وفى رأينا أن المجالين اللذين أظهرت فيهما ابتكارات أصيلة هامة هما مجالا صناعة الفيلم والفن المعمارى .

إننا ، حينما نذكر إسهام أمريكا فى الميدان السينمائى ، لانقصد « الأفلام الخيالية » التى يشكو نقاد الفيلم الأمريكى منها دائماً ، وإنما نقصد المحاولات الجدية التى بذلها منتجون قلائل لتصوير مشاكل عصرنا فى بدائع فنية رائعة . وعلاوة على ذلك ، وجد شكل أمريكى أصيل من الفن فى الصور الهزلية الطافحة بالحياة . بيد أن التفكير فى ابتكارات « والت ديزنى Walt Disney » كعناصر فى المدنية الغربية قد يجعل الكثيرين يرفعون حواجبهم أكثر فأكثر دلالة على الدهشة .

إن خفة الفيلم الهزلى ليست فى حد ذاتها سبباً يحول دون أن يكون إسهامها عصرياً ثميناً فى ميدان الترويح الذى لم يختلف مطلقاً فى أية حضارة من الحضارات ، فلكل عصر أشكاله الخاصة فى فن التسلية : حقيقة أن كل وقت يبرز أشكالا تمثيلية جديدة تعتبر أحسن دليل على حيويته الثقافية ،

فإذا كانت أمريكا لا تفعل اليوم سوى التحول إلى التمثيل الصامت الذى عرفه القرن السابع عشر، أو أوبرات القرن التاسع عشر لتسلية جماهيرها — كما يزعم بعض حماة الثقافة — فإن ذلك يعتبر وحده سبباً كافياً للاهتمام بها .

وهذه القدرة على خلق أشكال فنية جديدة نموذجية لعصرنا ، وجدت تعبيراً قوياً فى مجال آخر من الفن ، هو الهندسة المعمارية .

إن الاسم الذى يطرأ على البال مباشرة فى هذا المجال هو « فرانك لويد رايت Frank Lloyd Wright الذى استحدث فى أوائل العقد الأول من هذا القرن أسلوباً ثورياً جديداً فى البناء ، وقد نال عدد من أتباعه تقديراً فى أوربا لسنوات كثيرة ، أكثر مما حصلوا عليه فى بلادهم الأصلية ، ولعل سبب ذلك قلة الاهتمام بالفن المعمارى فى أمريكا فى ذلك الوقت ، إذ كان من المعتاد أن يتم البناء بسرعة ، وكان إتمام العمل وفائدته أهم بكثير من الجمال وطراز البناء ، وما زال الأمريكيون يعتبرون الاستعانة بخدمات أى مهندس معمارى ضرباً من الرفاهية يمكن الاستغناء عنه فى المشروعات الباهظة التكاليف .

ويفسر ذلك ، إلى حد كبير ، كيف أن الأمة التى شيدت كثيراً من الأبنية الفخمة ذات الجمال الفاضح فى التخطيط الجرىء ، هى نفسها الأمة التى سمحت فى الوقت ذاته لأقسام كثيرة من مدنها بأن تبنى بلا أى طراز أو بطراز عادى لا ذوق فيه .

وبغض النظر عن هذه العقبات ، فقد أنجبت الولايات المتحدة الرجل الذى أصبح واحداً من المؤسسين الرئيسيين لطراز معمارى نعتقد جازمين أنه

إبداع فى هام كالأساليب القوطية والرومانية .

فى العقود الأولى من القرن الحالى، ازدهر هذا الطراز وانتشر على نطاق واسع جداً فى أوربا ، وقد أثار المعرض الدولى للهندسة المعمارية الحديثة الذى أقيم فى نيويورك عام ١٩٣٢ ، اهتماماً خاصاً من جانب بعض الأساتذة الأوربيين البارزين أمثال « لوكور بيزيه Le Corbusier » و « ميس فان در رو Mies Van der Rohe »، و « والتر جروبيوس Walter Gropius » و « ج.ج.ب. أود J.J.P. Oud »، كما كانت أهمية « فرانك لويد رايت » فى فترة ما ، حيث قال عنه متحف الفن الحديث « لقد اعتبره معظم الأوربيين المتقدمين ، المؤسس المنهك القوى لتقاليد قوية ، ورائداً رومانتيكياً لا مكان له فى المعمار الدقيق الجديد ، بينما وافق أمريكيون قلائل على أنه أستاذ شرف قديم ».. ومن المحتمل أن المعرض أسهم فى النشاط الجديد لرايت نفسه ، وفى التطور الجديد للمعمار الأمريكى الذى تظهر فيه معاً نماذج رايت وكوربيزيه المتعارضة ، واتسع نشاط المعمار الأمريكى بشكل هائل منذ ذلك الحين . بيد أن جمال المعمار الأمريكى لا يتحدى كل العصور ، فما زالت به ثغرات كثيرة فى حاجة إلى ملئها ، فمن المدهش مثلا أن شكل معظم الأبنية المقامة على جانبى شارع بارك افينيو بنيويورك ـ الذى كان من الممكن أن يصبح أجمل شوارع أمريكا باستثناء ليفر هاوس ـ يوحى بأنه اختير طبقاً لنظام بناء البلدية القديم . ومن المدهش أيضا أنه لم يعثر بعد على حل جمالى لوضع غرف آلات المصاعد فوق قمة جميع المنازل الأمريكية المكونة من عدد كبير من الشقق السكنية ذات الشقق . إلا أنه من المحقق أن أمة تستطيع أن تباهى بإبداعات مثل مركز روكفلر فى نيويورك ، وبرونكس هوايت ستون ،

وكبارى جورج واشنجطون وخليج سان فرانسسكو ، ومبنى إدارة قدامى المحاربين فى ديترويت ، ومصنع «واتس بات» البخارى بالقرب من دايتون بولاية ثينيسى ، ومركز جيتوى فى بيتسبوره وبعض القطاعات الجديدة فى لوس انجيلوس ؛ ليست بالتأكيد عرضة لخطر الانتكاس والعقم الفنى أو المعاناة من العجز فى القوة الخلاقة .

التقدم العلمى

خطا التقدم العلمى منذ بداية القرن الحالى خطوات جبارة مذهلة بحيث يصعب على الرجل الغربى فى منتصف القرن أن يفطن إلى هذا التغيير الحاسم الذى طرأ على مظاهر الحياة اليومية ، فهل حقاً تحركت أول سيارة ببطء على الأرض وأقلعت أول طائرة من الأرض بتردد عدة ياردات قليلة، وكانت تحفها المخاطر منذ أقل من ستين عاماً ؟ .

منذ أن ظهر أول جواد فى شوارع بابل حتى اختراع القاطرات البخارية ، أى منذ حوالى أربعة آلاف عام، لم يعرف الإنسان وسيلة انتقال أسرع من الجواد ، ومنذ مائة عام وجد الإنسان الفرصة ليوائم حياته مع التغيرات الثورية للآلة البخارية ، وفى فترة لا تزيد على خمسين عاماً بعد ذلك ، اندفع العلم بسرعة فى سلسلة اختراعات متتالية كان كل اختراع منها حاسماً فى استخدامه مثل السيارة ، والطائرة، والراديو ، والتليفزيون ، والطاقة الذرية ، والاندفاع الذاتى ، ثم الصاروخ . وكل هذا كان نتيجة عشرات الآلاف من التجارب الكبيرة والصغيرة فى علم الفيزيقيا الذى أبدى القرن العشرون خصوبةً شديدةً فيه .

ومنذ مئات السنين كان الكون الذى يعنى الإنسان بالحياة فيه ، محصوراً بين حدود الذرة باعتبارها الجزىء الأصغر غير القابل للانقسام من جانب، والأفلاك باعتبارها الحد الخارجى للفضاء المعروف من جانب آخر، ولكن العلم حطم هذه الحدود الآن ، وأثبت علم الفيزيقيا أن الذرة تشتمل على ضرب من النظام الفلكى ، ضئيل بشكل لامتناهى ، وأظهر الفلك أن عالم الكواكب يشتمل على عدد لانهاية له من الأجرام السماوية بمثابة جزيرة من العوالم فى الفضاء ، ومن ثم تكونت الأجرام السماوية بدورها من ذرة ،مادتها من أجزاء لا يمكن تصورها .

ويقف الإنسان الغربى مترنحاً عند حافة هذه الهاوية من اللانهاية التى وضعها علم القرن العشرين أمام ناظريه ... لقد شكل تفتيت الذرة واحداً من أعظم النتائج الرهيبة التى حققها العلم ، وفتح بذلك مصدراً من الطاقة لا يمكن تقديره ، ولا نستطيع حتى الآن أن نتكهن بجميع نتائجه .

غير أن الإنسان البروميثى (نسبةً إلى بروميثوث أحد أبطال الأساطير اليونانية) الذى يهتم مطلقاً من كل قيد ، يطوق نفسه فعلا بمشروعات جديدة أكثر جرأةً ليحطم قيود وجوده الأرضى ، فالعلم يدرس بطريقة جديدة ؛ فهناك المشروعات التى كانت تعتبر خيالية فى يوم ما ، مثل إرسال سفينة فى الفضاء فوق الأرض ، وإرسال صواريخ إلى الكواكب الأخرى، وإطالة عمر الإنسان ، وتحويل الخصائص الذهنية والخلقية للفرد والأجناس صناعياً .

وبالمثل حدث تقدم مذهل فى الطب ، وفى علم الكيمياء ، وعلم الحياة

وعلم النفس ، والعلوم الاجتماعية. وحسبنا أن نذكر هؤلاء فقط. وتتداخل أعمال أوربا وأمريكا فى هذه الميادين ، وتتشابك مع بعضها بعضاً بحيث تصعب التفرقة بين الدور الإنشائى الذى تلعبه كل منهما . وأقصى ما يستطيع المرء أن يقوله هو أن الجهد العلمى فى أوربا وُجِّهَ أكثره إلى الأبحاث العلمية الأساسية الخالصة ، وأن أمريكا وجَّهته على نحو أكثر إلى التطبيق العملى، وأثبت كل منهما أن قرننا من أكثر القرون إخصاباً فى الأعمال العلمية .

الجزء الثالث

الأوضـاع المقبـلة

- ١٢ -

العـالم الواحد المقبل

أجرينا فى الجزء الأول من هـذا الكتاب تحليل بعض الفلسفات الأساسية التى تدور حول مجرى حياة الحضارات ، ووصلنا إلى مجموعة من خصائصها الرئيسية . . . وعلى أساس الطابع العام للماضى حاولنا أن نحدد ، فى القسم الثانى ، مرحلة التطور التى بلغتها الحضارة الغربية ومدى قوتها الخلاقة الحالية ، وأدى ذلك بنا إلى استنتاج أنه من المحتمل أن يكون عالمنا حالياً فى طور «المعاناة» الذى يسبق ، عادة ، «فترة السلام العالمى ، كما يسميها « شبنجلر » أو الدولة العالمية كما يسميها توينبى .

وبالنسبة للقول الأخير ، فقد أيد توينبى هذا الرأى فى محاضرته التى ألقاها بأدنبرة فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ ، وتنبأ فيها بأن وجه الكرة الأرضية سوف يتوحد سياسياً فى مدى نصف قرن عن طريق تركيز القوة العسكرية التى لا تقاوم فى مجموعة قليلة من الأيدى ، وسواء جاء هذا التوحيد نتيجة لحرب عالمية أو بدونها ، فإن هذا مر لم يقطع فيه برأى .

إلا أنه ليس من الضرورى أن نعتمد على فلسفة التاريخ المعقدة لنصل إلى نفس النتيجة ، فإذا استخدمنا المقياس العادى ذا الاعتبار الكبير ، أى سرعة المواصلات ، تبين لنا أن العالم قد تقلص بخطوات متزايدة مع تقدم الفن الصناعى... ففى عام ١٨٧٢ أثار جولز فيرن Jules Verne ضجة بقصته عن رحلة «فلياس فوج Phileas Fogg » حول العالم فى ثمانين يوماً ،

أما الآن فإن فى استطاعة المرء أن يقوم بهذه الرحلة بسهولة فى ثمانية أيام، وقد لا تستغرق هذه الرحلة فى المستقبل غير البعيد أكثر من ثمانى ساعات عند ما يطير بسرعة تفوق سرعة الصوت .

وهذا التغيير يؤثر تأثير جوهرياً على بنيان الدول الغربية ، بل العالم كله فى واقع الأمر . . . وتقترب سريعاً المرحلة التى لن نجد فيها اليد اليسرى تحاول قطع اليد اليمنى ، لأن الاثنتين جزء من جسد واحد ، ومن ثم فإن الاستمرار فى الحرب على نطاق العصر الحاضر أشبه بطير ينقر قلبه بمنقاره .

إن مجال الحرب العنصرية الشاملة وتعقيداتها يمتص جزءاً غير مناسب من الطاقة القومية بدرجة تجعل من المستحيل على أية دولة المضى فى الحروب فترة كبيرة دون أن تنزل بها نتائج مروعة ، لأن القوة المدمرة التى وضعها تقدم الفنون الصناعية فى يدى الإنسان بلغت درجة رهيبة بحيث لم تعد الحضارة قادرة على استخدامها إلى ما لا نهاية للقتال وتدمير أجزاء من ذاتها .

ثم إن الجهد الذى تتطلبه الحرب الحديثة لم يزد بالنسبة للحرب الشاملة الهائلة فحسب ، وإنما ازداد ثلاثة أمثاله بالنسبة للاستعداد لها قبل خوض غمارها، ثم إعادة البناء الهائل الذى يستلزمها بعد ذلك .

ونتيجةً لذلك ، فإن القوة لا تستأصل شأفة الأفراد فحسب ، ولكنها تصيب الأمة المعادية بجراح قاتلة ، وقد تقضى على حياتها كمجتمع متحضر ، وبهذا لا يمكن أن يبقى العالم مقسما بين الجماعات المتعارضة فى النهاية ، ونظراً لأن الحرب تؤثر على حياة كل رجل وامرأة وطفل ، وتسبب خراباً عاماً ،

وتستلزم جهداً جباراً ، فقد أصبحت الشعوب تكرهها كراهية عميقة .

وحتى بغض النظر عن آثارها العسكرية ، فإن تشابك مصالح العالم واضح تماماً . . فألمانيا الغربية لا تستطيع أن تعيش بدون ألمانيا الشرقية ، ولا يمكن أن تعيش أوربا الغربية المصنعة بدون أوربا الشرقية الزراعية ، ولا يمكن أن ترفع آسيا مستويات معيشتها بغير الحصول على المساعدة الفنية من الغرب ، ولا أن تعيش أمريكا الشمالية بدون سلع الجزء الجنوبي من تلك القارة ؛ ولا أن يحتفظ أى جزء متحضر من العالم بطريقته فى الحياة بغير أن يقدر الإنتاج الصناعى الهائل للولايات المتحدة .

وفى ظل هذه الظروف ، فإن رغبة العالم فى السلام ، وفى قيام شكل من النظام العالمى ليست بمجرد مثل دينى أعلى ، ولكنها حاجة ملحة للمحافظة على الذات . إننا لم نصل بعد إلى العالم الواحد ، ولكنه سوف يصبح ضرورة ملحة إن عاجلا أو آجلا .

ولن يجىء العالم المتحد عن طريق تنفيذ مشروع أعد بعناية ، أو عن طريق شخص أو دستور ، فإنه فى سبيل التشكيل عن طريق منطق الأحداث المجرد ، ونتيجة للضرورات السياسية والاقتصادية القاسية ، وسوف يأتى العالم الواحد سواء بالطريق السلمى أو بطريق العنف .

ومن الناحية النظرية ، يستطيع الإنسان أن يتصور احتمالا ثالثاً ، فقد تستمر الحرب الباردة بين الشيوعيين والدول الديمقراطية إلى مالا نهاية ، وتتخللها ، اصطدامات مسلحة على الحدود ، مثل ما حدث فى كوريا والهند الصينية ، وهذا على نحو طويل المدى أو دائم .

فهل من المحتمل أن يتحقق هذا الاحتمال ؟

ليس فى استطاعة أحد أن يتنبأ بالوقت الذى يستمره التوتر الحالى ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يرى أنه من غير المحتمل أن تصبح هذه الحالة شبه دائمة نتيجة لسببين أساسيين هما : مجال الحرب الشاملة ، وتشابك العالم الحديث نتيجة لتطور الفنون الصناعية . . .

فالأول يعنى أنه — على عكس المواقف التى نشأت فى الماضى حيث كانت حياة الأمة العادية يمكن أن تستمر ، بينما الحروب مشتعلة الأوار على الحدود ، فإن أى مصادمات مسلحة بين جماعتين متخاصمتين فى عصرنا هذا ستؤدى إن عاجلا أو آجلا إلى حرب شاملة .

الثانى — معناه أنه إذا اختفت المصادمات المسلحة فترة من الوقت تكفى لاستهلال تعايش سلمى حقيق ، فإن التفاعل والنفوذ المشترك سوف يؤدى حتما إلى إيجاد درجة معينة من الاندماج . ومن ثم فعلى طول المدى ، يبدو أن الأمر الأكثر احتمالا هو ألا تستمر حالة الحرب الباردة الحالية إلى مالا نهاية ، وإنما سيجد العالم حلا ، سواء أكان ذلك بالطريق السلمى أم بطريق القوة .

— ١٣ —

الطريق السلمى

امتزاج الشرق والغرب

برغم أن كتائب الملايين المتعارضة تعد للمعركة ، فما زال هناك متسع من الوقت للاستنجاد بصوت العقل ، فليس هناك ثمة سبب معقول يحول دون قيام تعايش سلمى بين العالمين الديمقراطى والشيوعى ، فلماذا لا يكون كل منهما سعيداً متمتعاً بحياة رغدة بداخل منطقته الخاصة دون أن يضايق العالم الآخر ، لولا أن العقيدة الماركسية — اللينينية عن الثورة البروليتارية تحول دون قيام هذا الموقف السعيد ، والدليل الكلمات التالية :

« إن قيام الجمهورية السوفيتية مع الدول الاستعمارية جنباً إلى جنب أمر لا يمكن التفكير فيه ، فإحداهما يجب أن تنتصر فى النهاية . وقبل أن تجىء هذه النهاية لا مناص من حدوث اصطدامات مروعة بين الجمهورية السوفيتية والدول البورجوازية » .

هكذا كتب لينين عام ١٩١٩ فى تقرير قدمه للجنة المركزية فى المؤتمر الثامن للحزب . وفيما بعد قال ستالين « إن أعظم مشكلة تواجهها الثورة الروسية هى الحاجة إلى تنشيط الثورة العالمية » ، ولخص هذا الموضوع الأساسى فى عنوان لقسم من برنامج الدولية الشيوعية هو أن : « الغرض النهائى لهذه المنظمة هو الشيوعية العالمية » . . . ومادام هذا المبدأ باقياً فإنه سيشكل عقبة لا يمكن تخطيها فى سبيل التعايش السلمى بين هذين النظامين السياسيين .

وليست هناك دلائل على أن زعماء العالم الشيوعى يعتزمون التخلى عن هذا المبدأ إلا حيثما تدعو الضرورة الاستراتيجية الموقوتة . غير أننا إذا وقفنا بضمير نقى أمام حكم التاريخ ، فإن علينا أن نؤيد هذا الاحتمال دائماً ، وعندئذ سوف يتحقق فعلا . ومن الجائز أن تحدث تغييرات داخلية سياسية أو اقتصادية أو شخصية فى روسيا أو فى الصين ، يمكن أن تستأصل فى فترة طويلة شأفة تهديد الشيوعية للعالم الخارجى ، فالأزمات الاقتصادية ، والنزاع الداخلى ، وثورات القصر ، والصراع من أجل الزعامة وماشاكل ذلك إنما هى أحداث معروفة فى تاريخ الدول الأوتوقراطية . أما العالم الحر فإنه ، بدوره ، فى سبيل بلوغ درجة كافية من القوة يمكن أن تجعل الأعمال العدوانية تبدو غير ملائمة بالنسبة للقادة الشيوعيين .

وإذا حدث أحد هذه الاحتمالات ، فلن يضع العالم الحر ، قطعاً ، أية عقبات أمام التعايش السلمى ، بعد أن صرح ساسة الغرب بذلك مرات ومرات .

وإذا أمكن تحقيق فترة من السلام الحقيقى ، وحرية أكبر للاختلاط ، فسيعنى ذلك بالتأكيد أن يبدأ كل من العالمين فى التأثير على حياة العالم الآخر ومفاهيمه . وبرغم ما بين أشكال المجتمع الديمقراطى والمجتمع الماركسى من تناقض فى أشكالهما المتطرفة الموجودة فى كل من الولايات المتحدة وروسيا على التعاقب ، فإن أحسن ما فيهما من عناصر لن تفشل فى تأثير أحدها على الآخر ، فتضيق بذلك الفجوة التى تفصل بين الدولتين إلى درجة تجعلهما تدركان أنهما لم تعودا بحاجة إلى أن تواجه إحداهما الأخرى بالخناجر .

ولقد نجحت دول أوربية كثيرة فى مزج عناصر من المذهبين الديمقراطى والماركسى ، فإن الدانيمارك والسويد والنرويج ظلت تحكمها ، وقتاً طويلا ، حكومات طبقت عناصر الاشتراكية الماركسية ممزوجة بعناصر الحرية الاقتصادية والفردية ، ومع ذلك فإنها ظلت تحتفظ بمستوى معيشة مرتفع لفترة طويلة ، وتمتعت برخاء وطيد ، وساد الخير جميع الطبقات . كذلك أتمت بلجيكا ، فى ظل نظام مماثل ، نهضة من أحسن النهضات التى شهدتها أوربا بعد الحرب ، وأتمت هولندا انتعاشها الاقتصادى فى ظل حكومات متوالية كانت تضم ممثلين عن الاشتراكيين والمسيحيين ، وفلسفات المشروعات الحرة ، وذلك دون أن تحدث أية إضرابات كبرى منذ انتهت الحرب ، وتوطدت العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال بشكل لم يسبق له مثيل . ولعل النقاد بداخل هذه الدول وخارجها يقولون إنه كان من الممكن تحقيق نتائج أحسن عن طريق التطبيق غير الزائف لنظام اقتصادى وسياسى مغاير ، بطريقة أو بأخرى ، ولكننا لن نتعرض هنا لمدى ما فى هذا الادعاء من صحة أو زيف ، لأن النقطة الهامة عندنا هى ما إذا كان من الممكن مزج النظريات المختلفة ، وهل من الممكن تطبيق مثل هذا النظام الجديد ؟

ولقد أجابت الحقائق التى سبق أن أوردناها ، والتجارب الأخرى ، على هذين السؤالين بالإيجاب .

بل إن زعماء النظامين الرئيسيين المتعارضين لم يستطيعوا ، عند التطبيق ، تنفيذ نظرياتهم دون أن يمزجوها بعناصر من النظام المضاد ، بصرف النظر عن مدى ترددهم أو « لا شعورهم » عند ما فعلوا ذلك .

وفى مجال السياسة ، أظهرت الديمقراطيات فى عشرات السنين تطوراً نحو زيادة سلطة الإدارة المركزية برغم محافظتها على المبدأ الرئيسى ، وهو أن كل السلطة مستمدة من الشعب عن طريق البرلمان .

وفى الاقتصاد، نسمع أن جميع الديمقراطيات ، تقريباً تحافظ على حرية المنافسة بدرجات متفاوتة ، إلا أنها تحوطها بإطار مصنوع محلياً ، وهو إطار كاد يقترب فى وقت الحرب مثلا ، من الدولة الجماعية ، فحتى فى أمريكا لم يختلف عنصر الاقتصاد الموجه اختفاء تاماً منذ ظهور مبدأ « الخطة الاقتصادية الجديدة New Deal » .

وفى التجارة والصناعة بالدول الديمقراطية ، ما زالت المشروعات الخاصة والملكية الخاصة هى المبدأ السارى فيما عدا استثناءات قليلة . ومع ذلك ، فإن السيطرة الفعلية — كما أشار « جيمس بيرنهام James Burnham » فى كتاب « الثورة الإدارية » ، حتى على المشروعات الخاصة ، انتقلت من أيدى حملة الأسهم إلى أيدى المديرين ، وفى استطاعة المرء أن يعترف بهذا الاتجاه على نحو واقعى بغير أن ينبه إلى القول بأنه يجب أن تتركز جميع السلطات ووسائل الإنتاج فى أيدى الدولة فى النهاية، وذلك لأن الاتجاه ، كان ولا يزال ، نحو نقل السلطة إلى الحكومات ، والمديرين ، والمنفذين وقادة العمال ، إلا أن الاختلاف الأساسى ما زال قائماً بين مجتمع لا « تفرض » السلطة فيه ، وإنما « استمدت » من الشعب والناخبين وأصحاب المشروعات والعمال ، وبين مجتمع يسير على هدى مبدأ الفوهرر .

وعلاوة على ذلك ، فإن الديمقراطيات، فى بنائها الاجتماعى ، عمدت منذ عدة عقود إلى المداومة على تضييق الفوارق بين الطبقات، نتيجة لتصاعد

الضرائب بشكل ثابت على الدخل الكبير ، وانتشار التشريع الاجتماعى ، وهكذا استطاعت أن تتم ، على نحو وثيق ، المساواة الاجتماعية ، وهى مبدأ ماركس فى الأصل .

أما المجتمع الشيوعى ، فأبدى من جانبه ميلا معارضاً أكثر وضوحاً ، يتمثل فى إعادة استخدام عناصر معينة كان لها ، من قبل، خصائص النظام الرأسمالى أو المجتمع البورجوازى . . . ولقد قال « لينين » ذات مرة : « إن البيروقراطية والجيش الدائم من خصائص الدولة البورجوازية » . أما الآن ، فإن لدى الدولة الشيوعية الأولى أوسع بيروقراطية، وأكبر جيش فى العالم ، ومنذ بدىء بتنفيذ السياسة الاقتصادية الجديدة فى عام ١٩٢١ ، وهذه الدولة مضطرة إلى إعادة إدخال عناصر معينة من اقتصاد المشروعات الحرة ، ورغم أنه كان مسموحاً بمزاولة العمل الخاص واقتناء المزرعة الخاصة فى نظام السياسة الاقتصادية الجديدة ، إلا أن هذا الترخيص ما لبث أن ألغى أخيراً وأدخل بالاقتصاد الشيوعى نظام « انعدام المساواة فى الأجر » على شكل مكافآت تشجيعية ، ومكافآت الأسبقيات ، والامتيازات ، . . . الخ ، وعادت أيضاً بعض القيم البورجوازية كالروابط العائلية، وتشجيع التناسل ، ومنع الإجهاض، والتسامح الدينى ، وضريبة الدخل ، واستخدام البروتوكول، والأزياء الرسمية ، وآداب السلوك . . . وقد قال ديبلوماسى بارز هو السير دافيد كيلى — عند عودته من موسكو فى عام ١٩٥١ بعد أن قام بمهمة رسمية هناك استغرقت سنتين — فى مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز عن «الثورة المضادة » هناك مايلى :

«لقد حاد الثوار الأوائل عن كل الأفكار التقليدية المرتبطة بالاشتراكية الغربية مثل الدولية ، والوطنية ، والزواج ، والأسرة ، والتعليم ، والدين ، وسيادة البروليتاريا ، والتعاطف المبهم العام مع طابع حديث فى الأدب والفـــن ، ويجرى بناء الدولة الجديدة على أساس سلبى للموقف الاشتراكى التقليدى حيال كل نقطة من هذه النقط ، ويمكن أن يطلق على هـذه العملية بحق — بعد أن تكشفت خطوطها الرئيسية — أنها الثورة المضادة . . . . »

« وفى جميع الشئون المتصلة بالأخلاق والأسرة ،أصبحت هذه الدولة دولة رجعية تماماً ، بل أكثر الدول التى عرفتها تزمتاً . . . . . »

«أما التحول الأساسى الذى لم يكن منتظراً فكان يتمثل فى التخلى التام عن مزاولة مجتمع البروليتاريا بمثله الأعلى الذى لا ينفصل ، وهو المساواة الاشتراكية . . إنهم يبتعدون الآن عن المساواة الاشتراكية بنفس السرعة التى يحاول بها الغرب أن يقترب منها . . . »

ومن المحتمل جداً أنه إذا رفع الستار الحديدى ، ولو بوصات قليلة ، فإن نسيم الهواء الطلق الداخل لن يلبث أن ينعش كل حياة خلفه ، ولسوف تتوقف نتيجة معركة الأفكار المقبلة على قوة أفكار الجانبين بمجرد تحررهما من قيود الدعاية ومن تأثير القوة المسلحة .

وليس هناك ما يدفع الغرب إلى الخوف من هذا النضال بلا أسلحة ، بل إن هناك جميع الأسباب التى تدفعه إلى الترحيب به ، فإذا ثبت أنه أضعف من أن يفوز فيجب أن يتقبل الهزيمة ، وإنما بمفاهيم جديدة قوية .

أما إذا كان الغرب لا يزال صحيح البنية قوياً ، فليس هناك ما يخشاه من

مثل هذا النضال ، فإن فى استطاعته أن يقدم — فى المجال المادى — مستويات معيشة أعلى ، عن طريق التقدم الصناعى الفنى، أما فى ميدان النضال الروحى مع الشيوعية ، فإن الحضارة الغربية ما زالت تعتنق القضايا التالية التى لا تحيد عنها وهى :

« إن الإنسان لم يخلق للدولة ، ولكن الدولة خلقت للانسان » .

« الشعب لم يوجد ليخدم حكامه ، ولكن الحكام يخدمون الشعب » .

« خلق الإنسان ليخدم غاية من غايات خالقه ، ولكن الخالق لا يخدم غرض الدولة » .

وليس الغرب هو الذى راوغ فى الماضى فى معركة الأفكار ، وهو لن يراوغ فى هذه المعركة فى المستقبل . . . . وما زال الطريق السلبى مفتوحاً .

— ١٤ —

طريق العنف إذا وقعت الحرب

ما زال طريق التعايش السلمى المتجانس مفتوحاً إذن ، وما زال الاختيار بين الحرب والسلام رهناً بمشيئة الكرملين . والغرب بدوره يستطيع أن يعرض شروطاً معتدلة للتعاون، ويستطيع أن يحاول خلق موقف من القوة بحيث يعرقل العدوان ، غير أن القرار النهائى ليس فى يد الغرب . وهذا هو مصير الطريق السلمى .

إلا إنه من سوء الحظ أن سلسلة طويلة من الأحداث أثبتت أن الشيوعية تقوم على أساس بسط نفوذها على مناطق جديدة متزايدة مادام ذلك يتم دون أن يكون له ردّ فعل ، فقد بسطت نفوذها فى السنوات العشر من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٩ على ٧٧٠ مليون نسمة بعد أن كانوا ١٧٠ مليون نسمة فقط .

ومن ثم كان من الضرورى أن نضع فى اعتبارنا ، مع التردد ، إمكان اندماج العالمين عن طريق اشتباك الجيوش ، كما حدث فى كثير من المناسبات التاريخية الماضية .

وإذا حدث هذا الصدام المسلح ، فمن المحتمل أن تكون تلك هى المعركة الأخيرة للحضارة الغربية ، وسوف يكون دورها مماثلا للدور الذى لعبته الحرب التى دارت رحاها بين مارك أنتونى وأكتافيوس فى الحضارة

الكلاسيكية ، تلك الحرب التى أخضعت جميع المنطقة التى كانت تشملها تلك الحضارة آنذاك لزعامة واحدة ، وبذلك قامت الدولة العالمية .

ولكن البديل العصرى المقابل لهذا الصراع سيكون أوسع مدى آلاف المرات ، وأكثر تدميراً . . . وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن هذا الصدام سيكون أعظم وأعنف صدام حدث فى تاريخ البشرية ، نظراً لأن أشد الأسلحة فتكا ستستخدم فيه . صحيح أنه عندما خرج « أجزرسيس » « Xerxes » لغزو اليونان كان عدد الجيش الذى يقوده عشرة آلاف رجل بينما سار الإسكندر الأكبر فى آسيا بجيش قوامه ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، وعند ما سير نابليون حملته إلى روسيا كان يحشد أكبر جيش عرفه التاريخ فقد كان تعداده ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكن جميع هذه الأرقام تافهة إذا قورنت بالحشود الهـــائلة التى ستلقى إلى المعركة إذا ما نشبت الحرب العالمية الثالثة ، فقد يقف ما يربو على عشرة ملايين رجل وامرأة فى زى الحرب على كلا الجانبين ، بينما يعمل مئات الملايين من المدنيين خلفهم كالعبيد لأداء المهام التى ستوكل إليهم ، وهم يقاسون صعوبات ومخاطر مؤلمة ، ولسوف تدمر المدن وكل الدول .

غير أن هناك ماهو أسوأ . إنه الخضوع للطغيان ، وهى كلمة لها مغزاها الحقيقى عند الملايين التى عاشت فى ظله .

وعلينا ، كرجال معقولين واقعيين ، أن نزن النتيجة : هل يستطيع الغرب أن يحرز النصر إذا فرضت الحرب عليه ؟

إنه سيحرزه حتما ، فليس هناك أدنى شك فى هذه النتيجة . ولذلك أربعة أسباب رئيسية .. اثنان منها ماديان ، والآخران روحيان :

الإمكانيات الصناعيـة :

إن أول كل شيء ، هو أن الغرب يملك أعظم إمكانية صناعية ، فإذا وقعت الحرب العـالمية الثـالثة فستكون المعركة معركة إنتاج ، كما كانت الحال فى الحرب الأخيرة ، ومعركة فنون صناعية وعلم أكثر مما كانت فى الحرب الماضية، والغرب متقدم فى الإمكانيات الصناعية الحربية والفنون الصناعية على العالم الشيوعى حتى ولو فقد احتكار القنبلة الذرية .

ويكفى أن نذكر أرقاماً قليلة لبيان تفوقه الإنتاجى (مع العلم بأن الأرقام الانتاجية الخاصة بالاتحاد السوفيتى مأخوذة من الإحصاءات التى اشتمل عليها تقرير مالينكوف إلى المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعى فى أكتوبر ١٩٥٢ ، وأكدتها المنظمة الاقتصادية للأمم المتحدة وخبراء أوربا وغـيرهم من الخبراء الغربيين) .

قدر مجموع إنتاج روسيا والدول الأوربية التى تدور فى فلكها من الصلب فى عام ١٩٥٢ بـ (٥١ مليون طن) مقابل ١١٣ مليون طن أنتجتها أمريكا و ٧٠ مليون طن أنتجتها أوربا الغربية . وفى عام ١٩٥٣ كانت تقديرات الأمم المتحدة هى : ٥٥ مليون طن إنتاج الاتحاد السوفيتى وتوابعه — و ١١٨ مليون طن إنتاج أمريكا — ، و ٧٢ مليون طن إنتاج أوربا الغربية .

أما إنتاج الفحم فى روسيا وتوابعها فكان فى عام ١٩٥٢ أكثر من ٣٠٠

مليون طن مقابل ٥٥١ مليون طن أنتجتها الولايات المتحدة ، و٤٧٢ مليون طن أنتجتها أوربا الغربية . وقدر إنتاج الكهرباء فى روسيا وتوابعها خلال عام ١٩٥٢ بـ ١١٧ بليون كيلووات — ساعة ، مقابل ٤٠٠ بليون فى الولايات المتحدة ، ونحو نصف هذا المقدار فى أوربا الغربية .

وبلغ إنتاج البترول فى روسيا وتوابعها خلال عام ١٩٥٢ حوالى ١,٠٦٠,٠٠٠ برميل فى اليوم أو ٨٪ من إنتاج العالم ، مقابل ٦,٧٠٠,٠٠٠ برميل فى اليوم أو ٥٢٪ من إنتاج العالم فى الولايات المتحدة و (٧٠٪ من إنتاج نصف الكرة الغربى) و ٢,٢٥٠,٠٠٠ برميل يومياً ، أو ٦٦٪ من إنتاج الشرق الأوسط .

ولكى نضع هذه الأرقام فى مكانها الصحيح ، حتى لا نستنتج منها نتائج متفائلة جداً ، يجب أن نضع فى اعتبارنا عدة أمور :

أولها — أن جزءاً صغيراً من المجموع الممكن إنتاجه من المواد الخام الأساسية فى الدول الخاضعة للحكم الشيوعى ، يذهب للاستهلاك المدنى على نقيض ما يحدث فى الدول الديمقراطية ، ومن ثم فإن مقارنة القوة الإنتاجية القائمة على أرقام الإنتاج الكلى فقط قد تؤدى بنا إلى نتائج مغالية فى التفاؤل .

وثانيا — يبدو بالإضافة إلى ذلك ، وحسب رأى الخبراء الذين درسوا هذه الشئون عن كثب ، أن متوسط الإنتاج السوفيتى من الأسلحة ، على أساس وحدة المواد الخام المستعملة ، أعلى من إنتاج الولايات المتحدة .

وثالثا — لم يتحقق بعد بدرجة كافية أن إنتاج السوفيت من

المواد الخام زاد فى العقد الأخير بدرجة مدهشة تصل فى بعض الأنواع الهامة إلى نسبة مئوية أعلى من الولايات المتحدة وأوربا الغربية . ولقد زاد إنتاج روسيا من الصلب فى عام ١٩٥٢ بنسبة ٩٠٪ تقريباً عما كان عليه عام ١٩٤٠ وزاد إنتاج الفحم بنسبة ٨٠٪ وزاد إنتاج الكهرباء بنسبة ١٤٠٪ عما كان عليه فى عام ١٩٤٠ .

وأخيراً ، يجب أن نتحقق من أن الاتحاد السوفيتى فى طريقه إلى — بل تجاوز — تحقيق الأهداف التى أعلنها ستالين فى خطابه الذى ألقاه فى مسرح بولشوى فى شهر فبراير ١٩٤٦ ، بوصفها ضرورية لسلامة روسيا ، ولعله كان يعنى أنها ضرورية لإمكان المضى فى حرب طويلة الأمد. ويقدم العمود الأول من الجدول التالى ، الأرقام التى أعلن ستالين أنها يجب أن تنجز حوالى عام ١٩٦٠ أو عام ١٩٦٥ ، ويبدو أن العقل لا يقبلها إذا ما قورنت بأرقام الإنتاج التى تحت أيدينا ، وهى أرقام عام ١٩٤٠ التى ذكرت فى العمود الثانى ، أما العمود الثالث فيبين الإنتاج الفعلى فى عام ١٩٥٢ ، بينما يبين العمود الرابع أهداف مشروع الخمس سنوات لعام ١٩٥٥ الذى يبدو ـ على أساس إنتاج عام ١٩٥٢ . ومعدل الزيادة فى السنوات الأخيرة ـ أنه من الممكن الوصول إليه ، وجميع هذه الأرقام ، لا تشمل أرقام الإنتاج فى الدول الضالعة مع روسيا .

	الهدف الأصلى لسنوات ١٩٦٠-١٩٦٥	إنتاج ١٩٤٠	إنتاج ١٩٥٢	الهدف المعدل ١٩٥٥
	(بملايين الأطنان المترية)			
حديد خام	٥٠	١٥	٢٥	٣٤
صلب خام	٦٠	١٨,٣	٣٥	٤٤,٧
فحم	٥٠٠	١٦٦	٣٠٠	٣٧٧
بترول	٦٠	٣١	٤٧	٦٩,٥

ولكى ندرك إلى أى مدى تقرب أهداف عام ١٩٥٥ الكتلة السوفيتية لكل من الحد الأدنى لاحتياجات السلامة التى حدد إنجازها أصلا بعام ١٩٦٠ أو ١٩٦٥ ، يجب أن تضاف إلى الأولى أرقام إنتاج الدول الضالعة مع روسيا ، وهى أرقام يصعب التأكد منها ، ولكنها جوهرية فى بعض الأنواع.

ولقد قدر إنتاج الصلب فى هذه البلاد فى عام ١٩٥٣ مثلا بثلاثة عشر مليون طن ، فإذا افترضنا أن هذا الرقم ارتفع فى عام ١٩٥٥ إلى حوالى ١٦ مليون طن ، فيستتبع ذلك أن الإنتاج المحلى وإنتاج البلدان التابعة لروسيا فى ذلك العام قد وصل إلى كمية كان من المقرر أن يصل إليها فى عام ١٩٦٠ أو ١٩٦٥ فقط .

كذلك يمكننا أن نرى أن هدف ١٩٥٥ الجديد بالنسبة للزيت فى الاتحاد السوفيتى وحده ، بصرف النظر عن إنتاج الدول التابعة له ،

قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً فوق هدف ١٩٦٠ — ١٩٦٥ الأصلى ولهذا ، يجب أن نفترض ، بالنسبة لبعض المواد الخام الهامة ، أن الحد الأدنى من « سلامة الاتحاد السوفيتى » الذي أعلنه ستالين فى عام ١٩٤٦ سوف يتحقق قبل الوقت المحدد بفترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات . وما دامت الإمكانية الصناعية هى العامل الأول الآن فى تحديد طاقة الدولة على احتمال الحرب ، وبالتالى قدرتها على اتباع سياسة خارجية تنطوى على المغامرة بالحرب ، فإن من الصعب اعتبارنا مبالغين فى تقدير الدلالة المنذرة بالشر فى الأرقام السابقة .

ومع ذلك ، فحتى إذا نظرنا إلى هذه العوامل بعين الاعتبار ، فإن الأرقام السالفة الذكر تبين بجلاء أن الموارد الموجودة تحت تصرف الشيوعية مازالت أقل بكثير من تلك التى فى حوزة العالم الحر ، ومن الواضح من الناحية الأخرى ، أن هذه الأرقام قد تقارب — أو ربما تفوق — أرقام نصف الكرة الغربى ، إذا سقطت أوربا الغربية والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا فى قبضة الشيوعية ، فإذا قدر أن يحدث ذلك ، فإن قارة أوراسيا سوف تصبح قلعة منيعة لا يمكن اقتحامها فعلا ، وعندئذ يكون الوضع خطيراً وأليما بالنسبة لنصف الكرة الغربى . ولقد وصف الرئيس أيزنهاور هذا الموقف فى التقرير الأخير الذى قدمه بوصفه رئيساً للجيش فى عام ١٩٤٨ فى الكلمات التالية :

« ستصبح سلامة أمريكا معرضة لخطر داهم ، وسنجد أنفسنا ، خلال المحيط الضيق والحواجز القطبية ، أمام عازل استبدادى هائل ينتشر أمام

وخلف مناطق أوراسيا التى كانت تشغلها الإمبراطورية الرومانية ، وفارس القديمة ، وملوك الجرمان وأباطرة المغول » .

القوة البحرية والجوية :

أما العنصر الثانى الذى يتلو الفنون فى الإنتاج ويمكن أن يحقق النصر للغرب ، فهو التفوق البحرى الذى لن يلبث إن عاجلا أو آجلا — فى أية حرب طويلة الأجل — أن يقترن بتفوق جوى مماثل .

لقد انقضى أكثر من قرن منذ أن كتب الأدميرال « ماهان Mahan » كتابه حول «أثر البحر على التاريخ » ، أما اليوم فإن القيمة النسبية للأسطول البحرى والجيش والقوة الجوية فى الأعمال الحربية الحديثة ، مازالت موضع جدل هام ، وغالباً ما تحتدم هذه المناقشة نتيجة للمنافسة بين العاملين فى هذه الأسلحة ، وبهذا تضطرب المعايير ، ويتعذر تقدير مدى مساهمة كل سلاح فى النصر فى أية حرب أوحملة ، طبقاً للمعايير الأساسية التى وضعها «ماهان» فإن « ماهان » لم يزعم قط أن الأسطول يفوق الجيش ، بمعنى أن أحدهما يستطيع أن يهزم الآخر ،أوأنه فى الإمكان الانتصار فى الحروب بالأسطول البحرى فقط ، ولكن ما أثبته فعلاهو أنه ، على مر التاريخ ، كانت الشعوب التى تتمتع بالتفوق البحرى هى التى تكسب الحرب على غيرها فى النهاية ، حتى لو كانت الأخيرة تملك جيوشاً قوية . وليس سبب ذلك أن الأسطول يستطيع أن يهزم الجيش ، وإنما لأن الجيش ، مهما كان ظافراً ، تنتهى حدوده الطبيعية عند ساحل البحر عادة ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يسيطر على الساحل ما لم يكن يملك التفوق البحرى ، أما الخصم الذى

يملك هذا التفوق فيمكنه ، من ناحية أخرى ، أن ينسحب فى أمان وراء المياه ، ويتلاعب بالوقت إلى أن ينشىء جيشاً متفوق القوة ؛ وفى الوقت ذاته يزعج القوة البرية الموجودة على الساحل طوال الوقت ، ويقطع عنها الإمدادات من الرجال والعتاد فيما وراء البحار ، وهى الإمدادات التى سيحتاج إليها الجيش البرى حتما على طول المدى . وعندئذ تكون القوة البرية دائماً فى عجلة من أمرها ، بينما يكون الزمن دائماً فى جانب القوة البحرية ، ولهذا فإنها تستطيع الانتظار ، واختيار اللحظة التى يتفوق فيها جيشها البرى ، لأن النصر تحرزه دائماً الجيوش البرية .

لكن : هل لا تزال هذه القاعدة القديمة محتفظة بصحتها فى عصر الجو والذرة؟ . يبدو بالنسبة للجزء الأول من السؤال أنه ليس من الضرورى أن نجيب عليه ، لأنه ليس من المحتمل — إذا نشبت الحرب العالمية الثالثة — أن يعانى الغرب من نقص خطير فى القوات الجوية فترة من الوقت فى البداية . ويبدو أن الموقف — كما سيكون عليه إذا نشبت حرب عالمية ثالثة — هو أن يبدأ أحد الجانبين بالسيطرة على البر ، بينما يسيطر الجانب الآخر ، بتفوق مماثل ، على البحر ، ولن تكون لأحدهما السيطرة الساحقة فى الجو .

وبغير التعرض لتحليل تفاصيل تجربة الحرب العالمية الثانية ، يجب أن نقرر أنه لم يكن هناك انتصار واحد فى هذه الحرب يمكن أن يعتبر نقطة التحول الرئيسية فيها (بغض النظر عن الانتصارات النهائية) ، فمعركة بريطانيا ، ومعركة الأطلنطى ، ومعركة العلمين ، وغزو شمال أفريقيا ، وغزو أوربا ، وبيرل هاربور ، ومعارك بحر الكورال ، وميدواى — لم يكن من الميسور

كسبها بغير التفوق البحرى ، وبغير توافر القوة الجوية الكافية لمنع العدو من السيطرة على الجو ، ويبدو أنه حتى فى الحرب الأخيرة — بغض النظر عن الدور الهائل الذى لعبته القوة الجوية — توقفت نقط التحول على السيطرة على البحار مع تغطية كافية من الجو ، وهكذا لم تستطع القوة الجوية ولا الجيوش البرية وحدها أن تحول المد .

وإذا نشبت الحرب العالمية الثالثة ، فسوف تكون التجربة أكثر ضخامة مما يمكن تصوره، بالنسبة للأهمية الحاسمة التى ستكون للقوة البحرية ، نظراً لأنه من المرجح أن تكون القوة متساوية لدى الجانبين ، مع زيادة طفيفة هنا أو نقص طفيف هناك بعد المرحلة الأولى على الأقل (وهذا برغم تفوق الشيوعيين فى الرجال ، وتفوق الغرب فى قاذفات القنابل) . ومن الواضح أنه من المفروض أن يتم التفوق العددى فى البحر لصالح أساطيل الدول الديمقراطية فى تلك المرحلة ، بصرف النظر عن العقبة الهائلة التى تتمثل فى الغواصات السوفيتية .

أما النقطة الثانية التى يكتنفها الشك فهى : هل سيقضى استخدام الأسلحة الذرية على تأثير القوة البحرية ؟... إن الرد النهائى على هذا السؤال لا يمكن أن يعرف إلا أثناء الحرب ذاتها ، لأن الحرب الماضية لم تهيء لنا أية تجارب عن تأثير الأسلحة الذرية على القوة البحرية ، وكل مايستطيع المرء أن يقوله الآن هو أن الاختبارات التجريبية التى تجرى فى الوقت الحاضر تشير إلى أن القنابل الذرية لن تقضى على قيمة البحرية .

وهنا يعرض لنا سؤال ثالث أقل صعوبة فى إجابته، وهو : هل اتساع

المناطق التى يسيطر عليها الأعداء يقضى على تأثير القوة البحرية؟ . . . لقد أشرف هتلر، حينما بلغ أوج مجده، على مايشبه مثلثاً يمتد من جبال البرانس إلى البحر الأبيض ، فالقوقاز ، ودارت المجادلات فترة ما بداخل معسكر المحور حول الإقامة غير المحدودة بداخل هذه القلعة وحصر الحرب والاكتفاء برد هجمات العدو ، ولكن هذا النظام لم يثمر .

وإذا شملت الحرب العالمية الثالثة المنطقة الحالية لكل من المعسكرين المتعارضين ، فستكون الأراضى التى يسيطر الشيوعيون عليها أكبر مما حدث فى التاريخ . وحتى إذا لم ينجح الشيوعيون فى التوسع إلى ماهو أبعد من ذلك فإن الأراضى التى يسيطرون عليها ستشمل منطقة تمتد من جبال الألب إلى الباسفيك ، ومن القطب الشمالى إلى جبال الهملايا ، ويبلغ تعداد سكان هذه المنطقة ٧٧٠ مليون نسمة .

إلا أن أرقام إنتاج بعض السلع الضرورية التى ذكرناها من قبل فى هذا الفصل ، تدل على أن هذه المنطقة ـ برغم اتساعها الشاسع ـ ستفتقر بشدة ، إلى حد كبير ، إلى إمكانيات الحرب فى قطاعات معينة ، مادامت لا تملك : (ا) الامكانيات الصناعية ، والتدريب ، والعمال المهرة الموجودين فى أوربا الغربية (ب) بترول الشرق الأوسط ، (حـ) قصدير ومطاط جنوب شرق آسيا . . . ومن ثم فإنه من الضرورى جدا أن تسيطر الشيوعية على هذه المناطق الثلاث ، ومن الضرورى جداً أيضاً أن تحول الديموقراطيات دون هذه السيطرة ، ذلك لأنه إذا وقعت هذه المناطق الثلاث الهامة فى أيدى الشيوعيين ، فلن يكون هناك سبب يمنع العالم الشيوعى ، من حيث اتصال الأمر بالموارد ، من أن يتفوق إلى النهاية ، وهنا لن تكون للتفوق البحرى

أية فائدة تذكر إزاء مثل هذه القوة البرية الهائلة . لكن مهما يكن من الأمر، فستظل للقوة البحرية فائدتها إزاء قوة عملاقة كهذه ،لأن القوة البرية لا يمكن أن تغزو العدو عبر البحار التى لا تسيطر عليها ، أو عن طريق مجال جوى لا تسيطر عليه ، بينما تستطيع القوة البحرية أن تختار المكان والزمان المناسبين للغزو ، وهذا الجانب الأخير من السيطرة على البحار يمكن أن يظل صحيحاً فى المستقبل كما هو الآن ، وكما حدث فى عام ١٩٤٤ عندما تمت حركة النقل الجوى العسكرى على نطاق واسع .

وخلاصة القول أنه يمكن أن يقال: إذا نشب صراع هائل بين الدولة البحرية والدولة البرية ـ إن الأولى تستطيع ـ إذا أيدتها قوة جوية كافية ـ أن تحتفظ بمعظم تأثيرها التقليدى الحاسم مادامت القوة البرية قاصرة على الأراضى الشيوعية الحالية ، وفى استطاعتها أيضا أن تحتفظ بقسط من تأثيرها حتى ولو وسع الشيوعيون رقعة هذه المنطقة وضموا إليها بعض المناطق الحساسة التى تنقصهم الآن .

* * *

ولكن الحروب لا تكسب بالقوة المادية والعسكرية وحدهما ، برغم ضرورتهما القصوى،فالحروب تكسب فى النهاية بصلابة المحاربين ومثابرتهم، وتتوقف هاتان الصفتان على اقتناع المقاتلين بأنهم يقاتلون من أجل قضية جديرة بالتضحية إذا تطلب الأمر ذلك . وجميع الحروب الكبرى تصل إلى مرحلة من التوازن العسكرى إن عاجلا أو آجلا ، وعندئذ تبدأ العوامل الفكرية والروحية تتحكم فى النتيجة . صحيح إنها لاتستطيع أن تهزم المدافع والدبابات وحدها ، إلا أنه عندما يبطل مفعول المدافع

والدبابات ، فإن الروح هى التى ترجح كفة الميزان ، وليس فى الإمكان إخماد الروح بالقوة الغاشمة ، فمع أن من الممكن أن تمزق طلقات الرصاص الجسم إرباً إربا ، وأن تسحقه الدبابات ، إلا أن الروح تفلت دون أن تهزم لتبث الإلهام فى قلوب المئات الباقية ، وفى النهاية تكسب « الروح » المعركة .

وهذه هى الحقيقة الأساسية التى تغاضى الدكتاتوريون عنها فى جميع الأزمان ، إنها الروح التى تطاردها شرطتهم السرية لأنها تفلت من أوامرهم ، ومن معسكرات اعتقالهم ، ومن أتون نظامهم .

وما دامت تبقى نفس واحدة حية ترفض أن تخضع للقوة الغاشمة ، سواء أكانت قوة حزب أو دولة ، فلن تنطفىء الروح الخلاقة ، بل سوف تنهض يوماً مرة أخرى ، لتلهم الرجال وتشجعهم على أن يتمردوا ضد الطغيان .

وفى الصراع مع الشيوعية ، تقف إلى جانب الديمقراطيات قوتان تلعب الروح فيهما دائماً دوراً كبيراً ، وتتحطم عليهما جميع الدكتاتوريات . . . هاتان القوتان هما : الحرية ، والدين .

الحـــــرية :

منذ وجد البشر والإنسان تواق إلى الحرية : حرية الحق فى الحياة ، وحرية التفكير ، وحرية العبادة حسب معتقداته ، فقد وهبه الخالق حق الحياة الذى لا يقبل التحول ، وحق الحرية ، وحق البحث عن السعادة .

ولقد اكتسب هذا المثل الأعلى القديم معنى جديداً فى عصرنا . . . إنه يعنى التحرر من عيوب الحكم الجماعى ، مثل مهاجمة المنازل ليلا ، والرحيل منها إلى غير رجعة ، وتجسس الأبناء على الآباء ، وتجسس الزوجات على الأزواج ،

والخوف من التلفظ بكلمة تثير غضب الحزب ، ومعسكرات الاعتقال ، وألوان التعذيب التى بلغت الذروة من ناحية التفنن العلمى.

ولهذه المفاهيم معنى ضئيل بالنسبة لمن تمتعوا حتى الآن بامتياز الإفلات بجلدهم من الحكم الجماعى، ولكن معناها أشد من ذلك مرارة ، بالنسبة لمن لم يكونوا على هذا القدر من حسن الحظ ، فهؤلاء يصلون يومياً « اللهم امنحنا الحرية » ، وصلاتهم تلك أكثر ضرورة لديهم من التضرع «اللهم اعطنا قوت يومنا » ، إنها المأساة فيما يتعلق بالحرية أن يضم نداء الحرية دائماً تحت لوائه كل الذين يتوقون إليها ، غير أنهم حين يحرزون النصر وتتحقق أهدافهم ، سرعان ما يتفككون ، ونحن الذين أصبحت الحرية عندنا كالماء المتدفق من الينبوع ، يجب علينا أن نعلم أنفسنا أن الحرية كنز يستلزم يقظة أبدية. وقبل كل شيء ، يجب علينا أن نعلم أن تلك الحرية مهددة اليوم بشكل خطير لم يسبق له مثيل ، لأن التهديد الحالى يأتى من نزعات مذهبية تتخذ من العالم كله هدفاً لها ، فإذا انتصرت ، فلن يكون هناك مهرب منها . . . إنها سترافقك فى الطريق ، وستلازمك فى غرفة نومك ، وستطالبك بالطاعة التامة ، وبكل ذرة من نشاطك وتفكيرك وقلبك . . فإذا أدركنا هذا الخطر ، وأوضحناه تماماً للعالم ، فستكون الحرية أقوى إنها حليف لنا ، حليف قديم قدم الدنيا نفسها ، غير قابل للهزيمة .

يقول هيرودوت: إن أحد الأسباب التى جعلت اليونانيين ينتصرون على الفرس ، برغم تفوق الفرس العددى ، أنهم شعروا بأن رعايا أى طاغية لا يستحقون أن يكونوا أنداداً لمواطنى الدولة الحرة ، لأن هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلا لقانون يفرضونه على أنفسهم .

الدين :

سوف يشد أزرنا ، إذا نشبت حرب عالمية جديدة ، حليف آخر ، هو الدين . ذلك لأن الدولة الجماعية التي لا تستطيع أن تحتمل أى ولاء إلا لها ، عدو لدود قاتل للدين ؛ فهى لا تستطيع أن تعترف ، مضحية بالولاء لها ، بأن الروح تدين بطاعتها الأخيرة لخالق العالم ، ومن ثم فإن جميع المذاهب الدينية فى الصراع بين العالم الحر والشيوعية ، لا تستطيع إلا أن تقف فى النهاية فى وجه العقيدة الزائفة «الشيوعية» التى تحاول أن تحتل مكانها، وينطبق هذا القول على الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية ، والإسلام والبوزية على السواء . أما بالنسبة لنا ، نحن الذين ننتمى للحضارة الغربية فإن الوصايا التى نشرت منذ ألفى سنة مضت والتى تأمرنا بحب الجار مازالت أحسن لدينا من الوصايا الشيوعية التى نشرت منذ مائة عام ، والتى تقضى بالكراهية وبالبغضاء إزاء طوائف معينة من المجتمع .

وإنه لمن المزعج أن نقول إن الأساس الدينى لحضارتنا لا يذكر فى بعض الدول بالقدر الذى تذكر به الديمقراطية باعتباره أحد أعمدة مذهبنا الرئيسية ، ومع ذلك فإنه أساسى أكثر منها وأكثر عمقاً . إن العقيدة الدينية متأصلة فى جذور ديمقراطيتنا ، فإذا أهملنا هذا الأساس ، فإن الحضارة الغربية ستصبح كالأسنان التى ماتت أعصابها ، فتبدو ، فى الظاهر أسناناً صحيحة ، ولكن تحللها لا يلبث أن يتم بعد فترة من الوقت . وبغير هذا الأساس الروحى ، لن تستطيع الحضارة الغربية أن تقف على قدميها داخل مملكتها وخارجها أمام الجماهير ، تلك الجماهير التى تعتبر الروح عندها أكثر قيمة من الديمقراطية أو الرخاء المادى .

— ١٥ —

مصير أمريكا

إن عظات التاريخ واضحة ، فالحضارة الغربية فى سبيل الدخول إلى طور جديد ، هو فترة حضارة العالم الواحد ، وحضارة السلم العريض ، وفى جميع الحضارات كانت تلك المرحلة هى الأخيرة ، ومن الممكن أن تكون أيضاً أعظمها إذا قيست العظمة بأعظم الخير لأعظم عدد ، ويمكن أن تكون كالعصر الأول فى روما ، أو الامبراطورية الوسطى والجديدة فى مصر القديمة ، فإن قيمتها بالنسبة للإنسان المعاصر والتاريخ ، وكذلك استمرارها — يتوقفان على قوتها الداخلية وقوتها الخلاقة .

وفى هذا العالم الواحد ، قدر التاريخ للولايات المتحدة أن تلعب دور الترجيح سواء عن طريق السلم أو عن طريق الحرب ، ومن الإنصاف أن نقول إنها لم تكن راغبة فى القيام بهذا الدور الذى فرض عليها بقوة الظروف ، ويجب أن نقول أيضاً إنه حين تحققت أمريكا من ذلك ، وأجبرت على القيام بهذا الدور القيادى الثورى ، سارعت بشكل ملحوظ إلى مواءمة نفسها معه . ولقد قلنا ، فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، إنه بصرف النظر عن النقد والأخطاء ، فإن سياسة الولايات المتحدة الخارجية بعد الحرب العالمية الثانية ، أظهرت تطوراً وتجديداً غير معروفين فى التاريخ ، وأن القوة الخلاقة الواضحة فى هذه الصفحات لتفتح احتمالات لا حدود لها .

ومن الناحية الأخرى ، توجد عثرات كثيرة أمامها ، فليس هناك ماهو أسهل من أن تسقط دولة تلعب دور الزعامة — غير المشكور — من أن تتعثر نتيجة لتجاهل بعض الشروط الأساسية التى يتوقع الجميع منها أداءها .

مقتضيات الزعامة

ينبغى ألا ننسى إطلاقاً أن جميع القيادات ، وعلى الأخص القيادة الديمقراطية ، تستمد سلطتها من موافقة الذين تتولى قيادتهم ، وليست هناك قيادة فى التاريخ ، سواء أكانت قيادة ديكتاتور ، أو ملك ، أو طبقة ، أو دولة ، بقيت بعد أن فشلت فى الاستئثار برضاء أتباعها . . إن فكرة «توينبى» عن الأقلية الخلاقة التى توجه أغلبية مستجيبة تنطبق على مجموعة الدول ، كما تنطبق على مجموعة المواطنين .

إن دول العالم الديمقراطى الأخرى واقعية بدرجة تكفى لأن تدرك أن الولايات المتحدة التى تسهم بقوة سياسية وعسكرية واقتصادية أكثر مما تسهم به أية دولة أخرى ، يجب أن تتولى زعامة هذه الدول ، بيد أن ما تخشاه هذه الدول ، وما تستنكره وتقاومه بشدة ، هو أن تحكمها الولايات المتحدة بدلا من أن ترشدها ، وأن تفرض عليها إرادتها ، بدلا من أن تتعاون معها . وتنظر هذه الدول إلى الولايات المتحدة على اعتبار أنها دخيلة ، وأنها — أى هذه الدول — لم تحارب طغيان دول أخرى لتقع تحت نير ديكتاتورية مافى مجتمعها الخاص . والسؤال الهام هو : هل ستتبع هذه الدول زعامة الولايات المتحدة بمحض اختيارها نتيجة لاقتناع داخلى ، أم ستقبلها

على كره منها تحت ضغط الضرورة ؟ ... إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على تجنب الولايات المتحدة لأخطاء معينة كالتى وقعت فيها القيادات العالمية السابقة ، وبذلك تجعل قيادتها مقبولة .

القيادة الروحية :

إنها أول المقتضيات وأهمها شأناً ، فإن انطباع القوى الموجود فى أذهان العالم الآن ، يوحى بأن قيادة أمريكا تقصر عملها على تقديم منح من المساعدة المادية ، ومحاولة تحسين أحوال المعيشة .

ونحن أبعد الناس عن التقليل من أهمية هذين العاملين : فمشروع مارشال لمساعدة أوربا مثلا ، كان مساعدة لا غنى عنها فى إصلاح اقتصاد هذه القارة بعد الحرب ، بل إن رفع مستوى معيشة الملايين الذين مازالوا يعانون أحط مراتب الفقر والقذارة — كما سبق أن أشرنا — ليعتبر واحداً من التحديات الثلاثة الرئيسية التى تواجهها الحضارة الغربية ، ومن ثم فإن تهيئة الطعام الذى يأكلونه ، والمسكان الذى ينامون فيه هى السبيل الوحيد للتغلب على الإحساس الذى يراودهم بالحرمان ، وهى السبيل لإثبات أهمية نظامنا الاقتصادى بالنسبة إليهم .

غير أن واحدة من هذه الخطوات لن تكفى لكسب أمة ما ، فليست هناك أمة ، أو إنسان ، يقبل توجيهاً من آخر لمجرد أن هذا الآخر أكثر ثراء ، ولأنه يعرض عليه أن يشركه فى بعض هذا الثراء ، بل على العكس ، إذ الحقيقة المرة هى أنه يبدو ، بين هذ الدول ، كما يبدو بين الأشخاص ، أن ذلك يبعث على النفور أكثر مما يبعث على الشكر والتقدير .

ولسوف يُجتذب الناس ، ولكنهم لن يتأثروا بالأمل فى الحصول على مزيد من أدوات الزينة أو الثلاجات الكهربائية، ومن ثم لن تكسب أمريكا المعركة من أجل الاستئثار بعقول الملايين عن طريق مجرد إفهامهم بأن الولايات المتحدة ستقدم لهم آلات أحسن ، أو سيارات أسرع ، وبالأخص فى قارات كأوربا وآسيا حيث كانت للروح دائماً المنزلة العليا . . وينطبق هـــذا القول ، بصفة خاصة ، على المنافسة مع غريم نجح فى مزج دعايته بصورة وردية اللون عن مجتمع لا طبقى بأيديولوجية تحتل محراب الدين . وأمام هذا الدين المزعوم ، كان السبيل الوحيد لانتصار الغرب هو أن يقدم شيئاً أكثر من مجرد الخبز والتليفزيون .

وهذا الشيء الذى يملكه الغرب هو قيمتان روحيتان راسختان فى أساسه، ولن يتغلب عليهما شيء بعد، هما : الدين والديمقراطية . وفى الصورة الأمريكية التى تعرض على العالم اليوم، تبدو الديمقراطية أكثر وضوحاً من الدين، غير أن الدين أساسى تماماً كالديمقراطية، ليس فقط بالنسبة للحضارة الغربية ،وإنما لكل فرد تريد أن تقنعه بالديمقراطية ، فإن الروح البشرية لا تكتفى بالوقوف أمام ما تدركه العين ؛ ذلك لأن العيون لا تكتفى بمـــا ترى ، والأذن لا تمتلىء بما تسمع . . . وينطبق هذا القول على سكان « كييف » انطباقه على سكان « سانتياجو » أو « تمبكتو » وهكذا ، فإن قوة الإيمان الروحى فى الغرب ، وأيديولوجيته الديمقراطية هما السبيل الوحيد الذى يمكن الغرب من مواجهة التحدى الهائل لكيانه فى الوقت الحاضر .

احترام استقلال الآخرين :

على الرغم من أن كلمة « سيادة » مازالت تستعمل فى مجال الوصف السياسى، فإن دلالتها الأصلية قد انطفأت فى عالمنا الراهن نتيجة لترابط المصالح المتزايد ، فإن دولا قليلة من بينها الولايات المتحدة وروسيا ، هى التى تستطيع اليوم أن تتخذ قرارات دون أية مبالاة بالدول الأخرى .

وفى الوقت ذاته من الضرورى ، فى العالم الواحد القادم ، ألا تتلاشى جميع الأمم وتندمج فى كتلة واحدة متجانسة ، فمن الوجهة السياسية ، ستحدث كارثة مخيفة إذا تركزت السلطة كلها فى مكان واحد بغير أن يكون هناك ثقل مواز لها . ومن الناحية الاقتصادية أيضا ، يمكن أن يصبح الموقف غير متعادل وغير متوازن كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية إذا عجزت مناطق كبيرة عن المحافظة على توازنها الاقتصادى واضطرت إلى الاعتماد على المساعدة الخارجية . ومن الناحية الروحية ، سيعنى ذلك تجميد الحضارة الغربية إذا جفت الموارد الكثيرة التى نبعت منها ، واستبدلت بصنبور واحد يقطر الماء النقى ، ذلك لأن التنوع كان دائماً بمثابة النبع الرئيسى لثقافتنا ، ومن ثم فإن التطابق الكامل يعنى نهايتها .

ولعله من المفيد أن نعود هنا إلى أحد القوانين التى وضعها دانيلفسكى منذ قرابة قرن مضى .. لقد قال :

« تصل الحضارة إلى أوجها واكتمالها ، وتنوعها ، ودسمها ، فقط عندما تتنوع مادتها الإثنوجرافية ، وعندما لا تفلح قوة سياسية واحدة فى ابتلاع هذه العناصر الإثنوجرافية ، فتظل بذلك متمتعة بالاستقلال وتقيم نظما سياسية مستقلة أو متحدة »

وحينما طبق دانيلفسكى هـــذا الاختبار على الواقع ، قال إن أغنى الحضارات وأكثرها امتلاءهى ـــ حتى الآن ـــ حضارة اليونان والأوربيين، وذلك بسبب تنوع « مادتها الإثنوجرافية » ، وبسبب استقلال الوحدات السياسية العادية التى بنت هذه الحضارات ودعمتها .

إن دور الدولة الزعيمة بين الشعوب كما هى الحال بين الرجال ، دور شاق لا يقابل بالشكر ، بل يوجه اليه نقد مرير ، مبالغ فيه وغير معقول ، أما التقدير فهزيل وغير واضح ، لأن الشعور بالرضاء لا يتحقق إلا عن طريق الإحساس بانجاز الواجب التاريخى ، وليس من الممكن توقع الحكم المنصف إلا بعد انقضاء عصرنا ، أو فى عالم آخر غير عالمنا هذا .

غير أن عدم العرفان بالجميل ، وعدم التقدير الذى لابد أن تلاقيه الدولة الزعيمة القائد ، يجب ألا يدفعها إلى تجاهل النقد وفرض إرادتها ، لأن الزعامة الحقيقية تقوم على الإقناع لا على القسر . ولقد عرفت بعض الأمم القيادية فى التاريخ ـ كالرومان والبريطانيين ـ التى احتفظت بإمبراطوريتها عدة قرون بعناصر متغايرة ، عرفت قيمة هذه الحكمة . وفى أغلب الأحوال كانت هذه الدول القيادية تستخدم المكر والخداع ، بل القسوة فى بعض الأحايين ، غير أنها استطاعت أن تحكم فى النهاية بعد أن استأثرت برضاء المحكومين ، وليس من شك فى أن ذلك يستلزم كبحا هائلا ـــ بل خارقاً ـــ للنفس . وهذا الميل قوى بالنسبة لأى شخص يعرف أنه سيضطر فى النهاية إلى تحمل نتائج فرض إرادته ، فالرجل الذى يدفع « الفاتورة » يطلب دائما دراسة المصروفات ، ورغم ذلك فهو إذا ما دخل شريكا فى أى مشروع ، عمد إلى التزام الحكمة

والحرص الشديدين ، ولذلك فإنه لا يقدم على أى عمل إلا بعد أن يتشاور مع شركائه؛ لأنه يحترم شخصياتهم ، وفوق كل شيء ،فإنه لايحاول أن يشكلهم على النحو الذى يريده هو .

إن القيادة الحقيقية تخلق ما يطلق عليه توينبى « المحاكاة » وهو تقليد اختيارى من جانب الأتباع . ولهذا فإن فى الإمكان رؤية أمريكا اليوم فى ألف جانب صغير من الحياة اليومية الحافزة فى جميع أنحاء العالم : فى أكشاك الصحف الجديدة فى باريس المكتظة بمجلات لايف وتايم ولوك ؛ وفى حفلات الكوكتيل فيما بين سنغافورة ولشبونة . ومع أن الناس فى الخارج كانوا يشمئزون من لذعة السجائر الأمريكية فى أحد الأيام ، فإنهم يعتبرونها اليوم أثمن ما يمكن تقديمه من سجائر ابتداء من رأس الرجاء الصالح حتى القطب الشمالى. وتحتل هوليوود مركز الصدارة فى دور السينما بجميع أنحاء العالم وحتى فى الدول « المعادية للاستعمار » — فى قارة آسيا — يجد الإنسان أن أهم علامة تميز النجاح هى امتلاك سيارة كاديلاك ، ولقد كان أول شيء صادف مؤلف هذا الكتاب عند وصوله إلى بانجكوك للبحث عن الجمال الفنى فى سيام هو عربات نقل ضخمة محملة بزجاجات الكوكاكولا !!.

ومادام هذا التغلغل السلمى الذى تمارسه العادات الأمريكية ناتجاً عن عملية التقليد والمحاكاة الطبيعية ، فستعتبر عملية لا مفر منها ولا اعتراض عليها من وجهة نظر القيادة الفعالة، برغم أن فقدان الخصائص القومية والمحلية قد يكون أمراً مؤسفاً للغاية من وجهة النظر الثقافية . هذا وتتعرض القيادة للخطر عندما تحاول « الأقلية الموجهة » فرض وجهة نظرها وعاداتها . ومن الجائز أن يحدث ذلك مثلا ، إذا حاولت أمريكا أن تفرض فى كل مكان ،

طراز الاقتصاد المعمول به فى أمريكا بكل دقة وصرامة ، أو إذا حاولت إلغاء جميع نظم الحكم الملكية باعتبارها مظاهر لا تلائم العصر .

ومثل هذا الإجبار دون مراعاة للتقاليد القومية ، لا يجعل الحضارة أكثر فقراً وبالتالى أكثر ضعفاً فحسب ، بل يثير النفور من أمريكا فى الوقت ذاته ، لأن احترام الأغلبية لحقوق الأقلية وخصائصها ، كاحترام الحاكمين لحقوق وخصائص المحكومين ، هو جوهر الديمقراطية .

لقد استخدم الإسكندر عبقريته الفذة لإيجاد توازن سليم بين نظام الحكم الاستعمارى المتطرف والحكم الذاتى فى السياسة اليونانية ،ومن ثم يجب على السياسة الأمريكية أن تتحمل كثيراً من المشاق والمتاعب الخطيرة إذا هى رغبت فى أن تحقق القيادة السليمة لأن هذه القيادة تتطلب النجاح فى تحقيق التوازن بين إرشاد الآخرين واحترام استقلالهم .

المثل الحى :

هناك عثرات كثيرة بالطبع بينتها تجارب الحضارات الماضية :

فالفساد هو أحد الأمراض التى نسفت الهيبة فى الطور الأخير من المجتمع وأكثر من ذلك خطورة ، أنه نسف النسيج الخلقى للدولة القائمة .

والثروة، إذ تتمتع بها — بغزارة — أقلية صغيرة، أو يحتجزها كثيرون فترة طويلة، تكون بمثابة حشية مريحة تنام فوقها احدى الدول الكبرى، ثم سرعان ما تفقدها. وليس من المستحب أن نقول إن السعى وراء الرخاء أصبح غاية الحياة، ومع ذلك فإنه من الضرورى أن نقول ذلك ، لأن طريق التاريخ مفروش بهيا كل

حضارات لم تستيقظ فى الوقت المناسب ، حضارات ماتت من التخمة لا من المسغبة .

والمنافسة الشخصية بين القادة — وهى التى حلت محل الحروب القومية السابقة التى كان الرجال يبدون فيها استعدادهم للموت فى سبيل مثلهم العليا أو فى سبيل بلادهم — قد أصبحت خاصية مماثلة من خصائص المرحلة النهائية فى كل حضارة ، هذه المرحلة التى تتوقف عظمتها ودوامها إلى حد كبير ، على مدى إبقاء قواعد الحضارة الأساسية حية ، وإخضاع المطامع الشخصية للصراع بين الأفكار ، هذا الصراع الذى يعتبر خاصية من خصائص كل حضارة حية .

خطر احتكار السلطة السياسية :

إن استمرار ممارسة السلطة الاقتصادية أو السياسية بغير منازع ، وبلا منافسة أو احتمال تغيير ، خليق بإذابة القوة التى تمارس هذه السلطة ، ذلك أن « السلطة المطلقة تخلق فساداً مطلقاً » . وينطبق هذا القول على مجتمع الشعوب انطباقه بداخل دولة واحدة . ومن ثم ، سوف تخسر الولايات المتحدة والحضارة الغربية الشىء الكثير إذا احتكرت الولايات المتحدة السلطة بلا منافس أو منازع ، لأن السلطة الاحتكارية خليقة بأن تثبت مكانتها لمصلحتها الخاصة أو لمصلحة من يتمتعون بها ، بدلا من الاهتمام بمصلحة الشعب ، كما يتبين من تاريخ جميع الديكتاتوريات ، وهذا هو السبب الذى نحارب من أجله حكم نظام الحزب الواحد منذ عدة سنين ، وهو أيضاً السبب فى أن كونجرس الولايات المتحدة يحد من الاحتكارات الاقتصادية :

وفى العالم الغربى الواحد لم يعد فى استطاعة المنافسة أن تأخذ شكل

المصادمات العسكرية، غير أن ذلك لا يعنى أنه ليست هناك منافسة و ليس هناك نوع من توازن القوى بداخل العالم الغربى وخارجه ، فلسوف تصبح الهند والصين وروسيا وأمريكا اللاتينية ومراكز جذب اقتصادية وسياسية . أما المنطقة الطبيعية للتوازن المضاد بداخل العالم الغربى ، فهى أوربا . وقبل أن نتعرض لمناقشة الدور الذى يجب أن تلعبه أوربا كثقل مقابل لأمريكا ، يجب أن نؤكد أهمية عامل حيوى آخر من عوامل زعامة أمريكا لأوربا :

صيانة التراث المشترك مع أوربا :

إن أوربا هى مصدر الحضارة الغربية ، ليس فقط لأن هذه الحضارة نشأت فى إيطاليا وفرنسا فى القرون الوسطى، وليس فقط لأن سكان شمال وجنوب أمريكا جاءوا من أوربا وإنما لأن جذورا كثيرة للحضارة الغربية ما زالت فى أوربا حيث يوجد كثير من قواها الخلاقة التى لا تزال تؤدى عملها كما تبين لنا عندما حللنا تلك القوة فى القسم الثانى من هذا الكتاب ... إنها فعالة وقوية كالقوى الاقتصادية والسياسية البحتة التى انبعثت فيها الحياة فى التربة الأمريكية ، ولسوف تكون خسارة لا يمكن تعويضها إذا ما فصلت هذه القوى الأمريكية عن جذورها الأوربية ، وإذا ما فقدت الفوائد التى تجنيها من جراء التأثير المتبادل بين هذين العاملين .

وقد تعيش أمريكا فترة من الوقت كدولة قوية جذابة ، ولكنها لن تستطيع ، شأنها فى ذلك شأن الدول المماثلة فى الحضارات السابقة ، أن تتغلب على الانفصال عن جذورها ولو أنها انفصلت عن هذه الجذور، لأصبحت مجتمعاً رائعاً ولكنه متحجر : حضارة براقة تنساب عبر التاريخ كظاهرة لامعة ، وكالشهب التى تحرق نفسها ، لأنها انفصلت عن النار التى ولدتها .

-١٦-

دور أوربا

لقد حان الوقت لنقدر ما تملكه أوربا - لا من ناحية الممتلكات ، لأنها من نتاج الماضى . ولكن من ناحية الإمكانيات الخلاقة التى سوف تحدد مستقبلها - ولنقدر الدور الذى تستطيع أن تلعبه فى وحدة العالم الغربى :

يمكن أن نستخلص من نظام القوى الخلاقة التى عددناها فى الفصل العاشر أن أوربا بعيدة عن درجة الإنهاك فى المجال الثقافى ، وأنها مازالت تنتج بنشاط ، فالهندسة المعمارية والموسيقى والسينما والكتب التى أنتجتها فى العقود الأخيرة ، دليل على حيويتها فى المجال الفنى ، ويبدو أنه لا بأس علينا إذا إفترضنا أن أوربا الغربية ستظل ، إلى وقت لا بأس به ، مصدراً رئيسياً للحضارة الغربية فى المجال الثقافى حتى ولو اضمحلت أهميتها السياسية والاقتصادية أكثر من ذلك ، هذا إذا لم تتحول أوربا الغربية مرة أخرى إلى مسرح لمعركة تدمرها بحيث لا تقوم لها قائمة بعد ذلك ... فبنفس الطريقة ، بعد عهد الإسكندر الأكبر ، عم النفوذ اليونانى الأجزاء الشرقية والغربية من العالم القديم ، وكان لأعمال الإسكندر السياسية ، أثرها فى ضم مملكته المترامية الأطراف وجعلها وحدة ثقافية واحدة ذات لغة وفن وتنظيم سياسى مشترك ، وساد النفوذ اليونانى فى هذه المنطقة كلها .. وفى الامبراطورية الرومانية الشرقية بقى هذا النفوذ قائما حتى بعد انهيار روما بألف عام ،

ومع أن ثقافة اليونان انتشرت فى جميع أنحاء العالم ، فإن جذور النبات نفسه كانت قد ماتت .

فهل ترضى أوربا بأن تجتاز مثل هذا الدور ؟

ليس هناك مايحملها على ذلك ، فإن القوى الاقتصادية والسياسية مكنتها من أن تخطو منذ قرون فى طليعة دول ، ما زالت موجودة .

أما استمرار أوربا فى البقاء ، بوصفها عاملا قيادياً فى العالم ، يتوقف على قدرتها على تكييف نفسها، طبقاً لضرورة التكامل ، فقد انبثقت حصيلة قوية مدهشة فى أوربا كلها للعمل فى اتجاه هذا الهدف ، وأدت فعلا إلى إنتاج بنيان معقد من التنظيمات ، ابتداء من المجلس الأوربى حتى حلف الدفاع الأوربى. وهناك عقبات لانهاية لها تعترض سبيل نجاحها ولكن هذه القوى الخلاقة ما زالت قائمة وتتمتع بحياة قوية ، والأمر مرهون الآن بسرعة نجاحها لتأمين تكامل أوربا الحرة ، واستعادة قوتها الاقتصادية والعسكرية فى الوقت المناسب لإنقاذ القارة من نزاع عالمى جديد . . . إنه سباق ضد الزمن ، سباق ضد قوى العدوان ، وفى الوقت ذاته سباق ضد العوامل التى تؤدى إلى تدهورها، فإذا نجحت أوربا الغربية فى كسب هذا السباق فعندئذ، وعندئذ فقط ، ستصبح شعوبها التى يبلغ تعدادها ٣٠٠ مليون نسمة أنداداً لأمريكا لايقدرون بثمن فى مجتمع متوازن بشمال الأطلنطى . . . إننا لا نفكر فى خلق « قوة ثالثة » محايدة بين المعسكرين المذهبيين المتنافسين (أمريكا وروسيا) ، فستظل أوربا تدافع دائما عن مبادىء الحرية والديمقراطية التى ظلت تشكل دعم حياة حضارتها قبل أن توجد أمريكا بوقت طويل .

أما إذا أرادت أوربا ألا تصبح مستعمرة لأمريكا ، فعليها أن تقرر

سياستها الخاصة وتكوينها الدستوى والاقتصادى ، وطرقها الخاصة فى الحياة ، ويمكن تحقيق هذا الهدف إذا تكاملت أوربا سياسياً بدرجة تكفى لاتباع سياسة مشتركة ، وعليها أن تجعل الإنتاج والاستهلاك على نطاق واسع بدرجة كافية، وأن تستقل عن المساعدة الخارجية . إنه لدليل ينطوى على أعظم الحكمة ، أن الولايات المتحدة لم تمارس، مع أوربا ، الحيلة الرومانية المتمثلة فى القول التالى : « فرق تسد » ، ولكنها حثتها على الوحدة .

وليس هناك ثمة خطر من حدوث صدام مسلح بين أوربا المتحدة والولايات المتحدة ، لأن تشابك مصالحهما ووحدة مثلهما العليا كفيل بالحيلولة دون وقوع هذا الصدام ، إلا أنه من الضرورى، كما سبق أن أشرنا ، للقيادة الصحيحة فى أى مجتمع ، أن يكون هناك ثقل مضاد لها ، قادر على تقديم النقد والمنافسة ، ومستعد لتولى زمام القيادة إذا دعت الضرورة لذلك .

ولبلوغ هذه الغاية، سيكون من الضرورى أيضا أن تضع أوربا فى اعتبارها بعض المقتضيات الأخرى التى يخشى البعض التغاضى عنها فى هذه الأيام .

عقدة التعالى الثقافى عند أوربا

من الضرورى ، للإبقاء على علاقات أوربا الطيبة بأجزاء العالم الأخرى ، ولأجل حيويتها الخاصة أيضاً ، أن يتخلى الأوربيون عن اعتقادهم الفطرى بأن « ثقافتهم » أسمى من ثقافة أمريكا أو آسيا مثلا ، فليس أبغض عند الأمريكيين أو الأسيويين من الموقف الذى يتخذه الأوربيون عادة - بلا وعى غالباً - نحو شعوب مناطق العالم الأخرى ، هذا الموقف الذى يتمثل فى اعتقادهم أنه من المفروغ منه أن للثقافة الأوربية تقاليد أفضل ، وأنها أكثر عمقاً وتهذيباً من ثقافات الآخرين

ذلك أنه ليس هناك ما يبرر الافتراض القائل بأن المناطق الأخرى لا تملك القدرة على إنتاج ثقافات مماثلة، أو أنها لا تفعل ذلك فى الواقع ، فإن ما بقى من حضارات الشرق العريقة فى القدم التى طعمت بقوى من قوميتها الحديثة الولادة وبالأعمال الثقافية الأمريكية الجديدة ، يشكل تحدياً خطيراً لأوربا حتى فى الميدان الثقافى ، فليس فى تاريخ الشعوب والحضارات شىء أدى إلى موت قوتها الروحية مثل ما أدى إليه الغرور والإعجاب بالذات ، وليس هذا الموقف علامة التدهور فقط ، بل إنه — أيضاً — أصل التدهور ؛ فعلينا معشر الأوربيين بين أن ندرك ، ذلك جيداً .

عقدة القريب الفقير عند أوربا

يضاف إلى عقدة أوربا المتمثلة فى الشعور بالتعالى الثقافى، وهو شعور قديم، شعور آخر ولد منذ الحرب العالمية الثانية، هو «عجزها» عن التخلص من اعتمادها على المساعدة الخارجية .. بل إن هناك ارتباطاً معيناً بين الاثنين ، من حيث أن الإحساس بفقدان الزعامة الاقتصادية دفع كثيراً من الأوربيين إلى البحث عن تعويض فى شكل إحساس مغرور بسمو ثقافتهم الخاصة ، وفى موقف كهذا ، يكون الاتجاه البشرى دائماً نحو المعاذير التى تتمثل فيما يلى: لو قابلتنى نفس الظروف المواتية لحققت نجاحاً أكثر ».. ولكن الخلاص الحقيقى للشعوب العريقة مرهون بقدرتها على مواءمة قيمها مع الظروف الجديدة ، وأن تعمل على أن تحقق ما يحققه الآخرون ، بل مثل ما حققه أجدادها الأولون .

وليس هناك ما يقتل المبادأة مثل عادة الرجوع إلى الآخرين

فى طلب المساعدة الاقتصادية والمالية . فمن الجائز أن تكون مثل هذه المعونة ضرورية فى فترات الانتقال ، ونافعة لسد الثغرات ، ولكن إذا طال بها الأجل ، وامتدت إلى ما بعد فترة الضرورة المطلقة ، فإنها تصبح مصدر ضعف . . . زد على ذلك أن عادة التهديد السارية فى كثير من الدول غير الشيوعية التى تترقب من الولايات المتحدة أن تسد ما يطرأ على اقتصادها من عجز مالى لمنع اقتصادها القومى من السير فى طريق التدهور ، إنما هى عادة قاتلة لقوة اقتصادها . وكلما بادرت أوربا إلى الاعتماد على نفسها وعلى مبادئها الخاصة ووضع حد للمساعدة الأجنبية ، كان ذلك أفضل لها .

كنز التنوع الأوربى

يجب ألا تضع الحاجة إلى إنتاج أوربا واستهلاكها الجماعى ، والدفاع المشترك والسياسة المشتركة — نهاية للتنوع الذى شكل أحد مصادر ثراء الحضارة الأوربية ... فمن أديرة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، ومن مدن عصر النهضة ، ومن مدن هانسا فى ألمانيا ، وفى الأراضى المنخفضة ، ومن جامعات باريس وبولونيا وبراغ وهيدلبرج وأكسفورد — من هذه المصادر كلها فى أوربا ، إنبثقت المياه التى تجمعت فى المجرى الرئيسى للحضارة الأوربية . إن تكامل أوربا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً يقتضى لا محالة التضحية بكثير من المصالح المحلية والقومية ؛ لكن ينبغى ألا تهدف إطلاقا إلى التطابق الكامل ؛ ذلك أن نهاية التنوع تعنى نهاية أوربا .

تراث أوربا الدينى

قلنا من قبل إن مهد الحضارة الغربية وجد فى الأديرة والكتدرائيات وفى القوانين المقدسة ، والفن الدينى ، والعلم الرهبانى فى أوربا أيام القرون الوسطى ، وليس فى الإمكان فصل ذلك الأصل الدينى عن الثقافة الأوربية مثلما لا يمكن فصل تنوعها أو إحساسها بالحرية . لقد كان هذا الإتجاه الدينى يثبت دائما بقوة فى أوربا ، حتى عندما كانت نزعات «الإنسانية» وما ينشأ عنها من اتجاهات« مادية» وميول « ماركسية » تنشط كقوى منافسة . والواقع أنه لم تعش حضارة بعد تلاشى أساسها الدينى . وينطبق هذا القول تماماً على الحضارة الغربية اليوم كما انطبق على غيرها من الحضارات فى الماضى . ومن البديهيات أن التأثير الدينى ما زال قويا ليدعم هذه الثقافة . وليس هناك فى هذا الصدد خير من كلمات ت . س إليوت فى كتابه « ملاحظات حول تعريف الثقافة » :

« إننا مدينون بأشياء كثيرة لتراثنا الدينى بالإضافة إلى الإيمان بالله ، فعن طريقه نحصل على مفهومنا عن القانون الرومانى الذى فعل الشىء الكثير فى مجال تشكيل العالم الغربى ؛ وعن طريقه حصلنا على أفكارنا عن الأخلاق الخاصة والعامة ؛ وعن طريقه حصلنا على مقاييسنا العامة عن الأدب من آداب اليونان

وروما ؛ وفى هـذا التراث وجد العالم الغربى وحدته .

« وفى ظل عقيدتنا الدينية تطورت فنوننا ، وتأصلت قوانين أوربا إلى عهد قريب . ومن خلال المعارف الدينية ، تكتسب أفكارنا معانيها ، فقـــد لا يصدق الفرد الأوربى أن العقيدة الدينية صحيحة ، ومع ذلك فإن ما يقوله وما يفعله ينبع كله من تراث الثقافة الدينية ، ويعتمد على معنى هذه الثقافة . إن الثقافة الدينية هى وحدها التى استطاعت أن تنجب فولتير ونيتشه ، وأنا لا أعتقد أن ثقافة أوربا تستطيع أن تبقى بدون العقيدة الدينية ، وإننى لمقتنع بذلك لا لمجرد أننى أؤمن بهذه العقيدة ولـكن لأننى درست البيولوجيا الاجتماعية ، فيوم تذهب عقيدتنا الدينية ، تذهب أيضاً حضارتنا بأسرها ، وعليك عندئذ أن تبدأ من جديد والآلم يعصف بك ، ولـكنك لن تستطيع أن تنشىء ثقافة جديدة « جاهزة » ؛ فعليك أن تنتظر ريثما ينمو العشب ليطعم الأغنام التى تقدم الصوف الذى

سيصنع منه رداؤك الجديد! عليك أن تجتاز
قروناً طويلة من البربرية ، ولكننا لن نعيش
حتى نرى الثقافة الجديدة ، بل لن يراها
أحفاد أحفادنا ، وإذا رأيناها فلن يشعر
أحد منا بالسعادة من جراء رؤيتها ! »

* * *

وإذا استطاعت أوربا أن تعيد تقوية قيمها الأساسية ، وبذلت جهداً جباراً لمواجهة تحديات أزمة القرن العشرين ، فلن يكون هناك سبب يمنعها من الاستمرار فى أن تكون إحدى القوى القيادية فى العالم . . لقد عادت مصر من جديد بعد خمسة عشر قرناً ، وعادت آشور بعد ستة قرون ، وعادت بابل بعد خمسة عشر قرنا ... لقد قامت فى كل منها إمبراطورية جديدة أكثر مجداً وروعة من الأولى . وفى استطاعة كل حضارة أن ترتفع إلى ذرا أعظم ولو فى طورها الأخير المزعوم الذى لم تدخله بعد .

وهناك مجالات فسيحة ، كما حاول هذا الكتاب أن يثبت ، للإيمان بأن أوربا وأمريكا تملكان القوة الخلاقة للتغلب على أزمة الحضارة الغربية الحالية ، وتوجيهها إلى ذرا جديدة ، ولسوف يؤدى التعاون والتفاعل بين العالمين القديم والجديد — إذا صمما على ذلك — إلى مزيد من الثمار التى جاءت بها تلك القوة التى حركت أساتذة القرون الوسطى ، وألهمت موسيقى بيتهوفن ، وحركت وليام الصامت ، وجورج واشنطون ... إنها روح الغرب الخلاقة .

إن هذا يمكن أن يتم ، ولكنه يتوقف علينا نحن .

(تم الكتاب)



دار الكرنك

تقــدم

مشروع المكتبات العشرين

١ ـ المكتبة الثقافية
٢ ـ المكتبة الدولية
٣ ـ المكتبة الطبية
٤ ـ المكتبة العلمية
٥ ـ المكتبة السياسية
٦ ـ المكتبة المسرحية
٧ ـ المكتبة الفنية
٨ ـ مكتبة « أطفالنا »
٩ ـ مكتبة الحضارات
١٠ ـ المكتبة الأدبية
١١ ـ مكتبة « الناشئين »
١٢ ـ المكتبة الدينية
١٣ ـ المكتبة العمالية
١٤ ـ المكتبة الصناعية
١٥ ـ المكتبة القانونية
١٦ ـ مكتبة « خدام الإنسانية »
١٧ ـ مكتبة « أبطال التاريخ »
١٨ ـ دائرة المعارف العامة
١٩ ـ دائرة المعارف العربية
٢٠ ـ دائرة المعارف ال

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة

الثمن

مطبعة مخيمر تليفون: ٤٧١٩٣